من الإعجاز العلمى
للقرآن الكريم والسنة المطهرة

آدم .. وعلوم الاستنساخ

الخلق والبعث بين المادة والطاقة والعدم

عبد الرحمن محمد الرفاعى

الجزء الأول

آدم . . وعلوم الاستنساخ

الخلق والبعث بين المـادة والطاقـة والعـدم

الكتاب: آدم.. وعلوم الاستنساخ

المؤلف: عبد الرحمن الرفاعى

الناشر: مكتبة مدبولى الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز ـ المهندسين

ت: ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠

رقم الإيداع: ٩٨/٧٨١٤

الترقيم الدولى: 977 - 286 - 057

تصميم الغلاف: عاطف منصور

الجمع والتنفيذ الفنى: عفت إبراهيم

مراجعة لغوية: سيد عبد المعطى

الطبعـة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م

إهـــــداء

إلى مَن منْ نفسى استنسخت.. ﴿وخلق من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها..﴾..
إلى من جُعلت لى السكن.. المودة.. الرحمة..
﴿وجعل بينكم مودة ورحمة..﴾.. إلى الفؤاد شقيق القلب.. إلى أم.. أحمد رواء..
وأمون ومحمد.. ونوره وعمر..
إليك يا رفيقة العمر وأنيسة الرحلة.. أهدى هذا الكتاب..

عبد الرحمن محمد الرفاعى

القاهرة فى : ١٤١٨/٤/٣هـ - ١٩٩٧/٨/٦م

المقدمـــــة

اللهم لك الحمد يامن خلقت فأبدعت، لك الحمد يامن أوجدت وصورت، لك الحمد يامن تنزهت وتعاليت.. لك الشكر يامن ألهمت وهديت، ووفقت وأعطيت، فلك الشكر ولك المن.. فزدنى يامن أمرت بالاستزادة من علمك وعطائك ـ علماً ـ زدنى يامن قلت فى محكم كتابك المعجز الخالد: ﴿وقل ربى زدنى علماً﴾(١) فزدنى علما.. علما نافعاً.. وقلبا خاشعاً.. ولسانا شاكراً.. وصلِّ وسلم على سيد الخلق وشافعهم فى المقام.. يوم المعاد.. نبينا محمد ﷺ صاحب الإسراء والمعراج.. صاحب المعجزة الكبرى القرآن.. الكتاب الذى ﴿لا يغــادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾(٢).. المعجز فى جدله، المعجز فى علمه وعلومه.. كيف لا وصاحبه هو (العليم الخبير).. ويكفى أن فى خلوده إعجازا.. إعجازا كثيرا.. وعطاء متنوعا.. معجز مع تغيير الأزمنة والأمكنة.. يعطى كل زمان ومكان ما يلائمه ويصل إليه ارتقاؤه وتطوره.. إنه كتاب أسفله مغدق، أعلاه مثمر.. كتاب قد حوى كل ما فى الكون الخــافى منه والمنظور: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾(٣).. كتاب يسير مع الأمكنة وعصورها، يعطيهم ويمدهم ويرمز لهم وحينا يكشف.. وحينا يشير بكل ما يعجزهم ويبهرهم فيما هم فيه مبرزون وفائقون.. حتى جاء

(١) سورة طه: آية «١١٤».

(٢) سورة الكهف: آية «٤٩».

(٣) سورة النحل: آية «٨٩»

عصرنا.. عصر العلم والعلوم، عصر الكشوفات والإبداعات العلمية.. فطبيعى أن يكون موقف إعجازه معهم، هو موقفه مع كل عصر وبيئة قد مضت.. وقبل أن نمضى يستحسن أن نقف هنيهة مع استفسار خاطف استوجب المقام الإشارة إليه، هو هل صفة هذا الإعجاز الرئيسة هى العموم أو الخصوص أو بمعنى آخر: هل معجزة محمد ﷺ القرآنية هى خاصة بقومه العرب أم أنه عام لكل الخلق إلى أن تقوم الساعة؟.. وإجابة هذا الاستفسار تدعونا لأن نعود إلى الوراء سريعا لكى نلقى نظرة خاطفة على بعض من خاضوا حول ذلك عبر القرون، ولكن فى إيجاز لا يتجاوز السطر أو السطرين بمشيئة الله تعالى.. وذلك أن معظم من خاضوا حول صفة الإعجاز القرآنى نجدهم يقولون: بعمومية صفة هذا الإعجاز إلى أن تقوم الساعة، مستدلين على ذلك بكثير من الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(١).. بل هناك ما يزيل أى تردد وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾(٢).

فى حين هناك فئة قليلة تقول بعكس ما سبق، أى أن صفة هذا الإعجاز هى صفة الخصوص، أى أنها خاصة بالعرب وحدهم، ويقولون فى ذلك إن القرآن الكريم تنزل بلغة العرب وحدهم، ولم يشر إلى لغات غيرهم، كما أشار القرآن الكريم إلى هذا فى كثير من آياته كما فى قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾(٣) وكقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾(٤) بل إن هناك ما يؤكد هذه الإشارة بما لا تردد بعده وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم..﴾(٥).

فى جو هذا المعترك الخلافى، نتوجه بهذا الاستفسار لترجمان القرآن وحبر الأمة، وعالمها ابن عباس رضى الله عنهما وأرضاهما.. لتقول له: وأنت ماذا تقول؟ وما القول

(١) سورة الأنبياء: آية «١٠٧».

(٢) سورة سبأ: آية «٢٨».

(٣) سورة يوسف: آية «٢»

(٤) سورة فصلت: آية «٢».

(٥) سورة إبراهيم: آية «٤».

الفصل الذى يحسم هذا المعترك الجدلي؟ وعند الرجوع لجل ما روى عن حبر الأمة وعالمها، يمكن لنا أن نلخصه فى العبارة التالية:

يقول رضى الله تعالى عنهما ما معناه إنا أخذنا آية إبراهيم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم..﴾ مع آيتى الفريق الأول ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وآية ﴿وأرسلناك للناس كافة﴾.. سنجد أن الصفة الرئيسية لهذا الإعجاز القرآنى، هى العمومية.. وذلك أنه إذا كان محمد ﷺ مرسلا للناس كافة، بل رحمة لغيرهم - أى للناس - من الخلق كالجن والملائكة عند بعضهم «رحمة للعالمين».. تكون آية سورة إبراهيم ﴿بلسان قومه﴾ مؤكدة أن اللغة العربية التى هى لسان المرسل ﴿للناس كافة﴾ و﴿رحمة للعالمين﴾ هى لسان «للناس كافة» وأن قوم محمد ﷺ ليسوا هم العرب وحدهم، بل هم الناس كافة، وذلك لأنه مرسل لهم للأمم كافة.. إذن ما فى القرآن الكريم من إعجاز ليس خاصا بالعرب وحدهم، بل بالناس كافة، روميهم وفارسييهم وأحباشهم، بل كل الأمم.. وهذه الإشارة الدقيقة من حبر الأمة - رضى الله عنه وأرضاه - تجعلنا نقول إن المفهوم الإعجازى للقرآن الكريم يعنى أنه: عام فى خاص، وخاص فى عام.. أى أن فى القرآن الكريم إعجازا خاصا بالمنزل عليهم مباشرة هم العرب وفيه إعجاز عام يختص بشتى أجناس أمم من غير العرب.. فى الوقت الذى نجد أن تلك الخصوصية التى تختص بمن يحملون صفة العربية فى الإعجاز، تحمل كل مفاهيم صفة العمومية الإعجازية، كذلك نجد الصفة العمومية تحمل كل مفاهيم صفة الخصوصية الإعجازية. أى أن مفهوم الإعجاز القرآنى: أنه خاص فى عام.. عام فى خاص - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الإشارة ليست هى فلسفة منا.. وإنما هى حقيقة فرضتها مفاهيم وإشارات ما تجلى من حقائق هذا الإعجاز العظيم.. وإذا أردنا أن نوضح هذه الإشارة أكثر، فإنا نقول: إذا كان القرآن الكريم قد أفحم وأعجز من نزل عليهم مباشرة فى أعظم وأدق ما هم فيه مبرزون وفائقون، ومعلوم أن أمة العرب كانت ساعة نزول القرآن الكريم أفصح الأمم وأبلغهم على الإطلاق، وقد أسكتت بلاغة القرآن وفصاحته بل عظمة الإبداع النظمى التى تجلت فى سبكه وصياغته وتركيب جمله وعباراته - كما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى كتابه

«دلالات الإعجاز» أسكتت زعماء البلاغة والبيان فى أمة العرب، بل جعلتهم يخرون ساجدين ـ كما ورد عنهم ـ وإذا كان من كان يتزعم بلاغة وبيان الأمم قد أفحموا فمن باب أولى أن يفحم غيرهم، وكيف ذلك؟

فمثلا إذا نحن أخذنا أقرب الأمم جوارا للعرب عند النزول وبعده، فيا ترى ما الأمر الذى كانوا هم فيه مبرزين ويفوقون العرب، وبدون تفكير وإطالة سنجد أن من ذلك أنهم كانوا مبرزين فى تقانينهم التشريعية، وفى تنظيماتهم الإدارية، بل فى كل الشئون التى تستدعيها وتتطلبها الدول والإمبراطوريات من تنظيمات فى السياسة وشئون الحكم، فبلاغة تلك الأمم وفصاحتها تتجلى فى صياغة وسبك تلك التقنينات وما تستلزمه من صياغات الدساتير والقوانين وغير ذلك مما يتطلبه الحكم والحكومات فى إدارة شئونها.. ولما تنزل القرآن الكريم بأحكامه وتقنيناته وتشاريعه فى قيام الدولة وتنظيم العلاقات بين الحاكم والمحكومين داخل تلك الدولة، أو بين تلك الدولة نفسها ومحكوميها مع ما يجاورها من حكومات ودول.

فهذه التنظيمات والتشريعات القرآنية أبهر وأدهش بل أفحم ما فيها من عظمة فى العدل والمساواة، ودقة إبداع فى جمال إيجازها مع الشمول لكل ما تقتضيه الحياة.. ما فيها من حلاوة فى الصياغة، وتناغم فى العبارة مع منطق مفحم فى الإشارة، منطق يرتكز على عقلنة تخر ساجدة أمامها جباه العباقرة. كل ذلك أفحم وأعجز غير العرب من الأمم.. إذن فخصوصية ما كان يملكه العرب، اشترك فيه معهم عمومية ما كان يملكه غيرهم من أجناس الأمم، وأيضا ما كانت تملكه تلك الأمم من العمومية، اشترك معهم فيه خصوصية ما كان يملكه العرب، وهكذا فى كل ما يشمل شئون الحياة ويرتبط بها.

وهذا وغيره هو ما دعانا لأن نقول ما سبق أن قلناه: من أن الإعجاز القرآنى هو خاص فى عام وعام فى خاص ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذه الإشارة العقلية سيجد أخى القارىء لها تفصيلا أوضح وأشمل فى فصلين كاملين خصصنا بهما هذا الجانب. وقد حمل الفصل الأول منهما عنوان التسوية العمومية لكل الخلق الإنسانى، والثانى بعنوان: التسوية الخصوصية، وهى ما تتناول التسوية

الفردية أو تسوية جمعية لكل أمة يربطها مكان وزمان واحد وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن ذلك سنجد كيف يستطيع من لا ينطق العربية ولا عرفها حياته، فإذا أسلم وقرأ القرآن، فسنجده كأنه فرد من أفرادها، كما هو الشأن مع الماليزيين والأندونيسيين وغيرهم من الأمم. إذن فلغة العرب أمة العرب ليست خاصة بلسانهم وحدهم، بل هى تشمل كل الأمم الذين اندرجت تسويتهم العمومية والخصوصية وتحت مسمى أمة محمد، وهم كل الأمم من زمن البعثة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وذلك أن أمة محمد ﷺ ينقسمون إلى قسمين: أمة دعوة وأمة إجابة، فمن أجاب دعوة محمد ﷺ وأسلم فيندرج تحت مسمى أمة الإجابة، ومن امتنع عن الإسلام فهو يندرج تحت مسمى أمة الدعوة حتى يسلم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعلى هذا فكل من يسمون أنفسهم يهودا أو نصارى فهم فيما يدّعونه كاذبون واهمون، إذ العقل والواقع يكذبهم، وسوف نرى ما فى داخل هذا البحث من حقائق وإشارات وخصوصا فى الفصلين المشار إليهما آنفاً - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل الشواهد والبراهين موجودة ومحسوسة وملموسة.. وهكذا.

ومن هذا المنطلق الإعجازى لهذا الكتاب القرآنى العظيم كانت وقفتى مع عطاء هذا الإعجاز الذى لا تنتهى عجائبه ولا تنفد غرائبه، ولا يشبع منه العلماء.. هذا الإعجاز المتجدد عطاؤه، والحى لفظه والغنى معناه، كيف لا يكون هذا الإعجاز حيا أبدا؟ وكلمه كلام الحى الذى لا يموت، لهذا كان عطاء هذا الإعجاز على قدر حكم الخالق للمخلوق ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[1] بمعنى أن من جاء الإعجاز لأجلهم مختلفو القدرات، وهذا الاختلاف لا يخص الفرد فقط، بل إن اختلاف القدرات فى الأفراد يؤول لاختلافها جماعيا، بمعنى أن الأمم - أيضاً - تختلف قدراتها العقلية والفكرية حسب الأزمنة والأمكنة، ولهذا رأينا كيف راعى هذا الإعجاز هذا الاختلاف فى عطائه للأمم حسب اختلاف أزمنتها، ومن خلال ألفاظه المعهودة لكونها حية وباقية لا تتغير، لهذا كان إعجازه الذى صاحب الأمم

(١) سورة البقرة: آية «٢٨٦».

زمن إنزاله ـ كما أشرنا آنفا ـ اختلف فى طبيعته للأمم التى تلت من قبلها بقرون، وهذا أمر طبيعى لكتاب من أهم سماته وصفاته صلاحه لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وهذا الصلاح أهله لأن يُعجز ويفحم ويسكت إعجازه أى أمة فى أى بيئة أو زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو يفحمها فى بلاغتها وفكرها من أن تتسامى إليه، ويعجزها فى كشوفها، ورقيها العقلى، ويسكتها فى أى إبداع علمى وقد تتعالى به، كيف لا وهو كتاب فيه «بيان وتفصيل لكل شىء».. وإلا كيف يكون بقاؤه وصلاحه مع اختلاف الأزمنة والأمكنة؟ ومن هذا المنطلق يجب أن تكون البحوث والدراسات حول إعجاز هذا الكتاب العظيم، الذى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾.. بمعنى ألا نكتفى بما وجد من كتب ودراسات حول هذا الكتاب عبر الأزمنة المختلفة، وذلك لما علمناه عن طبائع هذا الإعجاز، وكونه يختلف فى عطائه حسب ما لدى الأمم ولا يعنى هذا أننا نهمل كليا كل ما وجد من كتب وبحوث ودراسات هذا الكتاب العظيم.. إذ مثل هذا القول لا يقول به إلا جاهل أو مجنون.. لكن فى الوقت الذى لا أهمل فيه ما سبق، أيضا لا أجعل ما سبق مغنيا للحاضر، إذ ليس كل ما سبق صالحاً للحاضر والمستقبل، وذلك لأن الحاضر تجد فيه أمورا لم تكن فى الماضى، ولعدم وجودها فى الماضى لم يتعرض لها الإعجاز، إذ كيف يتحدى شيئا غير موجود، ومن هنا استوجب الأمر أن نأخذ من الماضى للاستنارة به فى توضيح ما جد فى الحاضر، وكيف كان علاج أولئك مع ما كان يجد عندهم، ولا نعيب ما عمله أولئك بحجة نقصانه وعدم وفائه بما فى حياة الحاضر، هذا أمر لا يمكن قبوله، لعدم حصوله عندهم إذ لو أنه وجد عندهم لكان له شأن وعلاج.. بمعنى أننا نرى ونلاحظ ما الذى جد وحصل فى زمننا واختلف فى طبيعته عن زمن أولئك، فالأمر يستوجب علينا أن نهتدى بمن سبق فيما سنعمله.. فمثلا نلاحظ اليوم ما الذى حصل من رقى وتطور فى كل جوانب الحياة، فالغرب وصل به الأمر أنه الآن يحاول الوصول إلى المريخ بعد أن وصل إلى القمر، فهذا الرقى الفكرى، والإنجاز الإبداعى العقلى، هل نقف أمامه ونقول إن الإعجاز القرآنى لم يتعرض له ولم يشر إليه، ومن أجل ذلك فدعوة القرآن الكريم لا تشمل هؤلاء إذ لو أن دعوته تشملهم لما أهمل إعجازه ما وصلوا إليه وما سوف يصلون، لأنه من عند الله، فلو شملهم لما أهمل أولئك القدامى التعرض له؟ فتزداد عنجهية الغرب

وغطرسته.. فهل هذا منطق يقال؟ إذ قوله والله كبيرة الكبائر، وجرم الجرائم.. بل تالله إنه لكفر صريح!!! كيف لا يكون كفرا وهو تعطيل للقرآن الكريم وتجميد لعظمة إعجازه؟ وكيف لا يكون تجميدا، والغربي بعلمه وعلومه ساد الأرض وقاد البشرية.. فأين تحدى زمنكية الإعجاز؟ أتراها كانت مقصورة على زمنكية نزوله؟ أو ما بعدها بقرون يسيرة؟! إن من يقول بمثل ذلك فقد ظلم نفسه، لأنا رأينا الإعجاز يقول عن نفسه أنه: ﴿كـافـة للناس﴾، و﴿رحمة للعالمين﴾.. إذن فهو كما تحدى أهل زمنكية نزوله وما تلاهم.. كذلك هو يتحدى كل ما جد من تطور فى العلوم ورقى فى الفكر.. إنه يفحم الغرب الآن وكل من سيأتى بعدهم.. و لكن كيف ذلك؟ ذلك لا يكون إلا بالغوص فى معانى إبداعاته ودلائل محيطه، الذى لا يحيط به إلا من أنزله.. إن إيقاف الاجتهاد فى أسرار الإعجاز عند زمن الطبرى أو غيره يعد تعطيلا لأسرار الإعجاز، وتجميدا لتحديه.. أنا لا أهمل ما جاء فى تفسير الطبرى أو غيره.. فى الوقت الذى لا أقف عنده وأكتفى به.. آخذ ما جاءوا به لأصل من خلاله لكشف ما جد فى زمنى من رقى علمى وإبداع.. وهكذا نستطيع بتوفيق صاحب الإعجاز - الله تعالى - ربط الماضى بالحاضر لإنارة الطريق للمستقبل.. لتتجلى بذلك حقيقة ما سبق أن قلناه حول عظمة هذا الإعجاز وكونه ليس خاصا فقط، ولا عاما فقط، بل هو خاص فى عام، وعام فى خاص.. ومع يقينى الجازم أن فتح هذا الباب والولوج إلى مجاز أسراره، أمل دونه خرق القتاد وعمل يكلف من الجهد مالا يطاق.. لكن بالعزم وهمم الرجال، يستقاد المحال.. إن العمل الفردى لا يجدى فى هذا المجال، بل لابد من تضافر كل القوى.. ويهب أصحاب التخصصات كل فى مجاله ليشارك فى تحقيق هذا الأمر.. وإن ما أقوم به هو محاولة منى لرفع الراية والاستعانة بكل من يهمهم شأن الإعجاز، ليهبوا لجلاء وتوضيح عظمة ومكانة هذا الإعجاز.. ورغم قناعتى الجازمة بأن الجهد الفردى فى هذا الأمر لا ينفع، إلا أنى أحاول من باب ما يترك جله، يضيع كله.. ومن هنا تعددت وقفاتى مع عظمة هذا الإعجاز.. مع عطائه الذى لا ينفد ولا ينتهى.. ولكن هناك حقيقة يجب عدم تجاهلها لكل من يريد أن يتعامل مع الإعجاز القرآنى وعظمته، ومن تلك الحقيقة، أن من أسرار هذا الإعجاز أنه على القدر الذى تعطيه من الإخلاص والإقبال والعمل والصبر يعطيك مقابله

من الأسرار.. وكل ما سبق أن قدمته فى المرة الأولى فى كتاب سليمان - عليه الصلاة والسلام - وحقائق التلفزة، أو فى المرة الثانية فى كتاب الجن بين إشارات القرآن وعلم الفيزياء، أو مع كتاب وكالة الأنباء.. كل ذلك يشهد كيف كان الأمر إشارة خاطفة من لفظة قرآنية، أصبحت مع كل كتاب مما سبق - بفضل الله تعالى وحده - سفرا كاملا.. كل ذلك كان شاهدا لما قلته عن ثراء هذا الإعجاز وعطائه.. بل إن هذا ما سنلاحظه فى بحثنا هذا، وكيف كان عطاؤه أيضا فى هذه المرة، وعبر إشارة خاطفة ولمحة إعجازية معطاءة فى لفظة من آية قرآنية - أيضا - لفظة ترتبط دائرتها العظيمة، بدوائر القصة الخالدة قصة الخلق الإنسانى، وكل ما اكتنفها ودار حولها، قصة خلقه من العدم، وإيجاده حيا ناطقا.. ثم قصة تسويته وتعليمه، قصة دخوله الجنة وتدريبه العملى.. قصة دمج ومزج الجنس الإنسانى جميعه فى فرد اسمه آدم.. ثم قصة استنساخه من «أم الكتاب»..ثم استنساخه - بعد الدمج والمزج - ذرات من رقيقة ظهر آدم «صلب آدم عليه السلام». ثم إعادته فى رقيقته بعد ذلك.. قصة تصوير قوالب جميع الذرات الإنسانية المستنسخة فى رقيقة ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - ثم إدخال تلك الذرات بعد ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾.(١)

ثم قصة إهباطه - بعد ذلك - إلى الأرض لأجل محدود.. ثم موته وعودته فى رحلة عكسية إلى النقطة التى انطلق منها. إنها قصة الرحلة الإنسانية التى ملئت بها الكتب والأشعار وثار حولها الجدل وتصارعت العقول والأفكار، محاولة فك الرموز التى بنتها حولها صراعاتهم العقيمة دون أن تصل إلى حل سديد لكل تلك الرموز، وذلك لأنها فى كل محاولاتها التى قامت بها من أجل أن تصل إلى حل ترتضيه عقولها، كانت تدور فى محيط دائرته غير محكمة، لأن محيط تلك الدائرة غير محدد المعالم، لارتباطه بدوائر أخرى بتكاملها قد تتضح بعض معالم هذه الدوائر، إن جل أولئك المفكرين والفلاسفة حينما حاولوا إيجاد حلول لفك بعض تلك الرموز، كانوا ينطلقون فى حلولهم تلك من خلال خلق الإنسان فى المرحلة الدنيوية، ومن هنا كان الانحراف الذى أدى لكل ما حصل من تيه وبعد

(١) سورة الأعراف: آية «١١».

عن حقائق قصة الخلق الإنسانى، وذلك لأسباب كثيرة جدا، منها مثلا أن الوجود الإنسانى فى الحياة الدنيا لا يسمى خلقا، وإنما يسمى إنشاء، كما سماه القرآن الكريم بذلك: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾[١].

والنشأة الأولى هى إيجاد الحياة الإنسانية فى الدنيا، لأنه تعالى سمى الإيجاد فى الحياة الثانية - يوم القيامة - بالنشأة الآخرة ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾[٢]. وذلك لأن الإنشاء يختلف مدلوله اللغوى عن مدلول لفظة الخلق، وإن تقاربا من حيث المقصود، ولكن تعبيرات القرآن الكريم دقيقة جدا جدا، وكيف لا يكون كذلك وكل شىء به فيه إعجاز؟ فالإنشاء فى اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - يعنى النماء والإنماء، من شىء موجود مسبقا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أما الخلق فيعنى إيجاد الشىء من العدم.. إذن فهذا المدلول اللغوى يعطينا المفتاح الأول لفك بعض تلك الرموز.. وبذلك فإنَّا نخرج من هذا الفهم اللغوى، بأن إيجاد الإنسان فى الحياة الدنيا ما هو إلا إنماء له من موجود سابق له، وهذا الموجود السابق له، إنما هو الإنسان المخلوق نفسه سابقا، والذى كان منه هذا الاستنساخ الإنمائى فى الحياة الدنيا.. وهذا يعنى أن هذا المنشأ هو الذى كان له الخلق والإيجاد سابقا.. أى أن هذا الإنسان كانت له مرحلة خلق قبل الإنشاء الإنمائى.. وهذا الفهم أشار إليه القرآن الكريم نفسه ودلَّ عليه بقوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[٣].

إذن فالوجود الإنسانى أو مراحل الخلق والإيجاد الإنسانى، هو ذو ثلاث مراحل، وهى خلق نورانى من العدم: ﴿ولقد خلقناكم﴾.. ثم استنساخ إيجادى نورانى بخواص وخصائص تختلف - وإن كانت نورانية - عن المرحلة السابقة لها.. ويشير إليها ﴿ثم صورناكم﴾ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم استنساخ إنشائى إنمائى فى الحياة الدنيا بعد الإهباط.. وهذا النوع تشير إليه كثيرمن الآيات

(١) سورة الواقعة: آية «٦٢».

(٢) سورة النجم: آية «٤٧».

(٣) سورة الأعراف: آية «١١».

القرآنية منها قوله تعالى: ﴿يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾(١).

وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث لها خواصها وخصائصها، وماهيتها، وآياتها القرآنية التى تدل عليها وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام - وكل هذه المراحل الخلقية للإنسان كانت محك حديثنا فى بحثنا هذا، والذى حاولنا إيجازه واختصاره قدر الاستطاعة فى كل محاوره الثلاثة، وذلك لكثرة ما ورد عن هذا الخلق من آيات وأحاديث وشروحات وتفاسير.. ولهذا كان مصير أى حديث عن هذا الخلق وعودته إلى طبيعته التى انطلق منها فى رحلته الطويلة، عبر كل تلك التحولات والتبدلات التى تقلب فيها إلى أن وصل إلى محطته الدنيوية، أى حديث لا يتعرض لكل هذه المراحل وغيرها مما له ارتباط بذلك، سيكون مصيره الفشل.. وذلك لعدم الوقوف على الحقيقة كاملة.. ولا أقول أن ما فعلته فى هذه المحاور الثلاثة التى ضمتها ثلاثة أجزاء منفردة، هو الحل النهائى لكل تلك الرموز الهائلة - لا والله - لا أقول ذلك أبداً.. وإنما أقول عسى أن يكون ما فعلته الراية الأولى التى ارتفعت داعية ومنبهة، بعد بحث ولملمة وتنقيب - ومن موجود - فلعل ما فعلناه يفتح الباب فى هذا الطريق - بمشيئة الله تعالى - المحفوف بالمزالق.. ومن هنا أقولها صادقا لكل من أراد الدخول والغوص فى هذا المحيط الزاخر أن يتسلح بتقوى الله سبحانه وتعالى، وبالتوكل عليه، إذ بذلك تنفتح المغاليق.. ثم عليه بعد ذلك بالكد والبحث والتنقيب، والتزود بالصبر، إذ الطريق طويل وصعب وشاق، ولكنه - وربى - لذيذ بكل ما تحمله هذه اللفظة من مدلولات، ثم عليه بعد ذلك محاولة إيجاد المراجع المطلوبة، وهى العقبة الكؤود، إذ ما كل ما يتمنى المرء يدركه.. إلخ. وضرورة توافر المراجع وتنوعها شىء تستدعيه أمور كثيرة، منها مثلا: تدعيم ما ظننت صحته فيما أشرت به ولاسيما فى بحث كهذا مزالقه كثيرة.. وتدعيم - أيضا - ما قد يظنه الكثير جنوحا أو شطوحا، وذلك لأن الغوص فى محيط القرآن الكريم الواسع، ليس

(١) سورة النساء: آية «١».

بالأمر الذى قد تُظن سهولته.. إنه كتاب كله مخازن أسرار لا تنتهى - وحاشا أن تنتهى - إنه كلام الحق جل سناه ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا﴾(١).. إذن فمرحلة خلق الإنسان فى الدنيا ليست هى الأولى فى الخلق، وإنما هى الأولى فى الإنشاء، لسبقها بمرحلة خلق من عدم، وهى إيجادية تقديرية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ﴿ولقد خلقناكم﴾.. ثم مرحلة إيجادية تصويرية نورانية ﴿ثم صورناكم﴾.. ثم تصويرية طينية بصفات علوية - نورانية - ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾.(٢) ثم حصل بعد ذلك المزج الجمعى والاستنساخ البعضى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾(٣).. ثم حصول الإهباط بعد ذلك إلى الأرض وبداية مرحلة الإنشاء، أو الاستنساخ الإنمائى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. ولهذا نجد أن الحديث عن قصة الخلق الإنسانى لا تتضح معالمها، إذا اقتصر فى الحديث عنها على المرحلة الدنيوية فقط.. وهذا ما حاولنا عمله فى بحثنا هذا الذى نقدمه لك أخى القارىء.. ومن هنا نخرج أن المراحل الخلقية التى مرت بها الإنسانية قبل أن تصل إلى عالمها الدنيوى، لم تكن مادية، كما هى عليه الآن، بل رأينا أن مرحلة وجودها فى «أم الكتاب» قبل استنساخها منه كانت نورانية بحتة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم تلت بعد ذلك مرحلة الطبيعة - مرحلة التسوية الطينية - العلوية أى التى كانت فى الملأ الأعلى، وهى كما سترى - بمشيئة الله تعالى - مرحلة وسطية بين المرحلة النورانية البحتية السابقة عليها والمرحلة المادية الكثيفة الدنيوية، وهى مرحلة الاستنساخ الذرى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم..﴾ إلخ. وهى مرحلة سكنى الجنة والتدريب العملى.. أو كما قال الشيخ ابن عربى: «استنساخ ذراتكم من الأزل».. وهى مرحلة وسط بين النورانية الأولى والمادية

---

(١) سورة الكهف: آية «١٠٩».

(٢) سورة ص: آية «٧١ - ٧٢».

(٣) سورة الأعراف: آية «١٧٢».

الدنيوية، وهى أيضا التى ستكون على خصائصها النشأة الثانية يوم القيامة كما وضح ذلك من خلال الآيات القرآنية وما ورد عنها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن خصائص نورانية هذه المرحلة التحول إلى خصائص المادية الدنيوية بالإهباط الذى حصل لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من السماء إلى الأرض.. ولهذا نقول لكل أولئك الذين ينكرون أمر البعث والنشور، أو حتى يتشككون فيه، عليهم أن يراجعوا حساباتهم، ويعلموا أن أمر العودة آت لا مناص منه، إذ أن اللغز الذى كانوا يدعون إبهامه وغموضه، قد وضح وبان، وانكشف سر غموضه للعيان، كما أعلنها صريحة القرآن الكريم: ﴿..كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾(١).. ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾(٢).. ﴿أولم يروا كيف يبدى الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾(٣).. إذن فمن بدأ يعيد ومن بدأ أخبرنا كيف كانت الطبيعة الأولى التى أوجدنا عليها، وكيف أنا انطلقنا بعد ذلك منها وأخذنا نتقلب ونتحول إلى أن وصلنا إلى طبيعة كنا نعلمها، ومعلوم لدينا اليوم أن أى شىء قد وجد أصلا على خصائص طبيعة معينة ثم انتقل منها إلى خصائص طبائع أخرى، لابد أن يعود إلى خصائص الطبيعة التى كان عليها فى بداية أمره، وهذا ما نحن عليه، إذ قد كنا بخصائص نورانية، ثم تحولنا إلى خصائص مادية، بعد أن جمعنا جميعا فى جرم معين سوف يحمل خصائص طبيعة معينة، بإهباطه من نقطته التى كان فيها إلى طبيعة خصائص البيئة التى سوف يستقر فيها، وهذا ما حصل لنا جميعا مشخصا أمره فى جرم أبينا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذى أهبطنا من طبيعة البيئة الأولى التى كنا نحمل خصائصها، إلى خصائص طبيعة بيئة أخرى بأمر إهباطه لنا متجمعين جميعا فى جرم نفس واحدة، فحصل ما حصل من تحول فى الخصائص بأمر هذا الإهباط، هذا الذى أهبطنا يقول لنا ـ أيضا ـ كما بدأناكم سوف نعيدكم لسهولة أمره علينا، فكما حولنا إلى ما

(١) سورة الأنبياء: آية «١٠٤».

(٢) سورة الروم: آية «١١»

(٣) سورة العنكبوت: آية «١٩ ـ ٢١»

وصلتم إليه سوف نعيدكم لما كنتم عليه قبل مزجكم وجمعكم في نفس واحدة عند الإهباط - أي في نفس آدم عليه الصلاة والسلام - أي الأمر الفرادى الذى كنتم عليه عند الإيجاد الأول سوف نعيدكم إلى طبيعة هذا الأمر: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة..﴾(1). وهذا سهل أمره، فمن أنزلنا جميعا في جرم نفس واحدة سهل عليه أن يعيدنا ويبعثنا كخلق نفس واحدة: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾(2).

إذن فمن جاء بنا ونقلنا من خصائص إلى عكسها هو الذى سيعيدنا أيضا عودة عكسية لما كنا عليه من خصائص قبل الإهباط.. إذاً فأمر الخلق والبعث مربوط أمره بين حقيقة عالم التحولات، انطلاقاً من طبيعة ذات خصائص معينة إلى أخرى عكسية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه هى الفكرة الرئيسية التى يدور حولها بحثنا هذا، وهى فكرة أمر الخلق والبعث، وكيف أن طبيعة أمره تدور بين طبيعة حقائق عالم التحولات، طاقة ثم مادة ثم رحلة العودة العكسية من مادة إلى طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الفكرة تشعبت وتفرعت وتجزأت إلى قضايا وأفكار كثيرة ومتعددة جرّ إليها أمر توضيح وتجلية الفكرة الرئيسية - بحمد الله وتوفيقه - وتعدد أمر هذه القضايا وأفكارها جعلنا نحاول - ما استطعنا - أن يكون هناك شيء من التخصص الجزئى لكل مجموعة من تلك القضايا والأفكار الفرعية المتشعبة، بحيث يضم كل مجموعة محور رئيسى عام يربط بين مجموع المجموعة التى تنضوى تحت مفهوم عنوان فكرته الرئيسية، وقد خرجنا من تلك المحاولة التصنيفية - بتوفيق الله تعالى وعونه - إلى بلورتها فى ثلاث مجموعات، كل مجموعة يضمها محور خاص بها، وكل محور يضم مجموعته جزء خاص به يحمل عنوانه - بحمد الله تعالى وعونه - فمثلا سنلاحظ - بإذن الله تعالى وتوفيقه - أن المحور الأول سوف يدور حديثنا فيه حول فكرة كيفية بدء الخلق - الأول - وكيف أخذ بعد ذلك فى أمر تحولاته، وتعدد صور تلك

(1) سورة الأنعام: آية «94».

(2) سورة لقمان: آية «28».

التحولات، ولذلك سنجد أن من جملة الإشارات التى دار حديثنا حولها فى هذا المحور.. إشارات الطاقة والخلق الأول - اللوح والقلم والنورانية من إشارات مخازن عالم الغيوب.. «أم الكتاب» والوجود النورانى الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين حول التفريق بين «أم الكتُاب» واللوح المحفوظ.. وقفة مع ماهية «أم الكتاب» ولمحة سريعة عن مكونات الكمبيوتر.. نماذج حول «أم الكتاب» حول دلالات الكتاب، والرق والرقائق والأدساك وكل ما يرتبط بقضايا البرمجة والاتصالات - إرسالاً واستقبالا - وقفة مع الرأى العلمى الأول ومدلوله، مع إشارات الموجات والرقائق و«أم الكتاب».. «أم الكتاب» وحالات من حالات الخروج الاستنساخى إلى عالم الوجود النورانى الخالص - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - من اختلاف نورانية المراحل الثلاث.. الخلق جميعه كان مستقلاً مع آدم فى «أم الكتاب» وعند الاستنساخ الأول عند التعليم المنهجى الأول فى الملأ الأعلى: ﴿الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان .علمه البيان﴾(١).. أى العرضة التعليمية الأولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عودة لمحاور الآيات والكتاب والكتب والرقائق، أى أن لكل شىء رقائقه ودسكه المخزن فيه هو وكل ما له علاقة وارتباط به، فهناك دسك الأرزاق ودسك - كتاب - الأعمال، ودسك الآجال - الخاص والعام - ودسك الخلق ودسك البعث والنشور. وقفة مع قضية الآجال والموت، وقضية الموتات الثلاث.. والبرمجة.. لمحة سريعة عن عملية الموت والبرمجة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مع قضية «الكتاب المبين» وماذا يعنى ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ومن هنا ينتقل بنا الحديث إلى الفصل الثانى من فصول المحور الأول.. وفيه يبتدىء الحديث بهذا العنوان ««أم الكتاب» بين فكر ابن عربى وعلوم الحاسوب - الكمبيوتر - الحديث عن معنى مدلول القلم الأول والعقل الأول.. «أم الكتاب» وقضايا الاتصالات: بين فكر ابن عربى وعالم الرقائق.. ثم الحديث عن ابن عربى وأول منفصل وآخر منفصل فى

(١) سورة الرحمن: آية «١ - ٤».

دورة الفلك.. ثم وقفة مع ابن عربي وكيفية كون الإنسان على الأرض صورة مصغرة للحاسوب الأعلى «..أى آدم الأصل الذى فى السماء» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم الحديث عن كون الإنسان عبارة عن مجموعة من الرقائق المشفرة وكيف يتم الاتصال بينه وبين «أم الكتاب» عند ابن عربي.. ومن هنا يعود بنا الحديث حول قضايا الاستنساخ وبعض من مدلولاته، ومنه تكون بداية الفصل الثالث من المحور الأول، ويبدأ بهذا العنوان الجانبي: «من مفاهيم الاستنساخ» وفيه يدور بنا الحديث حول تنقل وتحولات خلقنا بين مراحله المختلفة.. ثم تعدد صوره وتنوعها، مع أن الأصل الذى استنسخت منه واحد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك كصورة الهباء والاستنساخ منه، الصورة الحركية النورانية، أى بداية التركيب الجسمى للإنسان نورانيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو استنساخ الإنسان الصورة مما هو مخزّن فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - ثم صورة الظل.. وكيف يخالف الظل أصله.. ثم الصورة التى مع ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - وصورة الأرض وتعدد صورها.

ثم يأتى الفصل الرابع ويدور الحديث فيه حول البداية الإنسانية الطينية الأولى بخصائص الملأ الأعلى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم الحديث عن التسوية الخصوصية والعمومية للجسم الإنسانى - الحاسوب الحى - وما الذى تعنيه هذه الإشارة.. وقفة مع التسوية الهيولية وبرمجة ذرات أصول بنى آدم بعضها فى بعض فى الظهور، لما سيكونون عليه فيما بعد - بإذن الله تعالى - مع مدلولات كلمة «مسنون» والتصوير بأنواعه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مع قضية عالم الروح ومحاولة التعرف عليه وسؤال حول ذلك - بإذن الله تعالى - عودة لعالم الاستنساخ: استنساخ (النطفة الإنسانية).. مع قضية الشريط الوراثى العهد والميثاق.. وقفة سريعة مع بعض مدلولات الإهباط وما الذى تعنيه.. مع سؤال مهم: «لم لم يبق الإنسان على طبيعته بعد الميثاق؟».. من أسرار التكليف.. مع شىء من مدلولات السجود ومفاهيمه وقضايا التسخير الكونى للإنسان والانفعال بينهما - والله تعالى أعلم

بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كمفهوم رقيقة الكرام الكاتبين.. ثم الحديث عن بعض محاولات تبويب ما أجمله ابن عربى حول تأهيل الجسم الإنسانى.. ثم تحليل سريع لما سبق. وهنا يبدأ الفصل الخامس: ويدور حول صور وحكم الدمج والمزج وإشاراته.. ثم كيف أنه لا صور محسوسة للأعيان قبل تركيب عناصرها.. من أدلة وبراهين الاستنساخ الجمعى ذى النورانية المتجسدة.. عودة للحديث عن ابن عربى وعالم الصور وتنوعه.. مع قضايا التبعية الجنسية وما يرتبط بها كقضية الاصطفاء والاختيار.. وقفة مع بعض علماء الفكر الإسلامى حول آية الاصطفاء.. مع التسوية وقضايا أشباه البشر.. ثم الحديث عن الداروينية ونورانية المرحلة الثانية وقضية التركيب، وهنا مسائل كثيرة كشواهد من طبيعة النشأة الثانية فى الدنيا ونوعية طينة آدم - عليه الصلاة والسلام - وقضايا كثيرة يختتم بها الحديث حول المحور الأول من محاور هذا البحث - بعون الله وتوفيقه.

ويهذا الاستعراض السريع لبعض نقاط المحور الأول ينتهى الجزء الأول ليبدأ بذلك استعراض سريع آخر أيضا لبعض نقاط المحور الثانى، وفى المحور يدور الحديث مرتبطا بمحور الجزء الأول ومجليا جل قضاياه وإشاراته.. فإذا كنا قد تحدثنا فى المحور الأول عن آدم - الإنسانية - من حيث خلقه النورانى، ثم بداية التجسيد النورانى تمهيدا للانتقال والتحول المادى، ثم إهباطه وتحوله - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وكيف أنه كان صورة مستنسخة من آدم الأصل الذى بقى هناك فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فإن حديثنا فى هذا المحور سيدور - بإذن الله تعالى - حول أهم الأسس لهذه الصورة الآدمية.. وذلك أن أساس هذه الصورة الآدمية كلها، هو عجب الذنب.. ثم كيف يصبح هذا العجب هو الفؤاد؟ وكيف يخرج من الفؤاد قلب وعقل. وسنلاحظ - أيضا - كيف ستتضح حقيقة الفرق بين دلالة ومفهوم القلب ومقصوده فى مفهوم الإعجاز القرآنى، وبين مقصود القلب فى المفهوم الطبى.. وذلك أن مفهوم القلب فى إشارات الإعجاز القرآنى يختلف تماماً عن مقصوده فى المفهوم الطبى، وهذا ما حاولنا توضيحه فى محور الجزء الثانى، من

خلال استعراض بعض النقاط التوضيحية.. كالتعرض لمدلولات القلب والفؤاد والعقل فى عالمى اللغة والطاقة.. وقضية النفس الكلية وعالم القلوب.. ثم وقفة سريعة مع ملخص الإمام الرازى حول هذه الدلالات الثلاث عند أهل الطب قديما ثم استعراض سريع لهذه المدلولات عند أهل الطب حديثا.. فقضية الجهاز العصبى العام والمركزى.. ولمَ سُمِّىَ الدماغ قلبا فى القرآن الكريم - والله تعالى أعلم - ولم يُسمَّ دماغا.. عودة للجهاز العصبى بعمومه وهو الفؤاد العضوى.. والمركزى بوجه خاص هو القلب العضوى.. إذن فالقلب والفؤاد لهما وجهان؛ وجه عضوى.. ووجه نورانى - طاقة - ثم الحديث عن «المضغة المخلقة» بين القلب والجهاز المركزى.. القلب النورانى هو الطاقة التى تتقلب داخل تجاويف هذه الأعصاب.. ثم وقفة مع البطن والبطون والظهر والجلد والقلب والفؤاد.. القلب والفؤاد وجهان لشىء واحد.. كيف تشهد الأعضاء على صاحبها؟.. كيفية تسجيل الأعمال؟.. عودة مع القلب والطاقة والفؤاد.. النخاع الشوكى والفؤاد.. مع عجب الذنب والقلب والفؤاد. عجب الذنب هو الفؤاد.. إذن هو الإنسان بذاته.. عجب الذنب والاستيداع وآيتا هود والأنعام.. عجب «الذنب والمضغة المخلقة وغير المخلقة».. الرحم مصنع تحويل وتجميع ذرات الصور الإنسانية الدنيوية.. عودة للون المضغة غير اللحم.. أين يذهب الشطر غير المخلق من المضغة؟ النسخة الأخروية، مع الشريط الوراثى والشفرتين اللتين فيه، وقضية النسختين المستنسختين من «أم الكتاب» والموجودتين فى عجب الذنب.. مع قضية اختلاف التربة بين النشأتين من حيث الخصائص والخواص وإن اتحدتا أصلا.. وجود جزيئات الأعضاء الأخروية مع نفس الأعضاء الدنيوية.. عجب الذنب والذرة، وأمكنة الأصول للنشأتين.. مع قضية قانون الحياة الحالية، وكيف بتغييره تتغير أنظمة الحياة وتنتقل إلى قانون الحياة الثانية؟ مع إشارة لابن عباس رضى الله تعالى عنهما والنورانية وعالم التحولات.. النورانية وحديث: «يذر عليه من تربته».. وقضية الجزيئات الأصلية.. مع قضية كيف احتفظت تلك الجزيئات النازلة من أعلى بخصائصها النورانية.. وهكذا يستمر الحديث والتحليلات السريعة حتى يصل بنا الأمر للحديث حول المحور الثالث، والذى ضمه الجزء الثالث والأخير من بحثنا هذا.. وهذا المحور أمره يتعلق بالحديث عن كيفية عودة هذا المخلوق الإنسانى إلى النقطة التى انطلق منها فى عوالم تنقلاته وتحولاته حتى وصوله لهذه

الدنيا.. والتى منها تبدأ رحلته العكسية إلى نقطة انطلاقه، أى أن جل الحديث يدور حول تجلية حقيقة البعث والنشور والعودة إلى رب العالمين.. وحقيقة البعث والنشور هذه، برغم جلائها، وبرغم كون كل شىء فى هذا الوجود يصرخ بحقيقتها، إلا أن الكثير الكثير من الناس تجدهم ما بين منكر ومتشكك فى حقيقتها - إلا من شاء ربك.

وفى هذا الجزء الأخير من هذا البحث حاولنا - ما استطعنا، واستكمالا مع كل ما سبق - توضيح سهولة وبساطة هذه الحقيقة كما شرحها وجلاها القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ.. وكما أشار القرآن الكريم فإنا سنلاحظ أن عموم فكرة العودة، أو البعث والنشور، يرتكز أمرها على مبدأ عالم التحولات، وهو مبدأ أن أصل كل الأشياء طاقة، أى أن كل عالم المادة الذى نعيشه، كان طاقة، وأخذ بعد ذلك فى تحولات متعددة ومتنوعة إلى أن وصل إلى هذه الطبيعة المادية - وقضية الإعادة - البعث والنشور - أى إعادة الأشياء إلى طبيعتها الأصلية التى انطلقت منها.. وقانون مبدأ التحولات أمر لا ينكره عقل، ولا عرف، ولا دين بل إن السباق على أشده بين علماء العصر الحاضر تحقيقه وذلك لإيمانهم وقناعتهم التامة على تحققه، إذن فالبعث والنشور حقيقة واقعة لا محالة.. وقد دار حديثنا فى هذا المحور الأخير على توضيح هذه الحقيقة.. وذلك من خلال الكثير من النقاط التى عالجنا فيها قضايا ومبادىء هذا العالم التحولى وقوانينه، مع الكثير من الشواهد والبراهين ثم ختم هذا الجزء بثلاثة شواهد أتى بها القرآن الكريم.. الأول: شاهد وبرهان عملى يريك كيفية حصول هذا البعث وكيف أنه يشبه فى كل خواصه وخصائصه مرحلة الخلق الثانية التى كانت فى الملأ الأعلى، ولذلك جعل شاهدا وعلامة وآية لكل ما يجلى ويوضح شأن هذه الحقيقة.. وهذا كله نجده متجليا فى خلق سيدنا عيسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها..﴾.. وإذا كان هذا الشاهد - الأول - قد تعلق أمره ببعض القضايا الخاصة بأمر هذا البعث والنشور وهى قضية السرعة التى لا يتصورها عقل ولا خيال بشرى، أى السرعة العالية جدا فى إحداثه، وكذلك فى أمر خصائص الطينة التى سوف يكون عليها الخلق عند البعث، وكيفية أن خصائصها تلك تختلف عن خصائص الطينة الحالية وإن كانتا واحدتى الأصل.. وهناك قضايا أخرى

كثيرة ارتبط بها أمر الشاهد الأول بتوضيحها.. تقول: إذا كان هذا الشاهد ذا خصوصيات جاء لتحقيقها، فإن أمر الشاهد الثالث كان أكثر عمومية فيما جاء لتوضيحه من قضايا أمر البعث والنشور وحقائقه.. ومن هنا سنلاحظ أنه كان أوسع دائرة، وأكثر شمولية فى عموميته من الشاهد السابق له.. وذلك لأن هذا الشاهد يريك ويجلى لك الكثير والكثير من حقائق التحولات التى حصلت وتنقلت فيها الخليقة الإنسانية منذ أن وجدت، إلى أن استقرت على هذه الأرض.. ثم يريك أمر مراحل عودتها حتى وصولها إلى النطفة التى انطلقت منها بعد إيجادها.. وقد كان تطبيق هذا الشاهد ونموذجه العملى على حياة سيد الخلق جميعا محمد بن عبد الله ﷺ فى رحلتى الإسراء والمعراج وبعد عرض القرآن الكريم الشاهد الثالث، والذى فيه أرانا الحق جل سناه: سهولة الإماتة والإحياء وأمر بساطتها بالنسبة لقدرته - سبحانه وتعالى عما يصفون - وذلك فى نموذجى قصة صاحب القرية، وقصة نبى الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مع الطيور التى أمر بذبحها.. هاتان القصتان اللتان تجلت فيهما عظمة إبداع البديع وقدرة القدير القادر، إبداع الإيقاف والتشغيل للإيجاد والإعدام - الموت والحياة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهكذا.. وقد كانت أهم النقاط الرئيسة وإن كانت هناك نقاط فرعية كثيرة جدا دار الحديث حولها فى بعض هذه الشواهد الثلاثة.. هى قضية قانون السرعة الفورية المشترك بين الخلق الأول والثانى لآدم وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - وبين البعث والنشور وهو قانون «كن فيكون».. ففى خلقهما الأول قال سبحانه وتعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(١).. وقال سبحانه وتعالى مثل ذلك آيات كثيرة منها مثلا: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾(٢) إلى أن يقول سبحانه: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾.. ثم نجد أن هذا القانون الفورى وقضية السرعة فيه مطبقة فى أمر نشأة نبى الله عيسى - عليه الصلاة والسلام - فى إيجاده فى الدنيا، سواء

---

(١) سورة آل عمران: آية «٥٩».

(٢) سورة يس: آية «٧٨ - ٨٢».

كان ذلك فى أمر تكونه أو فى أمر حمله وخروجه إلى الدنيا، واقرأ إن شئت فى ذلك قصة حمله ونشأته - عليه الصلاة والسلام - فى الآيات: من «١٦»: ﴿واذكر فى الكتاب مريم..﴾ إلى نهاية آية «٣٥» وهو قوله تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾(١).. ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن قضية خصائص الطينة التى تكونت منها نسخة جسد نبى الله عيسى - عليه الصلاة والسلام - وذرات نسخة جسده - عليه الصلاة والسلام - التى سوف تكون على خصائصها عند البعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم وقفة سريعة عن كيفية كون خصائص ذرات طينته الدنيوية بخصائص أخروية، فى بيئة وطبيعة الحياة.. ثم يأتى الحديث فى لمحة سريعة عن قضية تكوين الجزء الثانى من بدنه - عليه الصلاة والسلام - وبراهين وأدلة ذلك.. ثم عودة إلى طبيعة طينة نبى الله ﷺ وقضية أمر الموت وقوانينه، ثم ينتقل بنا الحديث للخوض حول أمر مرحلية الطاقة والخلق وعالم التحولات.. وهذه الإشارة تجعلنا نعود لنتحدث عن قضية اللون واللونية من ناحية فيزيائية.. وذلك لارتباط أمر الألوان بأمر الطاقة وتحولاتها كما هو معروف - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهنا نقف مع بعض من إشارات القرآن الكريم حول التحولات من مادة إلى طاقة والعكس. كالماء وتحولاته.. إلخ.. ثم نعود للحديث عن عجب الذنب وعالم الكوارك والكواركات فى عالم الطاقة والمادة وارتباط أمر ذلك كله بقضية البعث والنشور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الإشارة جعلتنا نعود بالحديث لقضية الازدواجية فى تنشئة الكون وكل ما فيه، وارتباط هذا الأمر بقضايا البعث والنشور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ليقف بنا الحديث بعد ذلك عند الفصل الأخير وخاتمة البحث، وذلك باستعراض نقاط بعض الإشارات فى قضية التشفير ونظام البرمجة الكمبيوترية وارتباط أمرها بأمر قضايا الخلق والبعث والنشور.. والنداء والإجابة والإرسال والاستقبال الكمبيوترى حتى فى أدق الأجزاء الخلقية، وكل ذلك فى إشارات ولمحات سريعة جدا جدا،

(١) سورة مريم: آية «١٦ - ٣٥».

كقضية الشفرة الموجودة بين الأجزاء بعضها بعض والآتية إليها عن طريق مراكزها الموجودة فى داخلها والمرتبطة بالمركز الرئيسى فى الخلية الأم والمرتبط بالمرسل الرئيسى الموجود فى الصور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وغير ذلك كثير مما سيجده أخى القارئ حول هذا أو غيره فى المحور الثالث وسابقيه، يختتم بذلك أمر هذا البحث بعد أن أخذ منا الكثير من الجهد فى الجسد والإرهاق الفكرى.. ولكن ما يريح القلب أن كل ذلك كان من أجل خدمة كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ فنسأل الله تعالى أن يجعله فى سجل حسناتنا لترجح به كفة أعمالنا.. بإذن الله تعالى.

وهنا نعود لنقول إن هذه النقاط التى ألمحنا إليها ليست هى كل ما فى هذا البحث بل قد لا نبالغ إن قلنا أن ما ذكرناه لا يعدل الخمسين بالمائة مما تعرضنا له، وقراءة البحث هى خير ما يؤكد صدقنا أو العكس.. وشىء آخر أود أن أقوله لإخوتى القراء وهو أن كل ما تحدثنا عنه فى هذا البحث الذى بين أيديكم ما هو إلا جزء مما وفقنا فى التوصل إليه بفضل الله تعالى وتوفيقه وجوده وكرمه، وذلك مما جمعناه فى هذا الموضوع، إذ قد كان واسعا جدا.. وقد تسألنى عن الأسباب التى دعتنا للاختصار والإيجاز، وقبل أن تسأل ذلك فإنى أقول لك ما كل شىء تجده يمكن أن تقوله لاعتبارات وأسباب كثيرة تحول دون قوله، ومن ذلك أن الكاتب لا يكتب لفئة خاصة، ولكنه حينما يكتب يضع نصب عينيه أن القراء يختلفون فى مداركهم.. وهذا الاختلاف يحتم على الكاتب أن يراعى اختلاف تلك المدارك، أضف أن الكثير من القراء حينما لا يدركون بعض القضايا التى عالجها الكاتب يذهبون فى تأويل تلك القضايا مذاهب شتى، بل قد يصل الأمر فى تأويل بعضهم إلى علمنة هذا الكاتب أو تكفيره، ومثل هذه التأويلات جعلتنا نوجز ونختصر الكثير مما توصلنا إليه، بل قد لا نسلم من مثل ذلك حتى فى هذا الموجز الذى نقدمه.. بل قد كانت لنا سوابق مثل هذا فى الكتابين السابقين سليمان - عليه الصلاة والسلام - وحقائق البث التلفزى، وكتاب الجن وعلم الفيزيا.. فقد أطلقت علينا أحكام كثيرة ما بين معلمن منهم ومكفر، وبعضهم حاول أن يكون أقل غلوا فيما أطلقه إذ «فكر وقدر» ثم صاح والله إنه لصوفى.. ولكن كل ذلك لم يثننا عما عزمنا عليه من خدمة كتاب الله وسنة رسوله الكريم

ﷺ، ولأن نية العزم - بحمده تعالى وتوفيقه - كانت صادقة فسرعان ما عاد أولئك عما رددوا وقالوا.. بعد أن اقتنعوا بما قرأوا.. ومع ذلك علينا أن نتوقع الكثير والكثير بل الأكثر مما سبق حول قضايا وإشارات آراء هذا البحث.. وليقولوا ما شاءوا، إذ قد أصبحت لدينا مناعة رصيدها: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.. ومع ذلك فنحن لسنا ضد الحوار، ولا نرفض الرأى الآخر إذا كان أقوى حجة مما ذهبنا إليه، إذ هذا هو الهدف الحقيقى مما نصبو إليه فكلنا مجتهد، ولكل مجتهد نصيب، وهذا ما يجب أن يكون.

وقبل أن أنهى حديثى السريع فى هذه المقدمة الخاطفة أود أن أشير بشىء من التوضيح اليسير لبعض الملاحظات التى قد تكون موضع استفسار.. مثل أن يقال: يلاحظ عليك أنك تقتصر فى أخذ شواهد حججك من كتب التفسير جميعها على اثنين منها فقط.. والمعروف أن كتب التفسير كثيرة، وهى مختلفة فى مشاربها، متنوعة فى مراميها ومعانيها.. وقد تجلى ذلك فى اقتصارك على كتابى الرازى والقرطبى.. ويلاحظ عليك أيضا - أنك كثير الأخذ من الشيخ محيى الدين بن عربى، مع علمك بما يقال ويدور حوله؟.. ثم هل أنت واثق كل الثقة من صحة وتخريج ما أوردته من روايات بعض الأحاديث المتناثرة فى جل كتب التفسير؟.. هذه بعض الملاحظات أردنا أن نشير إليها.

وقبل أن يسأل عنها.. أردنا أن نشير إليها لإحساسنا بأن مثل ذلك قد يقال.. وإن كان هناك الكثير مما كنا نود توضيحه والإشارة إليه.. لولا خوفنا من الإطالة على إخوتنا القراء.. أما قضية أن جل استشهادنا تفسيريا قد كان من كتابى الرازى والقرطبى، فإننا نقول: من المعلوم أن جل كتب التفسير قديمها وأكثر الحديث منها، وإن اختلفت مشاربها وتنوعت مراميها لا تخرج عن أمرين رئيسيين.. وهذان الأمران إما أن تكون كتب التفسير كتب رواية، أى أنها تورد جل الروايات، التى تحدثت عن القضايا والمواضيع التى تحدثت عنها هى، إيرادا فقط دون أن يكون فيها تعرض لها بأى نقاش أو تعليق، أو حتى توضيح لما ورد فيها، أما الصنف الآخر فهو ما يسمى بكتب الدراية.. وهذا النوع يندرج تحته نوعان.. الأول: وهو من يورد كل تلك الروايات التى أوردتها سابقتها، ولكنه يضيف إليها الشرح والتعليق، مع المناقشة لصحة ما أوردته تلك الروايات، بل وما قيل حولها من

شروحات وتعليقات أهل زمنه.. ومن هذا الصنف كان الشيخ القرطبى فى كتابه الذى أسماه (جامع أحكام القرآن الكريم) وقد كان جل أخذنا منه فى بابه، وذلك لأسباب كثيرة منها مثلاً أنه يورد جل ما قيل حول الآية القرآنية المراد تفسيرها إلى زمنه مع تعليقه، إذن فهو يريحنا من عناء الحصول على ما ذكر من مراجع نحن فى حاجة إليها ولا تتوفر فى منطقتنا أو حتى فيما حولنا، إضافة أنه يثريك بما تريده.. أما النوع الآخر من هذا الصنف، فيمكن أن يندرج تحت تصنيف كتب الدراية فى علم التفسير، فهى كتب بعض علماء الفكر الإسلامى قديماً أو حتى حديثاً، التى تناولت تفسير القرآن الكريم، ولكن بما يمكن أن نسميه فى عصرنا الحاضر بالتفسير العلمى، خصوصا الآيات التى عالجت بعض الإشارات إلى بعض القضايا الكونية، وإن كانت كتبهم لم تخلُ من قضايا الأحكام التشريعية، حتى فى هذه المواضيع فقد كانت طرق علاجهم لها لم تخرج عن المعالجات العلمية، كقضايا أحكام الحيض وما يترتب عليها من أمور نفسية وروابط إنسانية، وقد تلاحظ فى بعض أصحاب هذا المنهج ممن يسلكون مثل هذه الطرق، أنهم يجمعون جل ماقيل فى الموضوع الذى يعالجونه بمثل معالجتهم إلى زمنهم، مع شرح ماقيل ومناقشته، وبيان مافيه من صحة أو خطأ، ومن أصحاب هذا المنهج الشيخ فخر الدين الرازى، كما هو واضح فى تفسيره الذى أسماه بمفتاح الغيب، وبعضهم يسميه بالتفسير الكبير تمييزاً له عن كتاب آخر يعد مختصراً لهذا التفسير، ولهذا السبب وماسبق حول الكتاب الجامع، كان جل أخذنا منه، وذلك لكونه حاويا لجل الكتب التى مواضيعها فى مثل مافيه، أى أنه مكتبة مصغرة فى فنه ولأنه - أيضا - يكفى الباحث مؤنة البحث عن المراجع التى يريدها لموضوعه، فى حين هى موجودة، فى هذا الكتاب ملخصة مختصرة مشروحة.. بل هى طريقة أقرب لما يعمل به حديثاً فى بعض مكتبات العالم المتطور، كمكتبة الكونجرس الأمريكية مثلاً، وذلك أنها تقدم للباحث ملخصاً كاملاً يحوى جل ما قالته المراجع عن موضوعه الذى يتناوله بحثه، وأظن أن ما عملناه لا يخرج عن مثل هذا، أضف أن هناك سبباً آخر دعانى لعمل ما تناوله استفسارك - أخى القارىء - وهو شح وعدم توافر المراجع المطلوبة بمواضيع بحثنا، وخاصة الجانب العلمى قديماً لعدم توافر المكتبات

العامة فى مدينتى «جيزان»، إضافة إلى أن الكثير من الكتب المرجعية يمنع تناولها ووجودها، فأخوك مكره لا بطل، أما كثرة أخذنا واستشهادنا من كتب الشيخ محيى الدين بن عربى - رحمه الله تعالى - مع علمنا بما يقال ويدار حوله.. فإننى أقول: إن ما يقال ويدار حوله لا يمنع من الأخذ من علمه.. ثم إن أخى المستفسر قد أراحنا بإيراده هذه الإشارة فى استفساره.. وذلك أنه قال: مع ما يقال ويدار حوله.. إذن فما يشاع ويقال حوله هو من باب التقول.. والتقول افتراء، والافتراء على الآخرين ظلم وبهتان، ومن هذا الظلم والبهتان منع قراءة التراث والفكر الإسلامى العربى، والأخذ منه، بأى حجة أو تعلل، فالعقل الإسلامى قد حباه من دقة التمييز ما يؤهله لأن يميز الغث من الطيب.. ومن هذا التراث، تراث وفكر ابن عربى، إذ كان من الواجب علينا قبل تعميم منع قراءته والأخذ منه، وقبل العمل بهذا المنع، أن نقوم بتمحيص هذا المنع المعرفة مصدره، ومعرفة ما الذى يرمى إليه هذا المصدر من إطلاقه وترويجه بين أمتنا، فما بالك وقد وجدنا أن من كان وراء ما أشيع عن ابن عربى، هم المستشرقون ذلك الجسم الغريب الذى كان وراء كل بلاء وشقاء لأمتنا العربية والإسلامية، ومعلوم أن الهدف من وراء ذلك قد أصبح مكشوفاً لكل أبناء هذه الأمة إلا من شاء ربك معلوم أنهم يريدون إبعاد الأمة عن فكر علمائها وعباقرتها لينهلوا منه ما يشاءون وينسبوا إلى أنفسهم كل ما حصل من إبداع فكرى أو رقى عقلى ليجردوا بذلك الأمة من كل أمجادها الحضارية، ويقتلوا بخبثهم وحقدهم كل رموزنا فى العلم والفكر والأدب، وياللمصيبة بأيدى زيد وعمرو لا بأيدى طومسن وروجر والبليَّة أننا نصدقهم ونستجيب لما يقولون ويريدون، فابن عربى الذى أشاعوا عنه ما أشاعوا، نجدهم يطلقون عليه - فيما بينهم - لقب شيخ العلماء، إذن فما أشيع ويشاع عنه، هو تقول من خبث أو حقد من منتن، إذ هو لم يكن وجودياً، أو ملحداً، بل كان موحداً، عالماً مفكراً، ولعل ما نسب إليه وحكم لأجله عليه بالكفر والإلحاد، كان آتياً من قبل أولئك الحقدة الماكرين، أو لأنا لم نفهم حقيقة مارمى إليه وقصد.. وإلا كيف يكون الأمر برجل ملئت رسائله التى أثرت عنه بمثل قوله: (وعليك بلزوم الذكر والاستغفار.. إن كان عقيب ذنب محاه وأزاله.. وإن كان عقيب طاعة وإحسان، فنور على نور، وسرور على سرور، فالذكر

أجمع للهم وأصفى للخاطر، فإن سئمت فانتقل إلى تلاوة كتاب الله مرتلاً بتدبر وتفكر وتعظيم وتنزيه وسؤال عند آية سؤال، وخوف وتضرع عند آية خوف ووعيد واعتبار، فإن القرآن لايسأم قارئه لاختلاف المعانى فيه.

وعليك بحل عقد الإصرار من قلبك ولاتطيق ذلك إلا أن تقول لنفسك فى النفس الخارج. هل تدرين يانفس أن النفس الآخر يأتيك، أم لا! فلعل - والله أعلم - ربما تموتين فى هذا النفس، فإنه آخر أنفاسك فى الدنيا، وأنت مصرة على السوء .

عند الله تعالى للمصرين على الذنوب من العذاب، مالا تطيقه الجبال الشوامخ كيف بضعيفة مثلك؟ فتوبى إلى الله تعالى، فإنك لاتدرين متى يفاجئك الموت، فإن الله تعالى، يقول: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن﴾ وقال سيد الخلق رسول الله ﷺ «إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر».

وعليك بتقوى الله فى السر والعلانية، ومعنى التقوى، هو الحذر من عقابه، فإنه من خاف من عقابه بادر إلى الفعل الذى يرضى الله تعالى والله تعالى يقول: ﴿ ويحذركم الله نفسه....﴾.(١)

إذن فرجل يمتلىء قلبه وينطق لسانه بمثل هذا، كيف يتسرب إليه الكفر والإلحاد؟ أليس ما ينسب إليه هو تقول وافتراء من أعداء أمته وأعدائه؟ إذن فهو موحد لا وجودى، ومؤمن لا ملحد، - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وهذا الإنصاف ليس صادراً منى ولم أقله أنا، بل هو صادر عن رجل غاص فى فكر ابن عربى، وقرأ تراثه ، كعلم شامخ من أعلام المدافعين عن العقيدة الإسلامية، إنها شهادة لعالم وشيخ من مشايخ الأزهر الشريف، إحدى القلاع الحصينة والمدافعة عن بنيان العقيدة، إنه الشيخ عبد الرحمن حسن محمود ، وهو أحد الذين قاموا بتحقيق بعض تراث الشيخ ابن عربى.

يقول الشيخ عبدالرحمن حسن محمود، فى مقدمة تحقيقه لكتاب مجموعة رسائل ابن عربى: «عثرت أثناء البحث عن كتب الإمام محيى الدين بن عربى: رحمه الله تعالى ورضى

(١) بإيجاز واختصار من كتاب «مجموعة رسائل ابن عربى»: من ٢٧ - ٢٩

عنه ـ على كتيب يشبه أن يكون رسالة، وهو فى واقع الأمر حجة من الحجج القائمة على أنه يدين لله بالربوبية، وأنه من كبار الموحدين، وأن ما قاله أعداؤه مكذوب عليه رضى الله عنه وأرضاه، وأنه فحل من فحول العلم لايبارى. وإننى ـ والحمد لله ـ دائب البحث عن أمثال هذه الكتب، التى تزيل الالتباس من عقول بعض الدائبين على تكفير خلق الله، دون تعقل وروية، أو بحث عن الحقيقة(1)... إذن فما يقال عن ابن عربى، ماهى إلا أقوال مكذوبة عليه من أعدائه.. ومع ذلك كله فإن من أهم الأسباب التى دعتنى لأن آخذ من ابن عربى، أو حتى غيره ممن ينهج نهجه، هو أننى رجل مسلم، مهمته فى الحياة البحث عن الحقيقة، أو كما ورد عن رسول الله ﷺ مامعناه: (الحقيقة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها) ومادامت مهمتى هى البحث عن الحقيقة فلا يهمنى أمر المأخوذ منه فـ (كل امرىء بما كسب رهين) إذ مايهمنى هو الحقيقة ذاتها، أما قضية اعتمادى على بعض الروايات التى آخذها من بعض كتب التفسير، وما إذا كنت أنا واثقا من صحتها، أم لا؟ ففى الإجابة عن ذلك، سوف أعيد بعضاً مما سبق أن قلته عن مثل هذا التساؤل فى مقدمة كتاب: سليمان عليه الصلاة والسلام بين حقائق التلفزة وعلم التقنية، وقد قلت حول ذلك باختصار: «ذلك أن تلك الإشارات أو الروايات التى أخذتها واعتمدت، بعد مساندة الله تعالى وتوفيقه، عليها فى الاستشهاد على الكثير مما أوردته، فذلك لأنى وجدتها تعطينى الضوء الأخضر ـ كما يقولون ـ فى الانطلاق لما أردته، فمثلاً حينما أجد أن الرواة ينقلون حول قول الله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم﴾(2) يروون ما نصه، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: (فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾ والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد كقوله تعالى: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾(3) هذه الإشارة حينما نقف عندها ألا نجد فيها الكثير والكثير من الإشارات العلمية؟ ألا نجد فيها تلميحاً لمفهوم وجود الأصول

---

(١) من كتاب «مجموعة رسائل ابن عربى» تحقيق الشيخ عبد الرحمن محمود صـ٥.

(٢) سورة الحجر: آية «٢١».

(٣) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ١٤ ـ ١٥/١٠.

للأشياء واستنساخ الصور المتعددة منها على حسب ملاءمتها للبيئات التى ستكون فيها مثل تلك الصور المستنسخة؟ كيف لانجد فيها مثل هذا المفهوم، ونحن نعلم الكثير من الروايات التى صحت عن رسول الله ﷺ وهى تشير لمثل ذلك إن لم تكن تؤكده؟ ألم يرو عن الكثير من عمالقة الصحابة كعلقمة وابن مسعود وغيرهم - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - الكثير من الروايات التى تحدثت عن قضية خلق النطفة والملك الموكل بها، مثل ماذكر عن علقمة عن عبدالله قال: إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها الملك - الموكل بالرحم - بكفه، فقال: أى رب أمخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال (غير مخلقة) لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دماً، وإن قال مخلقة.. قال: أى رب أذكر أم أنثى؟ أشقى أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأى أرض تموت؟ فيقول: اذهب إلى (أم الكتاب) فإنك ستجد هذه النطفة فيها، فيقال: للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله.. فيقال: من ربك؟ فتقول: الله، فتخلق، فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، فالأثر هو التراب الذى يؤخذ فيعجن به ماؤه(١).

إذن فهى تؤكد إشارة الأصول واستنساخ الصور المتعددة منها، ومستودعات ومخازن تلك الأصول، وقضايا التصوير، والتحولات من طاقة إلى مادة والعكس وغير ذلك من القضايا العلمية، التى تفوق إدراكات البشر كما سبق الحديث عنها فى أماكنها، إذن فهناك أسباب كثيرة دعتنى آخذ بها.. أما عن كيفية اعتمادى على مثل تلك الإشارات وأمثالها من عدم التوثيق.. فهنا نقول وبالله العون والتوفيق: لعل عدم توثيق بعض تلك الروايات، إن صح عدم توثيقها عند الكثير ممن أهملها أو ضعفها ولم ينقلها، أو حتى يرويها، أن يكون ذلك لأسباب، منها مثلاً، بعدها عن العقلية فى تلك الفترة، إذ أن ما فيها من معان توحى بغرابتها وعدم ملاءمتها للمفهوم العلمى فى زمانهم، فهذه الغرابة أدت عندهم لضعفها ثم إهمالها، أو أنه لم تحصل أو تحدث أى كشوفات علمية تشير ويقرب مافيها من دلالات علمية من معانى هذه الإشارات وغير ذلك كثير.. والواقع أن هذه الإشارات وأمثالها المتناثرة فى أمهات مراجع ومصادر الحديث والتفسير وشروحاتها أو

(١) كتاب «التذكرة» للقرطبى. ١/١٠٧.

حتى في أمهات مراجع ومصادر التاريخ الإسلامي، يجب الاهتمام والعناية بها في عصرنا الحاضر، ومابعده، بإذن الله تعالى وعونه، لعل أن يكون فيها إشارة، أو برهان لحديث علمي تشير إليه آية قرآنية أو تكون تأكيداً لرواية حديث حوله خلاف.. وهذا المعنى أو غيره، هو مادعاني للأخذ بمثل هذه الإشارات أمثالها، وهذا ماستلاحظه مبثوثا، في ثنايا هذا البحث عند قراءته.. بإذن الله تعالى وتوفيقه.. وهنا أعود مرة ثانية لأطلب من كل من أراد أن يقرأ هذا البحث ألا يصدر أي حكم عليه أو له حتى ينتهي من آخر سطر أو كلمة كتبت فيه.. وذلك لأسباب متعددة، من أهمها، إضافة لما سبق كون أفكاره الرئيسية والفرعية متداخلة ومتشابكة بعضها مع بعض، فقد لا تتضح فكرة منه إلا بعد قراءة أكثر أفكاره إن لم يكن جميعها.. ولتكون الكثير من إشاراته والتي قد يظنها الكثير غريبة في دلالاتها، ولذلك قد يزول ماظنه غريباً بقراءة الأفكار التالية لسابقتها - بإذن الله تعالى وتوفيقه - وأيضا من تلك الأسباب، تلك الصعوبة والمشقة التي عانيناها في كتابة هذا البحث، إما بسبب طول الفترة الزمنية التي أخذناها في كتابته، فعلى ماأذكر أنني بدأت الكتابة فيه مع منتصف عام ١٤٠٨ هـ إلى كتابة مقدمته هذه التي بين أيدينا، في أواخر شهر جمادى الأولى من عام ١٤١٨هـ .

ويرجع ذلك إما لشح المراجع كما سبق أن أشرنا ومن تلك الأسباب - أيضا - تكرار فترات الانقطاع عن الكتابة فيه لأسباب وظروف عائلية، وكذلك أسباب وظروف العمل، وغير ذلك كثير جدا، هذه بعض النقاط التي وددنا أن نشير إليها في مقدمة هذا البحث.. وليعذرنا إخواننا القراء على ماقد يبدو من تقصير، فهذا ما وفقنا الله تعالى إليه، وهنا نعيد ونعلن وندعو ونناشد كل من سيقرأ هذا البحث سواء كان متخصصاً أو غير متخصص أن يدلي بدلوه في هذا الميدان، بل الواجب المقدس لما فيه من خدمة والدفاع عن العقيدة، وعظمة اللغة، ودقتها وإبداعها، واستيعابها لكل جديد ومتطور، وكيف لا وهي لغة القرآن كتاب الله العظيم، الكتاب الذي لا تنتهي عجائبه ولا يشبع منه العلماء.. وإننا على يقين أن إخواننا القراء لديهم الكثير والكثير في هذا المجال.. وهم لا يحتاجون إلا للتذكير والتوفيق الإلهي.. فعسى أن نكون قد وفقنا - بحمد الله تعالى وعونه - لهذا التذكير والتوفيق - بإذن الله تعالى - حاصل لمن طلب واستمده.

وفى الختام نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن نكون قد أشرنا إلى ومضة وجيزة ويسيرة من عظمة الإعجاز القرآنى والسنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. ولعلنا - أيضا - نكون - بحمد الله وتوفيقه - قد أدينا بعض الشىء لخدمة ديننا العظيم وسنة نبينا الكريم محمد بن عبد الله ﷺ.

اللهم إنا نسألك دائما وأبدا العون والتوفيق والرشد، وأن يجنبنا الزيغ والضلال.. والحمد لله رب العالمين.

عبد الرحمن محمد يحيى الرفاعى

٥ جمادى الأولى سنة ١٤١٨هـ
الساعة التاسعة مساءً من ليلة السبت
صباح الأحد ١٤١٨/٥/٢١هـ الموافق ١٩٩٧/٩/٢١م.

الفصل الأول
مع الطاقة والخلق الأول

من إشارات الخلق التقديرى

إن الخلق التقديرى هو كل ما قدره الله الحق جل سناه فى علمه - تعالى - أولا، وغيبا قبل أن يوجد ويتكون هذا المقدر.. وقد كان العالم كله مقدراً فى علم الله تعالى على هيئة وصفة لا يعلمها غيره - سبحانه وتعالى - حتى أوجدها وأخرجها إلى الوجود على هيئات وأشكال متعددة كما يريد هو سبحانه وتعالى. وفى هذا الصدد يقول أحد العارفين بالله تعالى: «إن هذا العالم وجد على المثال الذى وجد عليه من غير تفصيل.. فهو العلم القائم بنفس الحق - تعالى - فإنه - سبحانه - علمنا بعلمه بنفسه وأوجدنا على حد ما علمنا، ونحن على هذا الشكل المعين فى علمه، ولو لم يكن كذلك لأخذ هذا الشكل بالاتفاق لا عن قصد، لأنه لا يعلمه.

وما يتمكن أن تخرج صورة فى الوجود بحكم الاتفاق. فلولا أن هذا الشكل المعين معلوم لله - سبحانه وتعالى - ومراد له لما أوجدنا عليه، ولم يأخذ هذا الشكل «المميز له» من غيره، إذ قد ثبت أنه تعالى «كان ولا شىء معه».. إذن فمثالنا هو عين علمه بنا سبحانه وتعالى[1].

هذا بعض مما قاله هذا العارف بالله تعالى.. وفيه تلاحظ أن الخلق التقديرى هو القدر الذى كان ويكون فى علم الله تعالى.. وأن هذا العالم كله ما هو إلا صورة مماثلة تماما لما هو فى علم الله - تعالى - ولا تخرج عنه. وهذا القول من هذا العارف قد ورد ما يشير إليه إشارات ضمنية فى آيات كثيرة منها مثلا آية سورة الأعراف وهى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[2] وسوف تأتى حول معنى الخلق «ولقد خلقناكم».

---

(١) الفتوح المكية: ٢/٢٢٧

(٢) سورة الأعراف آية «١١».

إن الخلق فى اللغة عبارة عن التقدير.. وتقدير الله عبارة عن علمه بالأشياء. ومشيئته لتخصيص كل شىء بمقداره المعين، فقوله: ﴿خلقناكم﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر فى هذا العالم(١).

إذن فالخلق الأول هو إشارة إلى علم الله تعالى بالأشياء قبل حدوثها. وهذا الأحداث هو صورة مماثلة لهذا العلم المقدر لا تخرج عنه.. وسوف نلاحظ فى الإشارات التالية ما يشير إلى حقائق هذه المثالية وكيفية خروجها وتكونها أى تقلبها فى صور ومراحل متعددة، وأن هذه المثالية هى تلك الصور الأولى التى تكونت وانطبعت فى (أم الكتاب).. فهذا القرطبى يقول حول قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾(٢) يقول: «روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر». وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾(٣).

إذن فكل هذا العالم ما هو إلا مثال لما كان فى علم الله تعالى ونلاحظ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن ذلك المثال بدأ إيجاده بأن أودع فى مخازن متنوعة ومتعددة.. فما هى تلك المخازن الغيبية.. وماذا تعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

من إشارات مخازن عوالم الغيوب

يقول ذلك العارف بالله فى أحد كتبه: «أعلم أن الغيب مراتب».

أولاً: غيب الغيوب، وهو علم الله المسمى بالعناية الأولى.. لوح القدر الإلهى، الذى هو تفصيل قضائه وعلمه - سبحانه - وهو عبارة عن إحاطته بالكل بحضور ذاته لكل هذه العوالم.. لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض.

(١) تفسير الرازى صـ١٤
(٢) سورة الحجر آية «٢١».
(٣) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى:١٤ - ١٠/١٥

ثانيا: ثم غيب عالم الأرواح: وهو انتقاش صورة كل ما وجد وسيوجد فى العالم العقلى - النورانى - الذى هو روح العالم المسمى بأم الكتاب على وجه كلى.

ثالثا: ثم غيب عالم القلوب، وهو ذلك الانتقاش بعينه، مفصلاً تفصيلاً علميا كليا وجزئيا فى عالم النفس الكلية، التى هى قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.

رابعا: ثم غيب عالم الخيال: وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة فى أجرامها، معينة مشخصة، مقارنة لأوقاتها على ما يقع بعينه، وذلك العالم هو: المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة(١).

هذه إشارة سريعة لمستودعات تلك العوالم الغيبية، وإن كان سيأتى بمشيئة الله تعالى لكل هذه الإشارة تفصيل فى أماكن مختلفة بإذن الله تعالى، وترى معى أن تلك الغيوب تبدأ بأعلاها وقمتها وهو علم الله تعالى الأزلى وهو تفصيل قضائى وإحاطته به.. وإشارة هذا الغيب بكل حقيقته وحقائقه يؤكدها ويجليها لنا هذا الحديث، إذ قد رواه البخارى فى باب بدء الخلق - خلق آدم عليه السلام - ومسلم فى نعيم الجنة والترمذى فى آخر كتاب التفسير وهو: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله - قال له ربه: رحمك الله يا آدم، أذهب إلى أولئك الملائكة: فقل السلام عليكم قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال أى رب ما هؤلاء - فقال: هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه(٢).. سوف يأتى تفصيل له كامل فى مكان آخر بمشيئة الله تعالى.

إذن فهذا الحديث الجامع على صغره يجلى لنا حقيقة تلك المثالية. حقيقة كون كل هذا الخلق ما هو إلا صورة مثالية لما كان فى علم الله تعالى.. فهذا آدم المخلوق

---

(١) الفتوحات المكية

(٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «صلى الله عليه وسلم»: ٢٩٦ - ٥/٢٩٧.

المكون حينما يبسط له الحق - جل سناه - يديه، فيرى أمراً عظيماً، أمراً لم يكن يتوقعه يرى نفسه طبق الأصل وصور بنيه، شاخصة أمام عينيه، بل وعمر كل واحد منهم، إذن فالإنسانية المحدثة بأكملها وجميع الخلق كانوا صورا مقدرة فى علم الله تعالى وهى التى أودعت فى مستودعها الغيبى الآخر والذى سمى بأم الكتاب. فما الإشارات التى تشير إلى عملية هذا الإيداع.. وكيف بدأ أو كان والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وما الكيفية التى بدأ بها إخراج الخلق إلى عالم الوجود الروحانى والنورانى الخالص.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - والحمد لله رب العالمين.

مع أم الكتاب والوجود النورانى الخالص

روى الإمام أحمد والترمذى - وصححه أيضا - من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا (أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة..). وروى ابن ابى حازم عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: «خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة خمسمائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب فقال وما أكتب.. قال علمى فى خلقى إلى يوم القيامة».

وهنا روايات كثيرة كثيرة ومتعددة الطرق قد وردت وتفيد أن أول الخلق وبدءه هو القلم. وإن كانت هناك روايات أخرى وردت فى تعيين مخلوق آخر قبل القلم وهو العرش، وهى كثيرة.. وهناك روايات أخرى تسمى القلم بالعقل أى أن القلم هو العقل.. ورغم كل ما قيل من كلام على طريق رواية حديث العقل وضعفها إلا أن ابن حجر فى شرحه لفتح البارى عند تعليقه على قضية الجمع بين الروايات المختلفة حول بدء الخلق يقول: «وأما حديث «أول ما خلق الله تعالى العقل». فليس له طريق ثبت.. وعلى تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله»[1].

(١) فتح البارى بشرح ابن حجر: ٦/٣٤٤

إذن فابن حجر لم ينف حديث العقل نفيا مطلقا.. ومن هنا نعلم أن القلم أو العقل قد كتب فى اللوح أو أم الكتاب، كل ما هو كائن وسيكون إلى أن تقوم الساعة.

هذا بعض مختصر عن بداية أول الخلق خروجا إلى الوجود، وهو ذلك القلم أو العقل على الخلاف.. فكيف كان هذا القلم؟ وماذا أخرج؟ كما يراه أحد العارفين بالله تعالى يقول: أعلم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبلية وإنما ذلك عبارة للتوصيل، تدل على نسبة يحصل بها المقصود فى نفس السامع. كان - جل وتعالى - فى عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء.. وهو أول مظهر سرى فيه النور الذاتى، كما ظهر فى قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ فلما أسبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيمين، الذين هم فوق عالم الأجساد الطبيعية.. فلما أوجدهم تجلى لهم، فصار لهم ذلك التجلى غيبا.. وكان ذلك الغيب روحا لهم، أى لتلك الصور،وتجلى لهم فى اسمه الجميل فهاموا فى جلال جماله - سبحانه وتعالى عما يصفون.

فلما شاء الحق - سبحانه - أن يخلق عالم التدوين والتسطير، عين واحداً من هؤلاء الملائكة الكروبيين، وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سماه - القلم أو العقل - وتجلى له فى مجلى العلم الوهبى، بما يريد إيجاده من خلقه.. فقبل العقل أو القلم علم ما يكون، وما للحق من الأسماء الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقى.. فاشتق من هذا العقل أو القلم موجودا آخر سماه اللوح.. وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة. وجعل الحق لهذا القلم.. ثلاثمائة وستين سنا فى قليميته، أى من كونه قلما.

وجعل الحق لهذا القلم من كونه عقلا ثلاثمائة وستين تجلياً أو رقيقة.. كل سن أو رقيقة تفترق من ثلاثمائة وستين صنفا من العلوم الإجمالية فصقلها القلم فى اللوح.. فعلمها اللوح حين أودعه القلم إياها، فكان ذلك علم الطبيعة.. وذلك كله فى عالم النور الخالص[1].

(١) الفتوحات المكية: ٣٥٠ ـ ٢/٣٥١.

وبالتأمل بهذا الملخص لهذا العارف، نرى أن ذلك الخلق المقدر أزلا فى علم الله تعالى والذى رأى آدم نفسه وبنيه فى اليدين الشريفتين تراه يخرج إلى الوجود النورانى الخالص، صورا نورانية.. بل إن ذلك الغيب أصبح أرواحا تتحرك فى تلك الصور.. وهذا يعطينا إنطباعا واضحا عن طبيعة وأصل وصفة ذلك القلم أو العقل، وهى كونه نورانيا خالصا وهى أيضاً الصفة الرئيسية لطبيعة كل ما يوجد فى ذلك العالم.. وهذه الحقيقة من ابن عربى، قد جاء فى كتب الشرع الإسلامى، ما يؤكد تلك الحقائق ويسندها بل يعطينا تفصيلاً أوضح وأشمل.

فقد جاء فى جامع أحكام القرآن الكريم للشيخ القرطبى - ما نأخذ منه هذا المختصر - قال: «روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، قال: من اللوح من ياقوتة حمراء أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر ملك يقال له ماطريون كتابه نور وقلمه نور، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، ليس فيها نظرة إلا وهو يفصل: يرفع وضيعا أو يضع رفيعا، يغنى فقيرا، أو يفقر غنيا، يحيى ويميت ويفعل ما يشاء ولا إله إلا هو.

وقال أنس ومجاهد - رضى الله تعالى عنهما - إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى.. هو فى جبهة إسرافيل عليه الصلاة والسلام.. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش وقيل اللوح المحفوظ، هو الذى فيه الخلق والخليقة وبيان أمورهم وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم والأقضية النافذة فيهم ومآل عواقب أمورهم (وهو أم الكتاب).

وقال بعض المفسرين واللوح شىء يلوح للملائكة فيقرءونه - وهو ذو نور وشرف وعلو - وقال الزمخشرى واللوح: الهواء يعنى اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح وجاء أيضا عن قوله تعالى: ﴿ن.. والقلم وما يسطرون﴾.

ن: لوح من نور.. وعن ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ن. والقلم﴾ هو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض - ويقال خلق الله تعالى القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين فقال: اجر - فقال يارب وبم أجرى - قال بما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ.

هذا بعض مختصر مما جاء عن القلم وسوف يأتى تفصيلاً أكثر بمشيئة الله تعالى، وفيه نرى أن الصفة العمومية للخلق الأول أى الصورة المستنسخة الأولى لما كان مقدرا فى علم الله تعالى - إن صح هذا التعبير - والله أعلم بالحقيقة والصواب - والحمد لله رب العالمين - هى الصفة النورانية الخالصة - الطاقة فى عرفنا العصرى - وهذه النورانية واردة فى كل النصوص، فابن عباس رضى الله تعالى عنه وأرضاه يقول: هو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض ويقول عما اشتق منه «واشتق منه اللوح وهو من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر ملك - فكونه معقود بالعرش، والعرش نورانى - إذن فالمقصود من باب أولى أن يكون نورانيا - وشىء آخر أن أسفله فى حجر ملك والملك طبعه وجنسه. بل إن أنس رضى الله عنه يقول إن اللوح فى جبهة إسرافيل عليه السلام[1] - إذن فأول مخلوق كان نورانى الطبع والأصل وهو القلم وكذلك ما اشتق منه - وإذا كان الأمر كذلك، فطبيعى أن يكون كل ما بينهما - اللوح والقلم - من اتصال وإيداع وما يظهر عنهما أيضا من صور هى أمور نورانية بحتة، لكونها مستنسخة وظاهرة من مكان نورانى. يقول ابن عربى: «إن أول مبدع خلق هو القلم الأعلى.. وكان مؤثرا فيه بما حدث الله تعالى فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه كإنبعاث حواء من آدم فى عالم الأجرام، ليكون ذلك اللوح موضعا ومحلا لما يكتب فيه ذلك القلم الإلهى - وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق - تعالى - أدلة عليه، فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثى، كما ورد فى الشرع الحنيف «إن أول ما خلق الله القلم ثم خلق اللوح وقال للقلم: اكتب. قال وما أكتب.. قال: الله تعالى له: اكتب وأنا أملى عليك. فخط القلم فى اللوح ما يملى عليه الحق وهو علمه فى خلقه إلى يوم القيامة.

وجعل الحق - سبحانه - فى اللوح العاقل عن الله تعالى ما أوحى به إليه ثم أوجد الله فيه - أى فى اللوح - صفتين:

صفة علم وصفة عمل.. فبنسبة العمل تظهر صور العالم عنه - أى عن اللوح المحفوظ.. كما تظهر صور التابوت للعين عند عمل النجار فيها «أى بالصفة العملية

---

(١) القرطبى: ٢٩٨/ ٢٠.

يعطى النجار الصور». والصور على قسمين:

صور ظاهرة حسية وهى الأجرام وما يتصل بها كالأشكال والألوان... إلخ.

وصور باطنة معنوية غير حسية وهى ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات وبتلكما الصفتين ظهر ما ظهر من صور العالم.

فالصفة العلامة (أب) فإنها المؤثرة والصفة العاملة (أم) فإنها المؤثر فيها وعنها ظهرت الصور[1].

هذا بعض موجز وملخص لإشارة وجود أول الخلق، كما أشار إلى ذلك بعض أصحاب النقل من صحابة وتابعين وبعض أهل الفكر الإسلامى من العارفين بعلوم الإسلام.. وفيه نلاحظ أنها تبرأ - أى تلك الإشارات - بالعلم الأول، وهو علم الله تعالى الذى استنسخ منه الاستنساخ الكلى، أى الصور الكلية الكاملة لكل ما سيوجد وهو أصول كلى الأشياء، ولكنها بشكل كل، وبنورانية خاصة وهو «أم الكتاب»، ثم استنسخ منه لوح آخر وبنورانية أخرى اتصاله مباشرة بأم الكتاب المرتبط مباشرة بعلم الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو نسخة مطابقة كما فى «أم الكتاب» ولكنه بشكل مفصل تفصيلا علمياً كلياً وجزئياً، أى أن كل كائن موجود فى هذا اللوح - الشريحة - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بشكله الكامل المفصل وبشكله المجزء تجزيئا دقيقاً لكل الخلائق ودقائقه من تفصيل لكل هذه حقائقه من أعمال وأرزاق.. إلخ. مع ملاحظة أن كل من فى هذا اللوح من موجود هو وجود حركى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم انسخ من اللوح لوح آخر - هو بعينيه اللوح الأول، فيه كل ما فى سابقه وبنورانية أقل، وأظن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - هو المعبر عنه بالسماء الدنيا، أو الكتاب المبين، وهو كتاب خزائن الأشياء المنزلة إلى الأرض وتلاحظ من خلال ذلك النزر اليسير

(١) الفتوح: ٢/٢١٣

الذى أوردناه سابقاً، ما يثبت أن ذلك الكتاب وما يتفرع عنه من كتب وألواح، هو شىء نورانى، طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأن القلم الذى يكتب به فى تلك الألواح، هو أيضا شىء نورانى بل وكل ما فيه، وقراءته وكتابته «وما يسطرون» هى أشياء نورانية، وأن ما يدخل فى تلك الكتب ويخرج هى أمور من نوعها وجنسها، ومن هنا كانت تلك الكتب وما يرتبط بها من أمور هى أمور نورانية، لأن كل الموكلين بها هم وأدواتهم من جنسها.

وبالتأمل فى هذه الإشارات جميعها تجعلنا ننطلق بقوة لأن نضع كل تلك الإشارات وما سيرد بعدها بمشيئة الله تعالى تحت مسمى رمز علمى عظيم كما سنرى ذلك بمشيئة الله تعالى. وذلك لأننا سنجد من خلال كل ذلك إشارات علمية بحتة، قد نعتبرها بحق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الأسس والأصول لوضع واكتشاف علم الكمبيوتر وعلومه وحقائقه قبل مئات القرون.. لكى نعلم من كل ذلك مدى إبعادنا عن علومنا وتراثنا العلمى والفكرى، واستفادة من أبعدنا عنها منها.. وشوهها فى نظرنا ورسمها لنا فى صورة تنفر العالم اللبيب قبل طلاب العلم المبتدئين، ككتب بعض الصوفيين المعتدلين كالقشيرى والجنيد وابن عربى فى بعض كتبه لا كلها.. ولا تعجب ولا تستغرب من إيرادى لفظ الكمبيوتر، فقد ورد عن بعض علماء التفسير والفكر الإسلامى ما قد يزيل وجه العجب والغرابة عما أشرت به آنفا. أقول قد ورد عنهم مثل قولهم:«إن الله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا، ومثل هذا جاء فى جامع أحكام القرآن للقرطبى وغيرهم كثير»[1].

وهذا يعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه سبحانه وتعالى أوجد فى الدنيا أشياء وإشارات تشير لبعض الأمور الغيبية، من أجل التثبيت واليقين، ومن هذه المشاهد فى دنيانا اليوم - قد تكون الإشارة لمثل هذا الكتاب والألواح - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - علم

(١) التفسير الكبير للرازى: ١١٤/ ٢٠.

الكمبيوتر.. وليس هو بذاته طبعا، وإنما هى إشارة تقريبية لمثل ذلك - والله تعالى أعلم - فهذا اللوح - أم الكتاب - وما تفرع عنه من نسخ اختصاصية - والله تعالى أعلم - مبرمج فيها كل الأشياء.

ففى دنيانا اليوم أجهزة تحول كل شىء إلى نبضات كهربية، ويجرى برمجتها داخل هذا الجهاز سواء كانت أجزاء مفصلة أو كل كاملة.. وكل ما يختص بهذه الأشياء، وقد تحولها إلى العكس.. وقد رأينا أن هذا الكتاب، فيه كل أصناف الخلق والخليقة.. وبيان أمورهم وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكل ما يرتبط بهم.

وإذا كنا قد رأينا أن هذا الجهاز تسجل برامجه فى ذرات دقيقة جداً جداً، أو ما تسمى بالرقائق علمياً - بحيث يتم ادخال قضايا كثيرة، وكل ما يرتبط أو يتفرع لتحفظ بالأمكنة الخاصة بها لتستدعى عند طلبها.. فقد رأينا أن هذا الكتاب الأم (أم الكتاب) ترتبط به كتب كثيرة فرعية وألواح اختصاصية، فهناك كتاب الموت والآجال وما يرتبط به، وهناك كتاب الأرزاق وما يرتبط به، وكتاب أجزاء الأشياء وتفصيلاتها وما إلى ذلك.. وقد رأينا بعض الإشارات لذلك، وسوف نورد بعض التفاصيل لذلك بمشيئة الله تعالى.. ولكن قبل ذلك نود أن ننبه أن جهاز الكمبيوتر كله طاقة ولا يقبل فى كل تعاملاته إلا الطاقة، وكل ما يحفظ فيه ويؤخذ منه فهو طاقة.. بل إن هناك من يترجم هذا المصطلح الأجنبى - الكمبيوتر والعقل الآلى.

وقفة سريعة بين مكونات (أم الكتاب) والكمبيوتر

وإشارة العقل هنا تعطينا رمز حقيقة ما سبق أن قلناه آنفاً، ويستحسن أن نرجع هنا قليلا إلى الوراء لحقيقة تلك الإشارة الخلافية بين رواة أهل الحديث الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم - وبين مخرجى الأحاديث ومحققها. فالرواة يوردون حديثا يشير إلى القلم بلفظ العقل وبعض المحققين يضعفون تلك الرواية، وبعضهم يؤكد على صحة رواية هذا الحديث. ولكن بعضهم يتوسط فى الأمر كابن حجر فى كتابه فتح البارى بشرح صحيح البخارى - الذى أشار إلى هذا الخلاف وخلاف أيهما أسبق فى الخلق - العرش أو القلم. فإنه يقول «يجمع بين أحاديث خلق

القلم أولا وأحاديث خلق العرش أو الماء... إلخ. وذلك أن يجمع بينهما بأن يقال: إن أولية خلق الله القلم هو بالنسبة إلى ماعدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة أى أنه قيل له أكتب أول ما خلق.. وأما حديث «أول ما خلق الله العقل» فليس له طريق ثبت.. على تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله والله تعالى أعلم[1].

وتقدير هذا الثبوت من ابن حجر يوضحه لنا الشيخ ابن عربى قليلا فيقول وهو يتحدث عن بدء الخلق «إن العقل الأول الذى أول مُبدع خلق، هو القلم الأعلى.. وذلك أنه ـ سبحانه ـ لما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عين واحدا من أولئك الملائكة الكروبيين وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور فأسماه العقل والقلم تجلى له ـ سبحانه ـ مجلى التعليم الوهبى بما يريد إيجاده من خلقه فقبل العقل بذاته علم ما يكون.. ثم علم أن الله تعالى لما خلق القلم واللوح، سماهما العقل والروح. وجعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا القلم ثلاثمائة وستين سنا فى قلميته أى من كونه قلما.. وجعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا القلم من كونه عقلا ثلاثمائة وستين تجليا أو رقيقة، كل سن أو رقيقة تفترق من ثلاثمائة وستين صنفا من العلوم الإجمالية، فيفصلها القلم فى اللوح[2].

إذن فابن حجر حينما يقول فهذا التأويل يعتبر تقديرا لحديث رواية العقل ويأتى الشيخ ابن عربى ليؤكد ويجلى لنا كيفية هذا التأويل بصورة أوضح. فرواية القلم هى صحيحة وذلك باعتبار قلميته من كونه قلما معدا للكتابة، ورواية العقل أيضا هى صحيحة إذ القلم هو نفسه العقل لأن القلم محتاج إلى العقل والوعى والإدراك والفهم وتقبل ما يؤمر به، ولذلك يقول: لما شاء سبحانه وتعالى أن يخلق عالم التدوين والتسطير إذن فالتدوين والكتابة والتسطير تحتاج إلى القلم، فجاءت صيغة القلم ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ولما كان هذا القلم يختلف عن غيره من القلمان رأيناه يقول: «عين واحدا من أولئك الملائكة الكروبيين»

(١) فتح البارى ـ لابن حجر: منقول باختصار وتصرف: ٦/٣٣٤.
(٢) الفتوحات المكية: ٣٥٠ ـ ٢/٣٥١.

إذن فهو ملك روح، حى لذلك سماهما بالعقل والروح. ومادام هو ملكا فهو محتاج إلى العقل لتقبل الأمر، إذن فقد جعل فيه عقلا من أجل تلك المهمة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك قال (تجلى الحق - لذلك القلم فى مجلى التعليم الوهبى بما يريد إيجاده من خلقه، فقبل العقل بذاته علم ما يكون...) إذن فلا تعارض بين رواية العقل ورواية القلم، ولا تضعيف لرواية العقل على ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ومن هنا ندرك حقيقة تلك الرمزية بين ترجمة مصطلح اللفظ الأجنبى (الكمبيوتر) بالعقل الآلى - وبين رواية القلم والعقل، إذ العقل الآلى - الكمبيوتر - اليوم يتقبل الأوامر أخذاً وعطاءً - طبعا لا مقارنة ولا مشابهة بينهما - وذلك القلم والعقل يتقبل الأمر أخذاً وعطاءً مع الفارق الضخم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والكمبيوتر - العقل الآلى اليوم - هو شىء نورانى - طاقة - فى كل أخذه وعطائه كما هو معروف - ورأينا ذلك فيما ورد أن ذلك القلم والعقل هو ملك نورانى مخلوق وفى طبيعة نورانية عالية لا يعلم حقائقها إلا خالقها.. ومعلوم أن العقل هو شىء نورانى بل وكل ما يحفظ فيه هو أيضاً شىء نورانى كذلك.. وقد جاء فى لغة العرب (العقل: مشتق من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه مما لا يليق أو من المعقل، وهو الملجأ.

والعقل: العلم.. وفى حواشى المطالع العقل: هو جوهر مجرد عن المادة، لا يتعلق بالبدن تعلق التدبير بل تعلق التأثير.. وفى العقائد النسفية أما العقل: فهو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات وهو المعنى بقولهم غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات.. وقيل: هو جوهر يدرك به الغائبات بالوسائط والمشاهدات.

وفى المواقف قال الحكماء: الجوهر إن كان حالا فى آخر - أى فى جوهر آخر - فهو صورة وإن كان محلا لها فهيولى وإن كان مركبا منهما فجسم وإن كان متعلقاً بالجسم تعلق التدبير والتصرف فنفس، وإلا فعقل.

وقال قوم: «العقل قوة وغريزة أودعها سبحانه وتعالى فى الإنسان ليتميز عن الحيوانات بإدراك الأمور والحق أنه نور روحانى يقذف به فى القلب أو الدماغ تدرك به النفس العلوم»(١).

إذن فلغة العرب تثبت لنا حقيقة ما رمزنا إليه فهو من حيث الطبيعة نورانى روحانى، والعقل والقلم.. هو أيضا ملك نورانى روحانى، وهو العلم لأنه قبل علم الله تعالى حينما أودعه فيه وكلاهما من جنس وطبيعة واحدة. فالعلم هو شىء نورانى، والعقل كذلك.. وإن قلنا إنه جوهر، فلأنه نور وضع فيه نور، والكل صورة من علم الله تعالى وضعت فى هذا المخلوق النورانى، إذن فهو صورة لما كان مقدراً فى علم الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالقرب بين هدف العقليين العقل الآلى، والعقل القلم واللوح لتقريب الفهم فقط، وإلا لا مقارنة بينهما أصلا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لا يبعد، من حيث حفظ وإيداع الأشياء والتسجيل... إلخ. ولكن شتان بين العقلين واللوحين، إذ ذاك خلق إلهى، وهذا تركيب إنسانى، فهذا روح حى مدرك فاهم فى أخذه وعطائه، وذاك آلى مسير فى كل شىء - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا شىء وشىء آخر أنا نلحظ مما ورد إشارات لبعض مكونات ذلك القلم واللوح.. إذا رأينا - كما سبق - أنه قد روى: «عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قوله: اللوح من ياقوتة حمراء.. كتابه نور، وقلمه نور..»، وقال بعض المفسرين «اللوح شىء يلوح للملائكة فيقرؤونه، وهو ذو نور».

وقال الزمخشرى: «اللوح.. الهواء، يعنى أن اللوح فوق السماء السابعة، التى فيها اللوح»(٢).

هذا بعض ما قاله بعض علماء التفسير، وإذا نحن رجعنا لكتب اللغة فنظنها لا تخرج معانى اللوح فيها عن هذه المفاهيم والدلالات والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تاج العروس ٢٥ - ٨/٢٦.

(٢) القرطبى: ٢٩٨ - ١/٢٩٩، ومثله فى الطبرى وابن الأثير والرازى..

إذن فذلك القلم أو اللوح هو كونه من ياقوتة حمراء.. ومعلوم أن الياقوت والألماس والزمرد والزبرجد معادن ثمينة، وهى من أهم مكونات التقنيات الحديثة، وعلى رأسها الكمبيوتر - العقل الآلى - ومع ذلك لا نقول أن هذه الياقوتة هى مما نعهده من هذه المعادن - ولكننا نقول: إن ما نعهده من هذا الياقوت والمعادن الثمينة إنما هى ذرات مستنسخة متحولة من تلك الياقوتة الأصلية فوق، لكون كل ما فى هذه الأرض هو مأخوذ أصلاً من تلك الأصول الموجودة هناك. إذن فعناصر هذه المعادن جميعها ومنها معدن الياقوت مأخوذ من عنصر تلك الياقوتة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كغيره من معادن الأشياء.. ولا نذهب بعيد إذ قد نجد ما يؤكد مثل هذه الحقائق مما أخبر به النبى ﷺ فى رحلته ليلة الإسراء والمعراج وما شاهده هناك فى السموات العلى وفوق سدرة المنتهى.

فمن تلك المشاهد «ما وقع فى حديث شريف كما عند البخارى فى التوحيد «أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: «هما النيل والفرات عنصرهما»[1].

إذن فقوله صلى الله عليه وسلم «عنصرهما» أى أن النهرين اللذين رآهما ﷺ فى السماء هما أصلان لهذين النهرين الموجودين فى الدنيا أى نهرى النيل والفرات، إذن فأصل الأشياء جميعها الموجودة فى هذا الكون هى أصلا موجودة فى العقل الأول - القلم واللوح - ثم استنسخت فى ألواح متعددة كما سبقت الإشارة السريعة إلى ذلك - سوف تأتى مفصلة بإذن الله تعالى - وهذا أمر يؤكده القرآن الكريم نفسه - كما سبق ذلك - كما فى قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

إذن فالقرآن يثبت هذه الخزائن للأصول، ويثبت هذا الاستيداع لها والاستنساخ منها وهذا الاستنساخ منها تؤكده - كما سبق - تلك الرواية المروية عن «جعفر بن

(١) المواهب اللدنية للقسطلانى: ٧٠.

محمد عن أبيه عن جده أنه قال: فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر»، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾[1].

إذن فجميع هذه المعادن الموجودة فى الكون ومنه الأرض إنما هى آتية من هناك، من أعلى، من خزائنها وأصولها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة ـ وليس هذا فحسب، بل إننا نرى العلم الحديث فى عصرنا الحاضر يجلى لنا هذه الإشارة بشكل تحليلى تجريبى لا يبعد كثيرا عن مدلول ومفهوم الآية القرآنية السابقة من أن كل شىء آت من أصوله من أعلى من هناك ـ من أم الكتاب ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وحول هذا المفهوم من علم الحديث رأيان لا يخرجان عن جو المدلولات القرآنية، وجميعها لا يخرج عن مدلول ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، فمع الرأى الأول.

مع الرأى العلمى الأول ومدلوله

وأصحاب هذا الرأى «يعتقدون أن للكون كانت بداية تقدر بخمسة عشر مليار مليون عام تقريبا ـ والله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك ـ وكانت تلك البداية على هيئة سحابة غازية ذات حرارة عالية ثم حدث انفجار مروع فى تلك الكتلة الغازية فتفككت وتبعثرت أجزاؤها فى الفضاء الكونى. وبالانخفاض التدريجى لدرجة حرارة تلك الغازات هبطت سرعة جزيئاتها وأخذت تتقارب من بعضها وتتلاصق، وبهذا تحول السديم الدخانى إلى كتلة صلبة هى ما تعرف الآن باسم المجرات والكواكب».. يقول تعالى: ﴿أو لم يرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ وقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان﴾.

ويضيف الدكتور المحجرى فى كتابه عن القرآن والعلم بأن الأرض قد انفصلت عن المجموعة الشمسية منذ آلاف السنين تقريبا، وباستمرار انخفاض درجة حرارتها أخذت عناصرها المادية فى التمييز حسب ثقلها ووزنها الذرى، فظهرت العناصر

---

(٢) القرطبى: ١٠/١٥.

الخفيفة مثل الهيدروجين والهليوم، والعناصر الأثقل مثل الكربون والنيتروجين والأكثر ثقلا مثل السليكا والألومنيوم وغيرها.

وقد انتظمت تلك العناصر فى طبقات حسب وزنها، فالعناصر الخفيفة كانت المكون الرئيسى للغلاف الجوى للأرض أما العناصر الثقيلة كالحديد والنيكل والرصاص والمواد المشعة فترسبت فى قشر الأرض وجوفها لتكون مادة المعادن والصخور(١).

هذا موجز مما يقوله أصحاب الرأى العلمى الأول، وفيه نلاحظ أنهم لا يخرجون عن مدلول الجو القرآنى العظيم والذى يشير إلى أن هذه الأرض وكل ما فيها إنما هو من نفس ما فى السماء لا يخرج عنه وبالدليل القرآنى، لذلك يوردون الآية القرآنية التى تشير إلى مفهومهم إذن فأصل ما فى الأرض من معادن إنما هو فى السماء وما فى السماء هو جنس ما فى الأرض ويأخذ فى تحولات وتقلبات مختلفة ومتنوعة حسب ظروف وبيئات ما هى فيه ومخازنها التى هى فيه ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾(٢).

ولذلك نرى أن ما سيورده أصحاب الرأى الثانى لا يخرج عن هذا الإطار والمدلول العام فهم يقولون: مع الرأى الثانى ومدلوله:

«باعتقاد أن الجزيئات العضوية - وغيرها - قد نشأت بفعل التفاعلات الكميائية بين الغازات المختزلة فى الغلاف الجوى تحت تأثير الشحنات الكهربائية المتولدة من البرق وبفعل الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الشمس، ثم هبطت تلك الجزيئات العضوية، وغيرها مع الأمطار التى أخذت تهطل باستمرار وبغزارة لملايين السنين من السحب التى تكاثرت فى الغلاف الجوى، وبهذا تكونت البحار والمحيطات وبها بذور الكائنات.. إلخ».

(١) التطور والأصل الإنسان من منظور إسلامى صـ٨٥.

(٢) الحجر «٢١».

هذا بعض مختصر مما قاله أصحاب الرأى العلمى الثانى ونرى أن مدلوله يتفق مع المفهوم والمدلول العام لقوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾.. ونرى فيه بعض الإشارات التى توضح كيف أن هذه الأشياء أخذت تتحول وتتغير بعد أن استنسخت من أصولها وعناصرها الرئيسية فوق، وما العوامل التى جعلها الحق جل سناه لأن تؤثر فى هذه الأشياء حتى تتغير لتتلاءم مع جو محيطها وظروف بيئتها الجديدة بأمر الله تعالى - سبحانه وتعالى - وإذا كان اللوح المحفوظ هو من ياقوتة حمراء كما ورد سابقا، وقلنا ما قلناه حول ذلك بفضل الله تعالى ورحمته .. فمن المعلوم أن من مثال هذا المعدن والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الموجود فى الدنيا، طبعا لا مقارنة ولا مشابهة، وإنما لتقريب الفهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تتخذ الواح هى من الأساسيات الرئيسية فى الصناعات والتقنيات الحديثة ومنها بالطبع جهاز الكمبيوتر - العقل الآلى - وذلك لقابلية هذا المعدن وما يشتق منه من ألواح، للتعامل مع قضايا الطاقة وخباياها. وذلك أن هذه الطاقة هى الأساس الرئيسى فى عمل وتعامل هذه الأجهزة الكمبيوترية من كتابات ونوعيات حروفها وسطورها وتحويلها الماديات المراد إدخالها بها لتخزينها إلى طاقة لتخزن داخل ذرات خلايا ما بها من ألواح. وهذه أمور معروفة معلومة فى عالم الكمبيوترات.. وقد رأينا أن «اللوح المحفوظ» كتابه نور.. وقلمه نور.. حتى فيما يرسله للألواح الفرعية الأخرى المأخوذة منه، كتلك التى مع الملائكة. أى أن كل ملك معه كتابه - لوحه - الذى يخصه ليأتيه فيه ما يخصه من عمل خلال يومه أو سنته - وسوف يأتى ذلك بشكل أوسع بمشيئة الله تعالى وفضله وحمده - فقد رأينا فيما روى حول: «اللوح المحفوظ - أو أم الكتاب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين» أن العلماء قالوا: «إنه سمى اللوح لأنه شىء يلوح للملائكة فيقرؤونه، وهو ذو نور[1]».

فقوله شىء يلوح أى يلمع، واللمعان يكون للبرق ومن البرق، والبرق طاقة. إذن فذلك الشىء الذى يلوح به للملائكة، سواء كان أمرا أو إنزال أرزاق أو غيرها، ولكن

(١) التطور والأصل. الإنسان من منظور إسلامى

هذا التلويح المرسل من المركز الرئيسى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إلى تلك الألواح الفرعية ـ من أوامر وأرزاق وغيرها ـ لايزال على حاله أصل عناصره النورانية حسب تحولاتها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

مع إشارة الموجات والبث والإرسال عبرها

ولذلك سنرى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أن ما يرسل من المركز الرئيسى ـ أم الكتاب أو اللوح المحفوظ ـ إلى تلك الفروع، إنما يرسل عبر وسيلة من جنسه: أى أنها وسيلة نورانية، أو حسب تعبيراتنا اليوم ـ الموجات الكهرومغناطيسية ـ ولكنها من جنس قوة عناصرها الأصلية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وقولنا بالموجات، ليس قول هوى منا ـ نعوذ بالله تعالى من ذلك ـ بل هناك ما يؤيد ويؤكد ما قلنا به ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إذ هناك قولان وردا يؤكدان ذلك:

الأول: «وهو ما جاء فى آخر النص السابق من أنه شرف ونور وعلو.. وما قاله وفسره الزمخشرى اللوح بالهواء، يعنى اللوح فوق السماء.. وفى اللغة رأيناهم يقولون: اللوح.. الهواء نفسه.. إذن فهو نور، ونوره هذا هو فى الهواء. ومادام الهواء هو الذى يحمل هذا النور فلابد أن يكون من جنسه أو أن فيهما تناسباً وتقارياً.. بل العلم اليوم يقول إن الهواء نوع من أنواع الطاقة. إذن فالإرسال النورانى يتم عبر هذا الهواء، والعلم الحديث يعبر عن هذا الإرسال بمصطلح الموجات. وهذا المصطلح عندما يحلل نجده لا يخرج عن هذا المفهوم. ولم نذهب بعيدا، فهذا حديث رسول الله ﷺ المعجز فى لغته وبيانه وعلمه يعبر عن ذلك بلفظ الموجات صراحة لمن أراد أن يتأمل ويعى ويفهم فقد روى الترمذى: «عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: بينما نبى الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبى الله ﷺ هل تدرون ما هذا؟.. فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا العنان، هذه روايا الأرض يسوقه الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه. قال: هل تدرون ما فوقكم.. قالوا:

الله ورسوله أعلم: قال: فإنها الرقيع[1] سقف محفوظ، وموج مكفوف» والحديث طويل جدا، نكتفى بهذا[2].

وبالوقوف عند هذا الحديث نلاحظ أن رسول الله ﷺ أشار فى بداية الحديث إلى لفظ السحاب، ثم أشار إلى العنان، وبعد ذلك الإجمال جلى ووضح وفصل ما ذلك العنان والسحاب «الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف» إذن فسحاب هو موج منتشر فى هذا الفضاء الرحب، موج يحمل الأوامر والنواهى وكل ما يبعث ويرسل من مكانه الرئيسى ويوصلها إلى فروعها واختصاصها لكونها من جنسه ومن طبيعته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فهذا نص صريح فى أن السماء الدنيا هى طاقة بل موجات متنوعة من أنواع هذه الطاقة المتنوعة التى لا يعلم كل حقائقها إلا الله تعالى خالقها - سبحانه وتعالى - وإذا كان هذا السحاب هو العنان، والعنان هو موج مكفوف أى مكفوف شرها وأذاها من أن يلحق بالخلق. وهذا سبق وإعجاز علمى لحديث رسول الله ﷺ فى قضايا الطاقة والموجات وآثارها الإيجابى والسلبية.. وإشارة الموجات والبث والإرسال عبرها هى حقيقة فى هذه السموات جميعها وما بينها من خلق ومخلوقات.. وهذه الحقيقة التى أشار إليها الحديث الشريف السابق «السماء موج مكفوف» وتقريب الرسول ﷺ وتوضيح هذا الموج بالعنان.. نرى رسول الله ﷺ يؤكدها بالحديث التالى، والحديث تؤكده وتجليه بعض آيات القرآن الكريم.. فلتعش مع الحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل السلام وأتم التسليم ومع الآيات القرآنية الكريمة وقبل أن أشير إلى الحديث الشريف والآية القرآنية، أود أن أرجع إلى الجو الذى عشته قبل أن أصل إلى ما أرانى ألهمته حول ذلك من خواطر.. كنت دائم الرحلة مع كتاب الله العزيز وكنت دائم التوقف عند آية قرآنية كلما وصلت إليها، وذلك أن توقفى عندها يجبرنى إلى أن أعود إلى كل ما قيل عنها - ولكن رجوعى هذا يزيدنى حيرة واندفاعاً أكثر، ما

---

(١) الرقيع: اسم السماء الدنيا.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٥٩.

يجول فى نفسى ويموج فى فكرى وقلبى من خواطر تزداد يقينا بما يموج فيها. ولا يعنى ذلك أن ما أرجع إليه ليس فيه ما يدل على توضيح بعض دلالات تلك الآية الكريمة.. لا والله بل فى ذلك الخير كله والزاد كله، بل كان ما أرجع إليه يزيدنى يقينا ويفتح باب الأمل أمامى لما فى خاطرى. وذلك لأننا نعلم أن القرآن الكريم دائما ماض وحاضر ومستقبل الدلالات والإيحاءات والظلال. وهذا أمر من سمات إعجازه إذ أنه يعطى كل زمان ومكان ما يناسبه ويلائمه من فتوح وكشوف وأسرار قد لا تلائم ماضيه أو مستقبله ولكنها مفتاح وتمهيد لما سيأتى لنفس الدلالة مستقبلا. ولنعد لنعيش مع واقع تلك الآية القرآنية إنها قوله تعالى: ﴿قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾[1].

هذه هى الآية القرآنية، وتراها تشير إلى أن الذى انزل القرآن هو الذى يعلم السر فى كل شىء.. هنا يأتى التوقف، تكمن الحيرة. تكون عند قضية السر.. إذ يا ترى أى سر هو المقصود فى ذلك.. إذ عندما ترجع إلى امهات التفاسير تجدهم يشيرون إلى أن المقصود بالسر فى الآية هو الذى ضد العلن.. وهنا لا حجر على ما أشاروا إليه، قد يكون ذلك واردا ضمن الدلالات التى تحملها الآية، ولكن حينما تقرأ الآية التى قبلها تعود إلى التوقف مرة أخرى، أى أن هناك إشارة قد تكون هى المقصودة أكثر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك أن ما قبلها هو قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً..﴾.

هذا قبل الآية المذكورة ولكنك تجد أيضاً أن ذلك كله يرتبط بأول آية فى السورة نفسها وهو قوله تعالى: ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[2].

---

(١) الفرقان: آية: «٦».

(٢) الفرقان: آية «١».

إذن فالآية هى رد قوى على الكفار فيما قالوه، إذ اتهموا الرسول ﷺ بأن القرآن الذى يتلوه إنما هو إفك وكذب يأخذه من أساطير الأمم السابقة، أو أنه إفك يأخذه عن طريق قوم آخرين أو يأتيه به الشياطين والعياذ بالله تعالى من ذلك.

فأراد الحق جل سناه أن يبين للكفار - أن ما يسمعه الشياطين له طرقه الخاصة وأن ما ينزل به الوحى على رسول الله ﷺ له طريقه الخاص الذى لا يجرؤ أحد أن يقرب منه، لأنه سبحانه وتعالى هو الوحيد الذى يعلم ويعرف السر فى خلق السموات والأرض، سر صنعها ومادتها وتركيبها وطريقها والتعامل معها. وإن هناك طريقاً لا يستطيع أحد أن يقترب منها لأن طاقتها تحرق من يقترب منها.. إذن فالسماء موجات متنوعة وقدرات مختلفة. وهذا ما سيشير إليه الحديث الشريف على صاحبه ألف صلاة وأتم تسليم. وآيات آخر سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾[1].

توضح هذه الآيات لنا أن الشياطين يتلقون السمع، أى أنهم يستقبلون بعضاً مما يتم إرساله إلى الملائكة من المركز الرئيسى إلى الفروع كل فيما يخصه أو الحديث الذى يدور بين أولئك الرسل الموكلين بتلك الاختصاصات.. والحديث الشريف سوف يوضح لنا بعضاً عن كيفية هذا الإرسال والاستقبال، وكيف يتم بينهم وكيف يؤخذ - يسترق - وقبل ذلك نود أن نشير إلى أن جنس هؤلاء الملائكة كما سبق من أنهم مخلوقون من نور أى من طاقة، وأن الجن والشياطين أيضا هم مخلوقون من طاقة، وقد سبق أن عملت كتابا مستقلا بذلك «الجن بين إشارات القرآن وعلم الفيزياء».فإذا كان من يرسل إليه هو طاقة ومن يسترق السمع هو طاقة، فحتماً أن يكون الموصل بينهم جميعا من جنسهم.

هذا هو الحديث الشريف على صاحبه أفضل صلاة وأتم تسليم: «قال: وقال الليث حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة

(١) سورة الشعراء: ٢٤٠ ـ ٢٤٣.

عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ قال: الملائكة تتحدث فى العنان. والعنان الغمام. بالأمر يكون فى الأرض فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة..».

هذا هو الحديث وترى أن الرسول ﷺ يشرح لنا كيف أن الملائكة حينما تتحدث، وأين يكون حديثها، إنه فى العنان، والعنان هو الغمام، والغمام هو طاقة متأتية متحولة[1]، والسحاب موصل لذبذبات الصوت المنتشرة بين الملائكة، والمركز الرئيسى فتقوم الشياطين وهى من جنس تلك الطاقة مع الاختلاف فى الخواص والتأتيات والقدرات. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. باختراق بين كل تلك الموجات إرسالا واستقبالا، وهذا الاختراق معلوم ومعروف فى كل الأوساط العلمية الفيزيائية. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهذا سبق للقرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ.. وهذا الاستراق من قبل الشياطين والعياذ بالله تعالى منهم. والملقى إلى الكهنة، هو الذى يقصده الكفار بقولهم ﴿..بل هو إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. فقد جاءوا ظلما وزورا»﴾[2] كما جلت ذلك آية الشعراء وهى قوله تعالى: ﴿يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ هذا الاستماع الذى يسترقون من أحاديث الملائكة المنتشرين العنان هو الذى يلقونه إلى الكهان. وهو ما قصدوه بنسبة القرآن الكريم إليه. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. فرد عليهم الحق. على الكفار بأن ما يقولونه هو بعينه الكذب والبهتان، وذلك أن من ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ هو الذى يعلم السر الأساسى الذى تقوم عليه خلقة السماء التى يصعد إليها الشياطين للاستراق، فإذا كان الشياطين يسترقون ما يدور بين الملائكة من أحاديث الأوامر المرسلة إليهم، فلأن الملائكة طاقة مخلوقة والشياطين أيضاً طاقة مخلوقة فهم مثلهم وإن كانوا أقل قدرة من طاقة خلق الملائكة. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب

(١) فتح البارى ابن حجر: الحديث رقم (٣٢٨٨) صـ٦/٣٨٩

(٢) الفرقان: ٤ ـ ٥.

والحمد لله رب العالمين ـ لكن القرآن الكريم هو طاقة ولكنها مختلفة تماما عن كل ذلك، إذ هو كلام الحق الخالق جل سناه، فلأن الملائكة الذين يسترق كلامهم، ولا الشياطين الذين يسترقون ذلك الكلام يستطيعون تحمل طاقة هذا الكلام المنزل لاستراقه أو حتى الجسور على الاقتراب منه. ولذلك تلاحظ أن الملك الذى خلق لإيصال هذا الكلام ـ القرآن الكريم ـ إلى الرسول ﷺ هو ملك معد إعدادا خاصا، لذلك فهو من المقربين، الملائكة العالين ـ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام.. وأيضا له طريقته الخاصة لنزوله حينما يكون معه القرآن الكريم، لذلك فلأن بقية الملائكة الأخرى لا تستطيع الاقتراب منه أو حتى رؤيته عليه الصلاة والسلام ولا الشيطان ـ نعوذ بالله تعالى ـ فهم لا يستطيعون الاقتراب منه أو رؤيته إذ لا طاقة لهم بذلك ولا يستطيعون حتى سمع ما يقوله فى الأرض لرسوله محمد ﷺ، وكل ذلك بنص القرآن الكريم نفسه، يقول تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغى لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون﴾(1).

إذن فهم لا يستطيعون سماعه، لأنهم معزولون عنه، ولا يستطيعون حتى مقاربته . إذن فالسماء الدنيا، الدنيا كلها موجات مكفوفة الأذى عن الإنسانية مسخرة لأداء أوامر الله تعالى إرسالا واستقبالاً بين السموات والأرض، ثم إن هناك إشارة أخرى فى لفظة العنان حينما ترد، قد يقصد منها إلى جانب المفهوم الذى يصرح به من ورائها، فهى فى الحديث إلى جانب مفهوم الغمام، والغمام فى السماء، واللغة تقول: «العنان: قد يأتى ويكون من مقاصده جوانب السماء ونواحيها أو ما بدا لك منها إذا نظرتها..».

إذن فالغمم موصل لذبذبات أصوات الملائكة المنتشرين فى جوانب السماء ونواحيها عبر موجاته المنتشرة بينهم أيضا.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. وحينما ترسل الأوامر من أم الكتاب إلى جميع تلك الكتب المتفرقة مع أولئك الرسل ـ الملائكة ـ المنتشرة بين السموات والأرض كل فيما يخصه

---

(1) سورة الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢..

سواء كانت الإرساليات نشرات عما سيكون فى خلال ساعة أو يوم أو أسبوع أو شهر أو السنة جميعها، فهى ترسل إليهم عبر تلك الموجات المكفوفة المنتشرة بين السموات والأرض - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذ هى أقرب إلى الطبيعة وخواص ذلك الكتاب الأم، وكل ما تفرع منه، ويرسل منه إليهم جميعا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك رأينا جل المفسرين وأهل اللغة حينما أرادوا أن يفسروا معنى «اللوح المحفوظ» قالوا أشياء كثيرة جميعها يدور فى إطار هذا المعنى العام الذى أوردوه «اللوح: هو شىء يلوح للملائكة فيقرءونه، وهو ذو نور وشرف... إلخ». قد يكون هو تلك الموجات المرسلة من المركز الرئيسى إلى الكتب الفرعية التى معهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ومما يزيد كلامنا هذا ويقويه - والله تعالى أعلم - ما ورد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حول قوله تعالى: ﴿فى رق منشور﴾.

الرق بالفتح: هو ما بين المشرق والمغرب، وقيل هو الكتاب الذى كتبه الله تعالى لملائكته فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون. إذن فالرق هو شىء نورانى الدلالة. وقوله هو ما كتبه الله لملائكته بين المشرق والمغرب فى السماء يقرءونه. إذن فهو مختص بالملائكة، والملائكة أشياء نورانية وقلمهم من جنسهم وحروفه كذلك نورانية، ثم كونه فى السماء، يؤكد تلك الإشارات السابقة، وهى موجية السماء «السماء موج مكفوف».

إذن فما ذهبنا إليه حول عمل وتعامل هذا اللوح «أو الكتاب» أخذا وعطاء واستنساخا، وتحويلا، ومكونات، وتخزينا لكل ما يؤخذ عن وإلى هذا اللوح «أو الكتاب» كون ذلك طاقة وهو أمر حق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومما يؤكد ذلك ويشير إليه ما ورد لبعض المفسرين من تفسيرات حول ألواح نبى الله «موسى» عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فمثلا ما جاء حول قوله تعالى: ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها

بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين﴾[1].

قال بعض المفسرين حول هذه الآية: «..ذكروا فى عدد الألواح وفى جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل سبعة.. وقيل أنها كانت من زمردة، جاء بها جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء.

أما كيفية الكتابة، فقال ابن جريج: كتبها جبريل عليه السلام بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور[2] وفى هذه الإشارة اليسيرة لهؤلاء المفسرين تراها تشير إلى أن ألواح نبى الله موسى عليه الصلاة وأفضل التسليم، كانت من زمردة أو زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء، وفى هذه الإشارة أمور كثيرة منها أن اللوح المحفوظ أو «أم الكتاب» . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سبق أن رأينا أنه من ياقوتة حمراء وهذا تأكيد على أن ما لدينا من معادن هذا الياقوت والزبرجد والزمرد والألواح التى تتخذ منه فى تقنيات هذه الكمبيوترات هو من تلك الأصول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك أن طبيعة نوعيات ما يكتب ويدخل فيها ونوعيات الكتابة التى نقبلها لا تخرج عن نوعيات تلك الأصول القلم الأصل الذى هناك ﴿نون والقلم وما يسطرون﴾ - رأيناهم يقولون عنه إنه[3] قلم من نور، وكتابته نور وسطورة نور، وهذه ألواح موسى عليه الصلاة والسلام وأفضل التسليم، أولا أنها مشتقة من ذلك اللوح الأصل وهى أيضا مكتوبة بالقلم الذى كتب به الذكر وهو قلم مستمد من النور كما ورد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن هنا نلاحظ أن ألواح نبى الله موسى عليه الصلاة وأزكى التسليم كانت من جنس ألواح ما أخذت عنه طبيعة وكتابة.. ولكن الآية القرآنية أوضحت حقيقة من حقائق اللوح المحفوظ وتلك الألواح التى انتسخت وأخذت منه - وتلك الحقيقة هى أن النسخ التى انتسخت منه

(١) سورةالأعراف: آية «١٤٥». .

(٢) القرطبى.

(٣) سورة الطور: آية «١ - ٣»..

أى اللوح المحفوظ ـ قد حولت من خواص طبيعتها لتحمل صفة وسمة غير صفتها وسمتها العالية حولت لتلائم مكان وعالم ما تحولت إليه وهو عالم الدنيا والتحولات.

وهنا قد نسأل ونقول من أين أتيت بما قلته عن ذلك التحويل.. وحقيقة الإجابة عن ذلك تأتى من تأمل الآية القرآنية السابقة نفسها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ من ذلك ترى أن الآية قد أشارت إلى المفهوم الذى قلناه إشارة ضمنية.. فقوله تعالى: ﴿وفى نسختها﴾ ترى أن اللفظ «فى نسختها» فيه كانت تلك الإشارة وهى إشارة من دلالتها المعنوية شيئان اثنان:

الأول: أنها حملت معنى النسخ وهو التحويل.

والثانى: أنها أيضا حملت المعنى الثانى للنسخ: وهو النقل ثم دلالة الحرف الظرفى «فى» فى نسختها أى بداخلها.. وهو قوله تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾.

قال الفخر الرازى «وفى نسختها» النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا كتبت كتابا عن كتاب حرفاً بعد حرف فأنت نسخت ذلك الكتاب، كأنك نقلت ما فى الأصل إلى الكتاب الثانى يعنى مع بقاء الأصل «وفى نسختها» أى وفيما نسخ منها ولا شك أنها كانت مكتوبة من اللوح المحفوظ فهى أيضا تكون نسخا على هذا التقدير[1].

إذن فهى قد نقلت من الأصل إلى ألواح مأخوذة منها، ولكنها قد حولت عن خواص طبيعتها إلى خواص طبيعة ما هى متحولة ونازلة إليه وهى الطبيعة الدنيوية.. وإذا نحن وقفنا قليلا عند الآيات الثلاث السابقة وعشنا مع جوها وتأملنا فى نفس اللفظة التى عشنا مع جوها آنفا وهى لفظة «ألواح» فهل ترانا واجدون فيها إشارة أخرى.

وفى الرد على هذا السؤال نرد بقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا﴾[2]. وقوله تعالى:

---

(١) تفسير الرازى: ١٤/٢٣٦.

(٢) سورة الكهف: آية «١٠٩».

﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾[1] هاتان آيتان قرآنيتان عظيمتان تعلمنا أن القرآن هو كلام الحق، كلام الحى الذى لايموت والحى يعطى ولا ينقطع لأنه لا ينتهى، ولذلك كلامه - سبحانه لا ينتهى ولا ينفد ولا ينضب مهما أخذنا منه، أى أنه مهما تأملنا فى كلمات القرآن الكريم فلن نزال نجد ونجد ونجد.

مع دلالتى أم الكتاب واللوح المحفوظ وماذا تعنيان؟

ومن ذلك أن لفظة «ألواح» والتى هى لفظة جمعية للفظ لوح، هذه اللفظة إذا رجعنا إليها فسريعاً سيعيدنا لذلك الخلاف اليسير بين بعض علماء التفسير وعلماء الحديث. وذلك الخلاف نرى كثيرا لا يلقى له أى أهتمام، ويرى أن المدلولين يدوران حول مفهوم واحد وإن اختلف لفظاهما. حتى من يرى الخلاف بين الدلالتين فإنه فى الأخير يعود إلى نفس المفهوم السابق. فبعض العلماء يرى أنهما مسميان لمسمى واحد، وبعضهم يفرق بين الأمرين، وذلك يجعل:(أم الكتاب) (غير دلالة اللوح المحفوظ). ولكننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وهو الفيصل فى ذلك، فإنا سنجد بإذن الله أن لفظة (لوح محفوظ) لم ترد إلا مرة واحدة وهى قوله تعالى:﴿إنه لقرآن كريم فى لوح محفوظ﴾[2] . أما لفظة(أم الكتاب) بهذا النص وبهذه الدلالة، فقد وردت فى ثلاث آيات صريحة بهذا المفهوم. الأولى فى سورة آل عمران وهى قوله تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات﴾[3]. والثانية فى سورة الرعد، وهى قوله تعالى:﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[4]. والثالثة فى سورة الزخرف وهى قوله تعالى:﴿وإنه فى الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾[5] ولكن لفظة كتاب وردت بلفظ آخر يحمل نفس المعنى واختلف اللفظ من الحروف، ولكن ما ورد

---

(١) سورة لقمان: آية «٢٧».
(٢) سورة البروج: آية «٢».
(٣) سورة آل عمران: آية «٧».
(٤) سورة الرعد: آية «٣٩».
(٥) سورة الزخرف: آية «٤».

يشير لمعنى كونه أماً وأصلاً لكل الكتب الأخرى، وذلك فى آيات كثيرة، منها مثلا، قوله تعالى فى سورة ياسين: ﴿إنا نحن نحيى ونميت ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين﴾(1). وقوله تعالى أيضا فى سورة طه: ﴿قالوا فما بال القرون الأولى قل علمها عند ربى فى كتابه لا يضل مربى ولا ينسى﴾.

هذا بعض من ذلك. فماذا قال المفسرون حول ذلك وماذا يعنى وما الذى يشير إليه فمما جاء مثلا عن المفسرين، نأخذ باختصار ما جاء فى تفسير الفخر الرازى، حول التفريق بين اللوح وأم الكتاب. يقول أما «أم الكتاب» فالمراد أصل الكتاب والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أماً، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى.. فكذلك «أم الكتاب» هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب، وفيه قولان:

الأول: أن أم الكتاب هو نفسه اللوح المحفوظ وجميع حوادث العالم العلوى والعالم السفلى مثبت فيه.. عن النبى ﷺ أنه قال: «كان الله ولا شىء معه ثم خلق اللوح المحفوظ وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة... إلخ».

قال المتكلمون: الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل وعلى التقدير: فعند الله تعالى كتابان أحدهما: الكتاب الذى يكتبه الملائكة على الخلق، وذلك الكتاب محل المحور والإثبات.. والكتاب الثانى: هو اللوح المحفوظ والكتاب المشتمل على يقين جميع الأحوال العلوية والسفلية وهو الباقى وروى أبوالدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثلاث ساعات يبقين من الليل ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره، يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء. وللحكماء فى تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة.

القول الثانى: إن«أم الكتاب» هو علم الله تعالى فإنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وإن تغيرت إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغيير، فالمراد «بام الكتاب» هو ذاك. والله تعالى أعلم(2).

---

(1) سورة يس: آية «١٢».

(2) تفسير الرازى: ١٩/٦٦.

هذا بعض مختصر مما جاء فى تفسير الشيخ الرازى حول الإشارة فى التفريق بين أم الكتاب واللوح المحفوظ.. وفى هذا الموجز نرى الرازى يورد ما أثبته العلماء، وهو أن هناك كتاباً أمًّا ورئيساً وهو «أم الكتاب» والذى هو عندهم علم الله تعالى الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل، ثم إن هناك مجموعة كتب أخرى كثيرة جدا غير أم الكتاب منها اللوح المحفوظ وجميعها تأخذ منه - من أم الكتاب - كل كتاب حسب اختصاصه ومهمته.. وهذا ما أكده ما ورد من الآيات القرآنية الدالة على ذلك وما روى واشتهر عن بعض كبار الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم. فماذا ورد فى القرآن الكريم من تأكيدات توضح ذلك.. إذا نحن رجعنا إلى القرآن الكريم سنجد أن لفظة «كتاب» وردت فى القرآن الكريم فى مائتين واثنتين من الآيات تقريبا، ولكن ما يشير منها إلى ما نحن بصدده، فهو ما بين الأربعين إلى الخمسين آية، وإن أضفنا إليها بعض الألفاظ المثيرة إلى نفس الدلالة، ولكنها بغير حروف الكاف والتاء والباء «كتاب» فقد يتضاعف العدد.. وعندما قمنا بحصر البعض منها وحاولنا تبويبها حسب ما تحمل من إشارات أو دلالات، وجدناها تدور حول هذه المحاور الرئيسية والتى بين عموم دلالاتها بعض الدلالات والإشارات الخاصة والمرتبطة بالمعنى الدلالى العام لهذا المحور أو ذاك - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فما هى هذه المحاور وما الذى تضمه من أجزاء؟

من تنوع الكتب الفرعية الرئيسية لتنوع دلالات اختصاصها

المحور الأول: وهو «أم الكتاب» وقد رأينا الآيات التى تشير إليها منها آية آل عمران (٧) وآية الرعد (٣٩)، والزخرف (٤) مضافا إليها آية ياسين (١٢).

المحور الثانى: وهو الكتاب المختص بالأعمال الآدمية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ويضم من الآيات تقريباً إحدى عشرة آية.

المحور الثالث: وهو كتاب الآجال - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ويضم كثيرا من الآيات منها أربع آيات رئيسية.. وسترد بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

المحـــور الرابع: وهو الكتاب الموصوف بقوله تعالى: ﴿فى كتاب مبين﴾ ويضم تحت مسماه من الآيات القرآنية ست آيات.

المحـور الخـامس: هو تحت مسمى إشارات ودلالات متنوعة عامة وخاصة.. ويضم سبع عشرة آية.. وسوف تأتى بعض من أماكن هذه الآيات وبعض الإشارات بعد قليل بمشيئة الله تعالى. هذا بعض مما ورد من الآيات المتنوعة والتى تشير بإشارات ودلالات تؤكد أن هناك أكثر من كتاب وجميعها مرتبط بأم الكتاب ومنه وعنه تأخذ إذ هو أصلها.. ومن هنا ندرك بعض الأسباب التى أدت لاختلاف كثير من المفسرين حول «أم الكتاب» و«اللوح» المحفوظ وقبل سرد الآيات التى تخص كل محور وما تشير إليه وربطها بما نحن بصدده.. سنورد إشارة سريعة أخرى الشيخ القرطبى يؤكد فيه ما سبق وأشار إليه الشيخ الرازى وفصلناه سريعا ـ بحمد الله تعالى ـ والقرطبى يؤكد حقيقة هذا التنوع، قال حول آية الرعد السابقة (٣٩) بعد كلام طويل:

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هما كتابان سوى «أم الكتاب».. يمحوا الله منهما ما يشاء، ويثبت «وعنده أم الكتاب» الذى لا يتغير ولا يتبدل منه شيء(١).

ونضيف أن هناك أيضاً الكتب التى مع الحفظة، والملائكة المسخرين والمكلفين بأمور هذا الكون، فهناك الذاريات والمرسلات والنازعات والسابقات.. وغير ذلك كثير.

من هنا نقول ـ والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إن اللوح المحفوظ: هو كتاب أو لوح من مجموعة هذه الكتب، ولكنه كتاب خاص يحفظ القرآن الكريم وهو موجود من ضمن سائر الكتب المحفوظة المخزنة فى «أم الكتاب»، وليس هذا منا رجما بالغيب، بل هناك ما يؤيده ويؤكده من آيات القرآن الكريم نفسه، ألم يرد فى القرآن الكريم قوله تعالى عن القرآن نفسه وعن اللوح قوله تعالى: ﴿وإنه فى

(١) القرطبى: ٢٢٧ ـ ١٠/٢٣٣.

أم الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون﴾[2].

اللوح والكتاب بين الرقيقة والدسك:

إذن فالقرآن الذى قال عنه منزله: «إنه لقرآن مجيد. فى لوح محفوظ».. قال عنه إنه فى «أم الكتاب» وفى كتاب مكنون وأنه فى هذا الكتاب حفظه.. والذى قال إن حفظ هذا القرآن فى لوح فى أم الكتاب رأيناه سبحانه يخبرنا أن التوراة نزلت فى ألواح من أم الكتاب - كما سبق - بل إن الله تعالى - سبحانه - أكد ذلك بقوله: ﴿فى كتاب مكنون﴾.. إذن فاللوح المحفوظ هو لوح من ضمن الألواح المحفوظة المخزنة فى «أم الكتاب».. وكل لوح ومحفوظ الذى خزن فيه.. وهذا يؤكد لنا حقيقة هامة جدا - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الحقيقة هى أن هذه الكتب المتعددة هى أيضا ألواح، وإن سميت كتبا، فاللوح هو الكتاب والكتاب هو اللوح، أو ما يمكن لنا أن نسميه كما هو الحال فى عصرنا الحاضر بالرقائق أو الأدساك - إن جاز لنا هذا التعبير - ولا مقارنة، ولكن مقاربة وتمثيل فقط - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذ فى هذه الألواح والكتب يحفظ ويخزن ما يوضع بها من أمور وقضايا ينسخ منها فى وقت يراد منها ذلك باستدعائها بمجرد طلب ذلك منها، لأنها تعقل وتدرك وتفهم ما يراد منها - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك ما نعرفه اليوم عن الرقائق والأدساك التى بين أيدينا، هو قريب من ذلك - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وسيأتى بإذن الله تعالى تفصيل أوسع من هذا.

ثم إن لفظة الحفظ التى وردت مع «اللوح المحفوظ» لم ترد معه وحده لتفرد استقلاليته وتجعله «أم الكتاب» كما ذهب إلى ذلك البعض الآخر من العلماء - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل هى وردت - أيضاً - مع مسمى

---

(١) سورة الزخرف: آية «٤».

(٢) سورة الواقعة. الآيات: ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨

لفظ الكتاب، وحول قضية أخرى مستقلة فرعية، كغيرها من القضايا المستقلة بألواح خاصة مرتبطة بأم الكتاب.. مما يؤكد ما ذهبنا إليه فى كون اللوح غير «أم الكتاب» - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما فى قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾(١).

إذن فهناك الكتاب - أو اللوح - الخاص بقضية البعث وهو فى الوقت نفسه حفيظ أدخل فيه، وهو أيضا حافظ له، وهو أيضا محفوظ فى أم الكتاب مع سائر الألواح الأخرى، وهذا يؤكده قوله تعالى: ﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى. قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾(٢).

إذن فكل شىء قد وضع فى لوحه وكتابه الخاص به وبزمنه وهو - أى هذا الكتاب أو اللوح - محفوظ فى «أم الكتاب» - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

يقول الشيخ القرطبى حول هذه الآيات باختصار : «..وعلم أحوال القرون الماضية المسئول عنها - وهو مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ.. فهم وأعمالهم محصاة عند الله تعالى، ومحفوظة عنده فى كتاب.. وقيل: عنى بالكتاب اللوح المحفوظ، وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة...»(٣).

وإشارة القرطبى هذه وهى ارتباط اللوح بالقراءة والكتابة.. ومجيئها ثم مجىء نفس لفظ لوح مع القرآن الكريم وهو أيضا مرتبط أساسه بالقراءة والكتابة، تجعلنا نؤكد ما قلناه سابقا من أن «اللوح المحفوظ» هو لوح خاص بالقرآن الكريم ذاته لارتباط القرآن الكريم بذلك، ولذلك نجد أن أول آية نزلت منه هى قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم﴾(٤).

---

(١) سورة ق: آية «٤».

(٢) سورة طه: آية «٥٠ - ٥٢».

(٣) القرطبى: ١١/٢٠٥.

(٤) سورة العلق. الآيات: «١:٤»

إذن فالقراءة ﴿اقرأ﴾ ، والكتابة ﴿الذى علم بالقلم﴾ من أهم سمات وخصائص هذا القرآن، لذلك فهو فى اللوح، وهذا يؤكده أيضا - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قوله تعالى: ﴿فى كتاب مكنون﴾(١) والكتاب مرتبط بالكتابة.. بل إن هذه الخاصية - خاصية قراءة وكتابة القرآن الكريم فى ألواح وخاصة للتعليم - لايزال يعمل بها إلى وقتنا الحاضر فى كثير من البلدان الإسلامية.. أيضاً لكونه أقرب إلى الذهنية العامة للشعوب فى تلك الفترات وإلى الآن وما بعد الآن، وأن اختلفت مدلولات الدلالة نفسها حسب رقيها وارتقائها وتطورها ومسايرتها لكل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لما تحمله ألفاظ القرآن من حياة فى دلالاتها وتجددها وحملها أيضا لشتى المعانى المتطورة المتجددة مع الأزمنة مع احتفاظها بروحانية إطارها الرئيسى.. ولذلك تجد وترى أن من تلك المعانى للفظة لوح - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ما قد ترتبط دلالته ببعض المصطلحات العلمية الحديثة المتجددة مع الأزمنة والأمكنة، كما رأينا فى المعانى التى أوردناها للفظة لوح، كقولهم أن من معانيها: البرق - والبرق يعنى الطاقة، والهواء وهو من ذلك أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والياقوت والزمرد - وهى مادته - وغير ذلك، وكورودها حول نفس دلالة القراءة والكتابة مع ألواح موسى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. وما يؤكد هذا التطور والتجدد لألفاظ القرآن الكريم وإعجازه، وورود أمر كون القرآن الكريم محفوظ فى لوح محفوظ وارتباطه بالقراءة والكتابة، وورود آيات قرآنية تشير إلى أن القرآن الكريم نفسه فى لفظ، مقصود به نفس اللفظ السابق - اللوح - ولكنه يحمل دلالة تعطى هذا المفهوم المتطور والمرتقى مع الأزمنة والأمكنة، لفظ يحمل دلالة علمية مطعمة عصرية وما بعد ذلك بل تؤكد كل هذا الذى أشرنا إليه وهى قوله تعالى عن القرآن الكريم وكونه محفوظا فى لوح مكتوب ومكتوبا ومسطورا: ﴿والطور. وكتاب مسطور. فى رق منشور﴾(٢). فماذا يعنى ذلك؟ ماذا يعنى لفظ «الرق» فى لغة العرب.. ما الذى يربطها بهذه المصطلحات العلمية الحديثة.

---

(١) سورة الواقعة.

(٢) سورة الطور: آية «١ - ٣».

الرق بين دلالات لغة القرآن
والمصطلحات العلمية الحديثة

وإذا نحن رجعنا إلى مجمل كتب لغة العرب نجد أنها تورد للفظة الرق معانى ودلالات كثيرة متنوعة، ولكنك تجدهم يركزون على دلالة معينة ويتركون البقية، لظنهم أنها لا تتلاءم مع المقصود من اللفظة، وهذا الكلام منهم نعتبره صحيحا لو أن دلالات القرآن الكريم خاصة بزمنهم، لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحا لأننا نعرف أن دلالات القرآن الكريم هى لكل زمان ومكان وتعطيه الدلالة التى تتلاءم مع زمنه ومكانه، ومن هنا ندرك عظمة ثراء اللغة العربية لغة القرآن الكريم: ولذلك نجدهم يصطدمون مع المفسرين الذين يوردون بعض الدلالات التى قد تخالفهم، ونجد بعض المفسرين يميلون معهم، فمن ذلك يورد القرطبى حول الآية المذكورة ﴿وكتاب مسطور. فى رق منشور﴾ أى مكتوب، يعنى القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف وتقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ.. كما قال تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون﴾.. وقيل يعنى سائر الكتب المنزلة على الأنبياء.. وكأن كل كتاب فى رق ينشره أهل لقراءته.. وقال الكلبى: هو ما كتبه الله تعالى لموسى بيده من التوراة، وموسى يسمع صرير القلم.. وقيل: أنه الكتاب الذى كتبه الله تعالى لملائكته فى السماء ويقرءون فيه ما كان وما يكون.. وقيل المراد ما كتب الله فى قلوب أوليائه من المؤمنين، بيانه ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان﴾.. قلت وفى هذا القول تجوز، لأنه عبر بالقلوب عن الرق.. قال المبرد: الرق: ما رُقق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط.. وكذا قال الجوهرى فى الصحاح قال: والرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق.. وأما الرق بالفتح فقد حكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما: «هو ما بين المشرق والمغرب»(١).

هذا موجز يعطيك فكرة سريعة عما ورد حول لفظة ودلالة الرق، وما توحى به من إشارات، وترى كيف اختلف موقف بعض المفسرين وأهل اللغة حول ذلك، إذ كل واحد منهم يريد أن يحدها بما فهمه هو فى زمنه، وذلك يستحيل فى دلالات القرآن،

(١) القرطبى: ١٧/٥٩.

إذ هو كلام معجز، فالرق فى زمنهم من دلالاته الشائعة والمشهورة هو الجلد، لأن ما يكتبون فيه لا يتعدى رقائق الجلود، لذلك فهو لا يخرج عندهم عنه، بل القول بما عداه يعد تجوزاً لأنه عبر بالقلوب عن الرق.. ولكن الزمن الذى نحن فيه اليوم يرى أن ما عدوه تجوز هو الأقرب إلى ما عرف وكشف من دلالات الرق، فالقلوب هى أمور نورانية والرقيقة فى زمننا هى أيضا أمر نورانى - شىء من الطاقة - والقلوب هى لوح مستودع الإيمان والعقائد والأعمال، وكل هذه الأمور هى نورانية فهى أقرب إلى دلالة الرق مما عدّ فى زمانهم أقرب لملاءمة ذلك لما عرف وشهر من دلالة الرق، بل إن ما نعده أقرب إلى دلالة الرق فى زمننا تؤيده شواهد كثيرة مما أوردوه هم وتناقلوه عن بعض الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم جميعا، من ذلك قولهم: «إنه الكتاب الذى كتبه الله للملائكة فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون ومعلوم - كما سبق - أن كل ما يتعامل به الملائكة لا يخرج عن النورانية لأنها هى طبيعتهم وجنسهم، إذن فالرق وتفسيره بالجلد هو أمر يتفق مع دلالة كل زمن ومكان اتفاقا طردياً إلى أن يصل والمرحلة التى تتفق مع دلالته الحقيقية والملائمة مع مكانه الذى هو فيه وسوف ينشر فيه، وهى المرحلة الكبرى، مرحلة يوم القيامة، وذلك أن الجلد وكل ما يرتبط به هو أمر يتلاءم مع المرحلة الدنيوية المادية، أما يوم القيامة فهى مرحلة نورانية، كما سيتضح لنا ذلك فيما سيأتى بعد - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فكل كتاب هو لوح، وكل لوح هو رق والرق هو شىء نورانى - طاقة أو شىء منها - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الدلالة.. واختصاصه بالملائكة يؤكد ذلك، إذ هم نورانيون وقلمهم من جنسهم، وحروف ما يقرءونه من ذلك أيضا.. ثم كونه فى السماء يؤكد هذه الحقيقة النورانية لما سبق من أن السماء الدنيا «موج مكفوف».. ومما يؤكد أيضاً أن كتاب وكتب، هى لوح وألواح وهى رق ورقائق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى أمور نورانية. إن كتب الأعمال قد وردت فى القرآن الكريم بلفظ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ وهذه الصحف هى نفسها كتب الأعمال، التى قال عنها القرآن الكريم نفسه ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف

يحاسب حسابا يسيرا﴾.. ونلاحظ هنا أن هذه الصحف وصفت بصفة (نشرت) أى فى يوم القيامة، ووصف الرق بأنه منشور ﴿فى رق منشور﴾. إذن فالطبيعة واحدة - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن كتب الأعمال هذه - الصحف - بما يؤكد نورانيتها - طاقة - وأنها أمور فى كل ما يتعامل به معها، ككون من يحملها ويسجلها ويسجل فيها ومنها ويتنزل بها، ويعيد تخزينها فى الأصل «أم الكتاب» - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أى برمجتها كل ذلك هو أمر نورانى كما سبق - ثم إنه عند إعادة إخراجها مرة ثانية للحساب عليها سميت كتب.. كما قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[1].

وهذه الآية كما ترى تدور حول قضايا أعمال ابن آدم، وكيفية تسجيلها، وإخراجها، والحساب عليها بل تشير إلى قضايا كثيرة جداً جداً لا نريد أن ندخل فى خضمها.. لكن هناك بعض النقاط نريد أن نلفت النظر إليها إجمالا فقط بدون تفصيل، فالآية كما قلنا أشارت إلى العمل بلفظ الطائر، والطائر والطيران هما رمز للسباحة فى الفضاء. والأفعال جميعها معانى، والمعانى هى أمور نورانية - طاقة - ونحن نعلم اليوم أن الموجات الضوئية هى سابحة فى هذا الفضاء.. وعلى هذا كأنى بالآية تقول: إن كل الأعمال خيرها وشرها - هى مرسلة من هناك، من أم الكتاب وأبيه إليه. مرسلة من ألواحها - رقائقها - الخاصة بها هناك إلى عالم الدنيا، ثم العودة إليه، كما قال تعالى: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ وقد ورد عن هذه الآية ما يؤكد ما أشرنا إليه، فمن ذلك ما ورد فى جامع أحكام القرآن للقرطبى ما نصه «قال على رضى الله عنه: إن لله ملائكة يتنزلون كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم.. وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «إن الله وكل ملائكته مطهرون فينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمال بنى آدم، فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال

---

(١) الإسراء: آية «١٣ - ١٤».

العباد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان».

قال ابن عباس: «وهل يكون النسخ إلا من كتاب.. قال الحسن استنسخ ما كتبه الحفظة على بنى آدم. لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال..» هذا ما جاء فى القرطبى حول آية الاستنساخ والإعادة، ولذلك نرى الشيخ الرازى يقول حول الآية الأولى آية الأعمال والطير وهو توضيح أكثر لما ورد عن ابن عباس وعن الإمام على وعن الحسن رضى الله تعالى عنهم جميعا ما نصه: «إن هذه الآية فى غاية الشرف، وفيها أسرار عجيبة، فى أبحاث كثيرة منها:

البحث الأول:

أنه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذى يطير إليه، وذلك لأنه تعالى قدر لكل واحد فى الأزل مقدارا من الخير والشر، فلذلك الحكم الذى سبق فى علمه الأزلى. فذلك الحكم كأنه طائر يطير إليه من الأزل إلى ذلك الوقت.. وإذا علم الإنسان فى كل قول وفعل ولمحة وفكرة،أنه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله إليه على منهج وطريق معين، وأنه لابد إن يصل إليه ذلك الطائر.

البحث الثانى:

إن هذه التقديرات إنما تقدرت بأمر الله تعالى، وذلك باعتبار أنه تعالى جعل لكل حادث صارت متقدماً عليه لحصول الحادث المتأخر، فلما كان وضع السلسلة من الله تعالى، لا جرم كان الكل من الله تعالى، وعند هذا يتخيل الإنسان طيورا لا نهاية لها ولا غاية لأعدادها.. فإنه تعالى طيرها من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب.. وأنها صارت وطارت طيرانا.. وكأن كل واحد منها متوجه إلى ذلك الإنسان المعين، فى الوقت المعين، بالصفة المعينة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ألزمناه طائره فى عنقه﴾(١).

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ١٧٥ - ١٦/١٧٦.

هذا بعض مما ورد، وفيه ترى الرازى يركز على قضية الطيران وكونه آتيا من هناك «أم الكتاب» والطيران للمعانى ترى ماذا يعنى. ألا يعنى ذلك كونه طاقة، لأنه آت من مكان لا وجود فيه للماديات ـ والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا ما يؤكده الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، فالملائكة النورانيون ينزلون بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم.. ترى ما الذى أدى بالإمام على رضى الله عنه أن يكنى عن ما يكتب فيه بقوله: بشىء يكتبون فيه» لماذا لم يصرح بحقيقته أو اسمه؟ لماذا لم يقل مثلا: ينزلون بكتاب يكتبون فيه فكنى عن الكتاب بقوله: «بشىء.. فى حين نجد ابن عباس رضى الله عنهما.. يصرح بأن ما يكتب فيه هو الكتاب إذن فذلك الكتاب هو نفس الشىء قاله الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، ولكن كناية الإمام على تجعل للمكنى عنه ميزة وخصوصية تميزه وتخصه عن دلالة لفظة كتاب، وإن كان الاثنان تجمعهما دلالة الكتابة، ولكن تلك الخصوصية قد تخرجه قليلا عن عالم ما عهدنا فى دنيانا من حقائق الكتب والكتاب، وإن جعل لنا ما قد يدلنا على مثل هذه الخصوصيات فى عالم الكتب والكتابة وربما ـ والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ما رزقنا الله تعالى يكشفه فى عصرنا الحاضر وما سيأتى بعد ذلك بأمر الله تعالى، من عوالم الرقائق والأدساك والكمبيوتر قد يقربنا ويوضح الكثير والكثير من حقائق ذلك الشىء الذى ينزل به الملائكة النورانيون ليكتبوا فيه أعمال بنى آدم ويسجلوها بالصوت والصورة. والجميع كلها لا ترى، ومع ذلك تسجل وترصد فى ذلك الشىء، والمسمى أيضا بالكتاب، بل بالصحائف كما قال الحسن: «لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال.. »[1] ثم إن الآية نفسها تشير إلى شىء من بعض حقائق ذلك الشىء عند الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، والكتاب عند ابن عباس رضى الله عنهما، وذلك أن الآية القرآنية سمت كتاب أعمال ابن آدم بالطائر، وقد عرفنا بعضا من حقائق ذلك الطائر والطيران ونورانيته، إذن فالآية أعطت ذلك الكتاب خصوصية غير معهودهةفى طبائع الكتب فى الدنيا، إذ أن الكتاب لا يطير، ولكن هذا الكتاب نراه

(١) تفسير الرازى: ١٦٨ ـ ٢٠/١٧٠.

يطير، إذن فهذا أمر مخالف لطبائع الكتب المعروفة والذى عادت الآية نفسها فى أخرها تسمى ذلك الطائر بنفس تسمية الكتاب: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾.. نعم إن الآية حينما اسمت هذا الكتاب بالطائر، نراها تعطى هذا الطائر خصوصية قد تجعل البعض من الذين لا يعلمون عن بعض دلالات القرآن الكريم شيئا، تجعله يسأل ويقول: إن الآية تشير إلى أن الكتاب الذى يسجل فيه كل ما يعمله ابن آدم من أقوال وأفعال هو محفوظ فى عنقه.. فكم تكون سعة هذا العنق الذى يستطيع أن يستوعب حفظ كل ذلك الكتاب وما خزن فيه، وذلك حينما أشارت بقوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾والإجابة على ذلك ليست كما تصورها أخى السائل، بل هى فى عصرنا وما سيكشفه الله تعالى ـ والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ مستقبلا، سهلة جداً جداً، بل إنا نقول: لِمَ الغرابة وما علمناه، ولمسناه فى عالم الرقائق والأدساك والكمبيوترات تجعل ما سئل عنه هو المستغرب والمستنكر، لا ما جاء فى الآية الكريمة، فالرقيقة الصغيرة التى لا ترى تسجل فيها علوم الدنيا كلها فى عصرنا الحاضر ـ كما سنرى ذلك بمشيئة الله تعالى وعلمه ـ وهى من اكتشاف الإنسان وعمله، فكيف يخلق الله تعالى الذى خلق الإنسان نفسه وأبدع وأحسن كل شىء صنيعا، أما إن كان ما دعا السائل للاستغراب هو لفظة كتاب وتخزينه فى العنق.. فإنا نقول له لقد جاء فى السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم حول الكتاب والكتب ودلالاتها نوعا وحجما وما خزن فى داخلها ما لو قرأه أخى السائل لكان لأمره شأن.. وليقرأ معى ما جاء عن رسول الله ﷺ وعن دلالة كتاب صغير جدا ومع ذلك فما وضع فيه هو العجب العجاب، فليقرأ معى: فقد روى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، قال للذى فى يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة آباءهم وقبائلهم ثم اجعل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا، ثم قال للذى فى شماله مثله فى أهل النار.. وقال فى آخر الحديث، فقال بيديه فنبذهما ثم قال: فرغ ربكم من العباد فريق فى الجنة وفريق فى السعير.. اسناده حسن»[1].

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر: ٦/٢٣٦.

هذا هو بعض من نص حديث شريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتصور معى أخى السائل حجم هذا الكتاب الذى سجل فيه جميع أهل الجنة من أول الخلق إلى أن تقوم الساعة، يحمله رسول الله ﷺ فى يده، ولا تنس أن تضع مع هذا التصور أن الكتابة فى عهد رسول الله ﷺ كانت على الجلود، ترى كم سيكون حجم ذلك الكتاب ومثله كتاب أهل النار، أفلا يكون هذا الكتاب متناهيا فى الصغر ليؤهله للحمل فى اليد بل يا ترى ما نوع الأشياء التى بين دفتيه وقد ملئت بما فيها: أهى من الورق؟ أظن أن ذلك غير صحيح، أتراه من الجلد قلنا أن ذلك غير ممكن لثقله وكبر حجمه. إذن فهو كتاب مخالف لما عهد فى تلك الأيام من كتاب، لأنه لم يوجد بعد ذلك، لحكمة يريدها الحق جل سناه وإذا أردنا أن نتلمس لعدم وجوده أسبابا، فلعل من تلك الأسباب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن طبيعة ذلك الكتاب وخصائصها، هما من غير طبيعة وخصائص البيئة الأرضية، أى أنهما نورانيان آتيان أو مستنسخان من طبيعة أمر نورانى جيئا بهما للتمثيل ثم رفعا فى حينهما، إذ فى النص ما يؤيد ذلك كقوله: «فقال بيديه فنبذهما..» والنبذ الطرح جانبا.. إذن فهناك إشارات تشير إلى أن الدلالات القرآنية وكذلك أحاديث الرسول ﷺ هى متطورة متجددة راقية رقيا طرديا إلى أن تصل إلى جلاء الحقيقة التى دعينا للإيمان بها يقينا لنراها بعد ذلك فى وقتها عينا يقينيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ونعود لنقول إن أمر الرقائق والأدساك والكمبيوترات فى عصرنا الحاضر قد وضحت وقربت لنا الأمر بما لا يدعو لأى شىء بعد ذلك.. بل إن فى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، من التأكيدات لمثل هذه المعانى وغيرها، الشىء الكثير والكثير، مما يؤكد أن دلالة الكتاب فى غير عالمنا طبيعتها مختلفة، وكذلك خصائصها وأن ما عندنا اليوم فى أمر هذه الرقائق ما قد يقرب الأمر لنا كثيراً، فهذا الإمام الترمذى - رضى الله تعالى عنه - يروى لنا عن ابن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «أن الله سبحانه وتعالى يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد

البصـر، ثم يقـول أتذكـر مـن هذا شـيئـا؟ أظلمك كتبـتى الحـافظون؟ فيـقـول لا يارب فيقـول: أفلك عذر فقـال: لا يا رب فيقـول: بل إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم.. فيخرج له بطاقة فيها اشهد أن لا إله إلا الله وأن محـمد رسـول الله، فيقول احضـر وزنك. فيقـول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السـجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شىء..» قـال حديث حسن غريب.. لكن جاء ما يحقق ويؤكد هذا الحديث، وهو قوله: «..وقال مـحـمد بن يحيى: البطاقة هى الرقعة عند أهل مصـر، وفى الخبـر إذ خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ بطاقة كالأنملة فيلقيها فى كفـة الميزان اليمنى التى فيـهـا حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبـد المؤمن للنبى ﷺ: «بأبى أنت وأمى، ما أحسـن خلقك - فـمن أنت - فيقـول أنا نبيك مـحـمـد، وهذه صـلاتك علىَّ التى كنت تصلى علىَّ قـد أوفيـتك إياها، وأنـت أحـوج مـا تكون إليها». ذكره القشيرى فى تفسيره.. وذكره أبونعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس رضـى الله عنـه والعـمـرى عن نافع عن ابن عـمـر رضى الله عنه قـال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «من قضى لأخيه حـاجة كنت واقفا عند ميـزانه، فإن رجح وإلا شفعت له»(١).

هذا شـىء يسيـر من الكثيـر والكثيـر الذى جاء فى السنة النبوية على صاحبـهـا أفضل الصـلاة وأزكى التسليم - كما سيأتى بمشيئة الله تعالى - وإذا تأملنا فى هذا النص الصغيـر ألا نجد فيـه ما يشيـر إلى قضايا الرقائق والأدسـاك والبرمجة - خذ مثـلا هـذه الإشـارة الإعـجـازية المجـملة، إشـارة البطـاقـة التى هـى قدر الأنملة والأمـر الذى أدخل وبرمج بداخلها ، لتعدل كفة الميزان الأخرى التى وضع بها ٩٩ سجلا، كل سجل طوله كمـد البصـر، ومع ذلك لا ترجح تلك البطـاقة التى هى قـدر الأنملة - ترى كيف ذلك - ذلك أمـر يسيـر، إنه أمـر قـد جعل لنا الله - سبـحـانه وتعالى - عليه فى دنيـانا شـواهد كثـيرة تقـرب أمـره وتوضـحـه، منهـا نحن اليوم وفى عصـرنا الحـاضـر نؤمن بكل مـا يقـال عن أمـر الكمبيـوتـرات ورقـائقهـا وأدسـاكهـا، أفـلا تؤمـن بأمـرتلك

(١) التذكرة للقرطبى: ٤ - ٢/٥.

البطاقة وما هو أعظم منها؟ أنستغرب أن تحمل هذه البطاقة التى هى كقدر الأنملة كل تلك الأعمال بداخلها على صغرها؟ أنستغرب مثل هذا القول فى يوم القيامة بين يدى الخالق العظيم - سبحانه وتعالى - ولا نستغرب أو ننكر على المخلوق البشرى الضعيف فى دنيانا حينما يقول: «مستقبل مثير لتقنيات حفظ المعلومات.. علوم الأرض جميعها فى رقيقة واحدة فقط.. نحن نعيش اليوم عالماً مليئاً بالمفاجآت.. فى ميدان صناعة الرقائق. هناك شىء جديد كل يوم، ولعل أبرز ما يدور اليوم فى أذهان علماء الفيزياء، استثمار الذرات الدقيقة للمعادن وتحويلها إلى مكتبات مجهرية عملاقة لخزن شتى المعلومات.. وبإمكان هذا المجهر - وهو مجهر الكترونى ضوئى وكذلك رقائقه - تركيب أو التقاط كل ذرة على حدة، وذلك بتحريك طرفه الحر.. حول السطح يقول أونو: أن تقنية هذا المجهر مع علوم الذريات تمكننا من خزن جميع المعرفة البشرية فى رقيقة واحدة «بايت واحد».. ترى إلى أين سيقودنا هذا العلم.. علم المجهريات والذرات؟ وما هو أصغر من الذرات.. إننا نعيش فى عالم ملىء بالمفاجآت حقا..»[1].

هذا شىء موجز مما يقوله ويعمله العلم فى عصرنا، فى الدنيا ومع ذلك نتقبله بكل رحابة، نتقبل فعل البشر المخلوق وما يفعل، ونستغرب فعل الحق الخالق جل سناه.. إنه لعجب البشر يقول: فى رقيقة واحدة صغيرة نستطيع تخزين جميع علوم الأرض والمعرفة البشرية!! إنها الطاقة وفعلها.. إنه عالم الرقائق، عالم الضوئيات والذريات.. ورغم ذلك لا نستغربه، فإذا كان كل ذلك الفعل البشرى يتم من خلال عالم الضوئيات والطاقة.. وكون ما يخزن به - الرقائق - هو كذلك من هذا العالم.. فإن السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - تخبرنا أن تلك البطاقة التى هى قدر الأنملة هى أيضا طاقة ومن عالم الطاقة التى لا نعرفها، ولا نعرف أى أمر من حقائقها بل كل العالم التى هى فيه ومنه هو عالم كله طاقة، ولا نذهب بعيدا فهذا الشيخ القرطبى يورد فى كتابه «التذكرة» صراحة أن تلك

(١) هذا القول مأخوذ باختصار وتصرف شديد من مجلة «الشرق الأوسط» «رقم ٣٨٦» وتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٩٣م.

الحسنات التى هى بداخل تلك البطاقة الصغيرة أصلها نور، وإذا كان أصلها نورا فطبيعى أن يكون أمر ما يوضع بها لتحفظه بداخلها من جنسها أى أنه نور.. قال: «وقد جاء أن كفة الحسنات، من نور، والأخرى من ظلام.. والكفة النيّرة للحسنات، والكفة المظلمة للسيئات.. وجاء فى الخبر أن الجنة توضع على يمين العرش والنار على يسار العرش ويؤتى بالميزان فينصب بين يدى الله تعالى، كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار.. ذكره الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول»[1].

إذن فكل حقائق ذلك العالم وكل ما فيه هو نور فى نور، أفلا تكون تلك البطاقة هى نورانية كذلك. وقد جاء ما يثبت ذلك بل إن أحد مفكرى الإسلام وقبل تسعة قرون يسمى أمر تلك البطاقة ومثالها بالرقائق باللفظ بل ينص على أنها رقائق نورانية حينما يقول: «..وجعل للقلم من حيث كونه عقلا: ثلاثمائة وستين تجليا ورقيقة بل كل رقيقة تغترف من ثلاثمائة وستين صنفا من العلوم الإجمالية.. وذلك كله فى عالم النور الخالص[2]. وهذه الرقائق هى مثل أشعة النور..»[3].

إذن فهذا المفكر المسلم ينص على أمر التسمية، وأمر ماهيتها، وأنها أشياء نورانية وعملها كذلك وكأنه يتحدث عن أمر الكمبيوتر وحقائقه فى عصرنا الحاضر - والحمد لله رب العالمين - أفنستغرب بعد ذلك أمر تلك الرقائق فى «أم الكتاب» والحفظ فيه للأعمال وغيرها واستنساخها وأمر الوزن النورانى - الطاقة - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وغير ذلك، وهذا القرطبى يورد أيضا: (وذكر أبوعمر فى كتاب جامع بيان العلم بإسناده على حماد بن زيد عن أبى حنيفة عن حماد بن إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾.

قال: يجاء بعمل الرجل فيوضع فى كفة ميزانه يوم القيامة فتخف، فيجاء بشىء أمثال الغمام أو قال السحاب فيوضع فى ميزانه، فيقال له: أتدرى ما هذا؟ فيقول:

---

(١) التذكرة للقرطبى: ٢/٨.

(٢) الفتوح المكية لابن عربى: ٣٥٠ - ٢/٣٥١.

(٣) نفس المرجع «الفتوح»: ٢/٣٨٦.

لا. فيقال له: هذا فضل العلم الذى كنت تعلمه الناس أو ذلك)[1].

هكذا ورد إذن فلا نستغرب حينما نُخبر عن الحق جل سناه - سبحانه وتعالى - أنه يخبرنا أن كل شىء فى هذا الكون مخزن ومحفوظ أصوله وما يتعلق بأمره عنده سبحانه وتعالى فى: «كتاب حفيظ».. يا للعجب.. ما يدرينا أن هناك ما هو أعظم وأفخم وأدق مما لا نستطيع حتى إدراكه أو استيعابه،ورب الكعبة.. إذن فلا استغراب ولا عجب إذا قال لنا الحق جل سناه: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.. لا ندهش حينما يخبرنا الرسول الأعظم ﷺ عن الحق، وهو يخبر عن استنساخ أى إنسان من «أم الكتاب» من مكانه فيه، من رقيقته من مستودعه فى «أم الكتاب» بقوله صلى الله عليه وسلم: «قال روى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهم جميعا: أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه، فقال: يارب أذكر أم أنثى؟ شقى أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ بأى أرض تموت؟ فيقال له: انطلق إلى أم الكتاب، فإنك تجد قصة هذه النطفة، فينطلق فيجد قصتها فى «أم الكتاب».. فينظر فى اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأجله وأثره وعمله، ويأخذ التراب الذى يدفن فى بقعته، ويعجن به نطفته، فذلك قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾.. وخرّج أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وقد ذرّ عليه تراب حفرته..»[2] وسيأتى هذا الحديث فى أماكن أخرى متفرقة بمشيئة الله تعالى.

إذن فالحق جل سناه - سبحانه وتعالى - يعلمنا أن لكل شىء عنده كتاب - أو لوح أو رقيقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قد خزّن وحفظ فيه أصوله وأجزاءه ورزقه وأجله وأثره وكل سير عمله الذى سيعمله فى حياته الدنيوية، كل ذلك مدون فى لوح خاص به - رقيقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن كل جزىء وذرة فى هذا الكون بأكمله له رقيقته التى دون وخزن فيها.

---

(١) التذكرة للقرطبى: ٢/١٢.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ٦ - ١٢/٧، و: ٦/٣٨٨.

وهنا سنحاول أن نعود لما سبق أن أشرنا إليه فى بداية هذا الفصل، وقلنا أن هناك مجموعة محاور قد أشار بها القرآن الكريم، كنماذج لمثل هذه الكتب والألواح - الرقائق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وليس ما ذكرنا هو كل شيء،لا بل هى إشارات فقط، وإلا فالموضوع أسمى وأشمل وأكبر من أن نحيط به، وحاشا ذلك وسوف نورد الآن بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - نماذج لآيات كل محور مما سبق، وبعض النبذ اليسيرة مما أشار به بعض علماء التفسير، لبعض الآيات الخاصة بتلك المحاور، لكى نقف على حقيقة ما سبقت الإشارة إليه.. لننتقل بعد ذلك - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه لجزئية توضيحية أخرى بعون الله تعالى وإذنه.

الفصل الثانى
عودة لآيات المحاور السابقة
وقضايا التسجيل والبرمجة

مع آيات المحور الأول:

سبق أن أشرنا إلى آيات المحور الأول بأكملها أثناء الحديث عن قضية الفرق بين «أم الكتاب» و«اللوح المحفوظ».. والذى اتضح لنا من خلال - بحمد الله وتوفيقه - نصوص وإشارات أوردناها هناك، دللت أن «أم الكتاب» هو غير «اللوح المحفوظ».. وأن «اللوح المحفوظ» ما هو إلا جزء رئيسى من ضمن الأجزاء التى يحويها «أم الكتاب» لكونه هو الأم والأصل والأساس لكل ما انبثق من كتب - ألواح - رقائق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عنه ومنه وأن لفتة «اللوح المحفوظ» الواردة فى القرآن الكريم، هى إشارة خاصة برقيقة القرآن الكريم نفسه فى «أم الكتاب» لكونها لم ترد إلا معه ولم ترد مع غيره إلا بلفظة الجمع «ألواح»، ومع ألواح موسى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم لكونها من جنسه أما عدا ذلك فلم يرد إلا بلفظ كتاب، وقد سبق ذلك فى مكانه، ولننطلق الآن بعون الله تعالى وتوفيقه إلى آيات المحور الثانى وهو محور كتاب وكتب الأعمال.. فمع آيات المحور الثانى.

المحور الثانى:

مع آيات كتب الأعمال وبعض مما قيل عنها:

ما هى آيات هذا المحور؟

قلنا أن ما أخذناه من آيات لهذا المحور قد لا تتجاوز إحدى عشرة آية، وإن كانت قد تكون أكثر من ذلك لكونها قد ترد بصيغ ألفاظ أخرى مع نفس الدلالة وإشارات أخرى معها.. وهذا مثلا نص أول آيات هذا المحور.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾[١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[٢].

٣ ـ قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا﴾[٣].

٤ ـ قال تعالى: ﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾[٤].

٥ ـ قال الله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾[٥].

٦ ـ قال تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[٦].

٧ ـ قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾[٧].

٨ ـ قال تعالى: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا وكتابيه. وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه﴾[٨].

---

(١) سورة الكهف: آية «٤٩».
(٢) سورة الإسراء: آية «١٣ ـ ١٤».
(٣) سورة الإسراء: آية «٧١».
(٤) سورة المؤمنون: آية «٦٢».
(٥) سورة الزمر: آية «٦٩».
(٦) الجاثية: آية «٢٨ ـ ٢٩».
(٧) سورة الحديد: آية «٢٢».
(٨) الحاقة: آية «١٩ ـ ٢٥».

هذه بعض من الآيات التى أشارت إلى كتب حفظ الأعمال، وفيها نلاحظ أن بعضها يشير إلى العمومية، وبعضها يشير إلى الخصوصية، أى أن التى تشير إلى العمومية أى عمومية أمة ما، أمة جمعها إما زمان ومكان معين، وإما أمة جمعها نوعية العمل وخصوصيته، ونلاحظ أن بعضها يشير إلى الفردية أى أن كل إنسان وله كتابه الخاص به، فمثلا الأمة التى جمعتها خصوصية العمل، هو ما أشارت إليه الآية الأولى وهو قوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أى أن هذه الأمة جمعتها خصوصية عمل الإجرام. وقوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم..﴾.. إلخ. فهؤلاء أمهم عمل واحد شملهم وأصبح كأنه الإمام لهم جميعا، وإن لم تشر الآية إلى نوعية العمل، لكنهم جمع من الناس جمعتهم خصوصية عمل ما - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أما آية الزمر فتراها تشير إلى أن كل الكتب سواء الكتب التى تخص الأمم أو الكتب التى تخص الأفراد كلها يجمعها كتاب واحد عام.. لأنه كتاب تحضره جميع الأمم بدون استثناء، وفيها - الآية - إشارة أخرى إلى أن كل أمة سواء جمعها زمان ومكان واحد أو تباعد زمنهم فلهم أيضا كتاب عام يشمل جميع كتبهم الخاصة، مثلا أمة محمد ﷺ لهم كتاب عام يشمل جميع هذه الأمة، من أولهم إلى آخرهم وإن اختلفت خصوصية كتب أفرادها.. وهكذا، وكذلك آية الجاثية فيها إشارة عمومية.. أما آيات الأحقاف والإسراء فهى تشير إلى فردية كل إنسان وكتابه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

هذه لفتة سريعة لما قد تنبئك به القراءة الأولى للآيات - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والآن سنحاول أن نستعرض سريعا بعضا مما أشار به بعض مشايخ التفسير وعلماؤه، فيما أشاروا ولو نبذا يسيرة.. فمن ذلك مثلا ما ورد عن الشيخ القرطبى عن مجمل الآية الأولى ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾.

قال: ﴿ووضع الكتاب﴾ الكتاب اسم جنس، وفيه وجهان أحدهما: أنها كتب الأعمال أى العباد.. قاله مقاتل.. والثانى: أنه وضع الحساب فعبر عن الحساب

لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة. قال الكلبى: والقول الأول أظهر ذكره ابن المبارك، قال: أخبرنا الحكم أو أبوالحكم - شك نعيم - عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسبح قال: قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لكعب: ويحك يا كعب!! حدثنا عن حديث الآخرة، قال نعم يا أمير المؤمنين: «إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله - قال - ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتنشر حول العرش، وذلك قوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾(1).

هذا جزء مما ورد عن هذه الآية العظيمة ذات الدلالات والإشارات الكثيرة والمتنوعة، ولن نأخذ كل ما قيل عن دلالاتها، بل سنكتفى بما قيل عن الإشارات الخاصة بما نريد، وهى قضية الكتاب وتعدده، وقد سبق أن قلنا أن الآية تشير إلى عمومية الاختصاص فى نوعية العمل للأمم أو الأفراد، مع احتواء عمومية هذا الكتاب إلى مجموعة كتب فردية تشترك فى تلك الخصوصية. وترى أيضا أن الكتاب يقوم بإحصاء وتسجيل كل شىء.. ولكن إذا أردنا أن نقف قليلا عند هذا النص، فسنقف عند بعض نقاط، منها أن قضية هذه العمومية والخصوصية والفردية بعمل كل فرد يشترك مع أمة يجمعهم عمل خاص يحويهم كتاب عام بهم، وهذا الكتاب العام يدخل ويرصد فى كتاب عام يشتمل جميع الكتب الخاصة بجميع الأعمال وأنواعها أمماً وأفراداً، أزمنة وأمكنة، وهذا الكتاب الإمام للجميع، يدخل - يوضع - ضمن أئمة كثيرة جداً ومتنوعة لقضايا متعددة، كالكتاب الأمام لجميع كتب الأرزاق وكتب الآجال وما إلى ذلك، كتاب يؤمهم جميعا، أى هو لهم أم «أم الكتاب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أى بمعنى إن جاز لنا التعبير - ولا مقارنة ولا مشابهة فى ذلك - أن كل رقيقة فردية مدخلة فى دسك يحوى مجموعة رقائق وجميع الأدساك الكثيرة المختلفة المتنوعة مدخلة فى ديسك واحد يؤمهم جميعا، أى أنه أم لهم، وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد

(1) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ١٠/٤١٨.

لله رب العالمين - وقد تسألنى وتقول من أين أتيت بمثل هذا الإيحاء أو الإشارة؟

والحقيقة أن تلك الإشارة أخذناها من بقية النص الذى لم نورده مع جزئه السابق، ولكن ما دامت الحاجة دعت إليه الآن فلا مانع من إيراده، وهو قوله: «..قال كعب ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكى لا يقول: كانت لى حسنات فلم تذكر، فأحب أن يريه عمله حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر ذلك كله أنه مغفور لك، وأنك من أهل الجنة، فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾.. ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله فيجعل من وراء ظهره[1].

إذن فهذا الكتاب الأم حوى بداخله جميع الكتب سواء ما يخص المؤمن أو ما يخص الكافر إذن فإيحاء أو إشارة ما قلناه مصدره موجود فى ما ورد ولم نأت نحن بشيء من عندنا اللهم إلا أننا وضحنا ما أجمل وأدمج فى نص ما ورد.

ثم إن النص يشير إلى أن هذا الكتاب وما حوى، يسجل ويأخذ كل شيء بالصوت والصورة - الرؤية - وأظن أنه قد سبق وأشرنا إلى هذه الإشارة بصورة سريعة لأنها قد تأتى فى مكانها بتفصيل أكثر - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - ثم إن إشارة الصوت والصورة - الرؤية - القرآن الكريم ملىء بالآيات التى تشير إلى ذلك منها آيتان وردتا معنا هنا ضمن آيات هذا المحور، منها آية المؤمنون وآية الجاثية، قوله تعالى: ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾. وقوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وقوله تعالى: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا﴾[2].

هاتان الآيتان ترى أنهما تشيران إلى قضية التسجيل الصوتى صراحة ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

---

(١) جامع أحكام القرطبى: ٤١٨ - ١٠/٤١٩.

(٢) سورة النبأ: آية «٤٠».

وهنا قد تقول أن النطق عائد إلى كتاب أى أن الكتاب هو الذى ينطق، كأن يقول أنتم فعلتم كذا وكذا، لا أن النطق يعود إلى الناطق - صاحب القول فى الدنيا نفسه - ونحن نقول لصاحب هذا القول: قد يكون ما قلته وأشرت إليه ممكنا وواردا، لو لم يرد فى آخر الآية نفسها ما يؤكد ما أشرنا إليه وهو أن الناطق هو القائل نفسه المسجل فى ذلك الكتاب، ألم يرد ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وماذا يعنى الاستنساخ؟ أليس من معانيه الكثيرة النقل، كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - السابق - وما النسخ إلا النقل من كتاب. إذن فالنسخ يعنى النقل، أى نقل صوتك الذى قلته وسجله رقيبك الذى معك فى كتابك، ثم نقله وأدخله فى الكتاب الأم، كما سبق ذلك سوف تأتى عن هذه الإشارة تفصيلات أكثر وأوضح بمشيئة الله تعالى وتوفيقه، أما آيات الرؤية «الصورة» - فكثيرة جداً جداً - وسوف تأتى بمشيئة الله تعالى فى موضعها - منها مثلا آية البقرة[1]، ومنها آية النبأ: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا﴾. وآية يونس[2].

وهى كثيرة، أما الأحاديث الدالة على ذلك فهى أكثر من أن تعد أو تحصى.. وفى هذه الآيات نرى أنها تنص على حقيقة التسجيل المرئى للأعمال ، فآية البقرة نراها تقول: ﴿نريهم أعمالهم حسرات﴾ إذن فحركات ما تعمل وتفعل محصاة مسجلة مرئية لا جدال فى ذلك أو شك، وإلا ماذا تعنى دلالة ﴿نريهم﴾ إن لم تكن هى رؤية ما عملوا فى الدنيا، وما عمل فى الدنيا لا يتم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولا يكون إلا إذا كان قد سبق أن صوّر فعلا، وهذا ما تؤكده آية النبأ صراحة، ألا تنص على ذلك: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه..﴾ والنظر ترى إلى ماذا يكون أليس إلى رؤية وسيأتى تفصيل ذلك بمشيئة الله تعالى.

وهنا نعود إلى النص السابق، نص عمر وكعب الأخبار إذ فيه نقطة ربما قد تثير بعض التساؤلات حول الاستشهاد به.. كقول القائل: إن فى نص ما استشهد به ما قد

---

(٢) سورة البقرة: آية «١٦٧».

(١) سورة يونس: آية «٦١ - ٦٤».

يثير فى النفس بعض الشكوك حول الاستشهاد به، من ذلك كون عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه وأرضاه - وهو من هو فى الصحابة - رضوان الله عليهم - والقريب من رسول الله ﷺ ولا يأخذ العلم منه ثم إنه - رضى الله تعالى عنه - ملهم هذه الأمة، ومع ذلك يسأل كعب الأحبار عن أمر الآخرة.. فكيف يكون ذلك ألا يجعلنا ذلك نشك؛ فى النص المستشهد به.. وفى الرد على ذلك نقول: أولا: أن كعب الأحبار حينما سئل ذلك السؤال لم يكن على يهوديته، بل قد أسلم، ومع إسلامه أنه حبر، والأحبار هم كبار علماء اليهود.. أوليس عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه، من ورد عنه أنه كان يسأل كعب الأحبار، بل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ورد عنه أنه كان يسأل كعب الأحبار كثيرا، وهو من هو فى علمه بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ولا ننسى أنه كان حبرا لهذه الأمة - ابن عباس رضى الله عنهما - ومدعو له بفقه الدين وعلم التأويل، وفهم القرآن الكريم والسنة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. ثم إن عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه قد يكون نفسه كان عارفا عما سأل عنه كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه وأرضاه، ولكنه - رضى الله عنه - أراد أشياء منها: والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن يُعرّف الأمة بحقائق ربما بعضهم لا يعرف عنها شيئا فأراد أن يعرفهم بذلك وبطريق الحوار والاستجواب المرسخة للمعلومة، وعن طريق عالم كبير كان ذا شأن وقدم راسخة فى العلم فى ديانته قبل الإسلام ثم جمع إليها ما علمه من الإسلام العظيم بعد دخوله فيه. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قد يكون أراد عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه شيئا آخر، وهو أن يؤكد حقائق عقيدية موجودة فى جميع الديانات، وبعض أهل هذه الديانات يحجبونها عن العامة، فأراد أن يظهرها للعامة من الناس سواء كانوا من أهل الإسلام أو غيره ومن يقول هذه الحقائق هو من هذا الغير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد يكون أراد أيضا أن يسمع هذه اللفظة من غيره على طريقة «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين». وهناك تكون أرسخ وأدعى للتذكر.. ألم ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وهو من هو وكفى، ومع

ذلك كان ﷺ يأتى إلى أبى موسى الأشعرى أو أبى بن كعب رضى الله تعالى عنهما وارضاهما ويدعوهما لأن يقرأ عليه ﷺ القرآن الكريم أمامه فيبكى ﷺ حتى تخضل لحيته ﷺ، فيقول لأبى موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير داود عليه الصلاة والسلام، ويقول لأبى بن كعب أن الله تعالى يحب أن يسمع صوتك بالقرآن يا أبى.. فلماذا لا يكون من هذا القبيل ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ والحكمة ضالة المؤمن كما يقولون.

هذا ما أوجزناه عن أول آيات هذا المحور ـ محور كتاب الأعمال ـ أما آيتا الإسراء (١٢، ١٣) فقد سبق الحديث عنهما عندما أشرنا فى الحديث عن نورانية «أم الكتاب» وما فيه وجميع الآيات السابقة تعطينا حقائق تنوع اللوح الواحد خصوصا وعموما كما سبق.. وجميع ما سبق من لطائف وإشارات سوف نرى أمثالها فى المحاور الأخرى، سواء كان ذلك فى كتاب الآجال، أو الأرزاق، وبكل ما يخص ويتعلق بالإنسان وبحياته وأمور الكون وقضاياه كهذا المحور.

آيــات المحور الثالث:

كتــاب الآجــال

وفى هذا المحور سوف نكتفى بإيراد بعض الآيات الرئيسية كنماذج فقط، ثم نحاول أن نورد بعد ذلك نبذا مما ورد وقيل عن بعض كبار الصحابة ـ رضوان الله تعالى عنهم ـ أجمعين وبعض المفسرين بمشيئة الله تعالى.

فمع الآية الأولى:

١ ـ قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلاّ بإذن الله لكل أجل كتاب﴾(١).

٢ ـ قال تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾(٢).

(١) سورة الرعد: آية «٣٨».
(٢) سورة الحجر: آية «٤».

٣ ـ قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نوته منها وسنجزى الشاكرين﴾[1].

٤ ـ قال تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير﴾[1].

هذه بعض آيات هذا المحور، وليست هى كل ما قيل عنه من آيات، بل الآيات عنه كثيرة جدا، ولكننا أحببنا أن نكتفى بهذه كنماذج لهذا الأمر وتنوعه وتخصصه أيضا.. وسواء كان ذلك التنوع والتخصص خاصاً بآجال أعمار الإنسان أو غيره مما هو موجود فى هذا الكون الفسيح، بل الكون نفسه له كتاب بأجله المحدد له، ينتهى كما حدده له خالقه، وباستعراض سريع نجد أن الآية الأولى تنص على أن كل شىء فى الوجود المخلوق له أجل يخصه، وأن هذا الأجل موجود ومدون ومثبت فى كتاب خاص به، والآية الثانية تشير إلى أن القرى ـ المدن ـ لها أيضا آجال محددة معلومة لله تعالى إذا حانت تنتهى، وأن هذا الانتهاء هو بيد الله تعالى وحده القادر بإنهائه، كما أشارت إلى ذلك الآية الثالثة، أما الآية الرابعة فنراها تشير إلى تفصيل ما قلناه من أن كل شىء مهما كان نوعه له أجل محدد ومعلوم، فحمل الأنثى ووضعها ونقص الأعمار ـ الآجال ـ وزيادتها كل أمر من ذلك له أجله المثبوت فى كتابه الخاص به.

وقبل أن نقول أى تعليق حول ذلك.. ترى ماذا ورد عن هذه الآيات وما شابهها فى كتب التفسير والحديث أو بعض كتب الأثر ولو بصورة موجزة جداً، لنستنير به فيما سنقوله حولها بعد ذلك ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ فمثلا آية آل عمران فماذا قيل عنها بإيجاز؟ جاء فى تفسير الشيخ الرازى «...قيل المراد بالكتاب المؤجل، هو الكتاب المشتمل على الآجال، ويقال: إنه هو اللوح المحفوظ، كما ورد فى الحديث أنه تعالى قال: «للقلم اكتب فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.. واعلم أن جميع الحوادث

(١) سورة آل عمران: آية «١٤٥».
(٢) سورة فاطر: آية «١١».

لابد أن تكون معلومة لله تعالى، وجميع حوادث هذا العالم من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة، لابد أن تكون مكتوبة فى اللوح المحفوظ»[1].

هذا موجز من تفسير الرازى وعلى صغره نراه يثبت ويشير إلى قضايا كثيرة وكبيرة ومتنوعة، وفيه ترى أن الأمر لا يقف عند الآجال والأعمال والأرزاق، بل السعادة لها كتاب وأجل، الشقاوة لها كتاب وأجل، فهذا النص رغم صغره يثبت حقيقة أشرنا إليها من قضايا التخصص والتنوع وتعدد كتبها بناء على ذلك، والجميع يحويها كتاب عام والكل مدخل فيه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن شرح الشيخ الرازى يفصل قضية الخلاف بين كثير من المفسرين الذين سبق أن اختلفوا فى قضية «أم الكتاب واللوح المحفوظ» فهو يشير لنا إلى قضية هذا التنوع والتخصص أدى إلى هذا التعدد والجميع يؤمها كتاب واحد هو لها أم وإمام يشملها، فكل شىء قد حفظ فى كتابه الخاص به والجميع مدرج مدخل فى أمها جميعا «أم الكتاب».

إن التأمل فيما ورد حول هذا الكتاب وكتب الآجال من آيات وأحاديث لشىء يحار فيه العقل، كيف لا يحار أمام هذه القدرة الخلاقة المبدعة فى هذه الصنعة والدقة اللطيفة إنه ﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون﴾ (النمل).

فهذه آية فاطر «السابقة» التى كشفت لنا عن أمور كثيرة من قضايا هذا الإتقان والإبداع «وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب».

فالإنسان ليس له أجل واحد فقط، بل آجال كثيرة متعددة يؤمها أجل عام، بمعنى أن نسخة الإنسان الخاصة بالدنيا لها أجل عام نهائى مرتبطة به آجال ذات اختصاصات متعددة، فخروج جزئياته من أصله - لوحه الخاص به فى أم الكتاب - وهبوطها إلى الدنيا لها أجل خاص محدد تجمع هذه الذرات فى نباتات معينة

---

(١) تفسير الرازى: ٩/٢٤.

ووصولها إلى مستقرها الدنيوى الأول وهو صلب الأب له أجل بكتاب خاص ـ رقيقة خاصة ـ بمراحل خلقه وتخلقه وبناه فى الرحم لها كتب خاصة ـ رقائق خاصة ـ بذلك ثم خروجه بعد ذلك إلى ساحة الشقاء والكدح ـ عالم الدنيا ـ نشأته ونموه ومعيشته إلى أن يحين وصوله إلى مرحلة الأجل الهام النهائى أجل الخروج إلى عالم البرزخ، كل تلك النشأة والنمو والمعيشة لها كتب متعددة خاصة بها، كما أن عالم البرزخ له كتبه وكتابه الأجلى، وكل تلك الأشياء يحويها كتاب عام بها وهى مثبتة به وهو الأصل لها، ثم إنه هو نفسه مدخل محفوظ فى الأم لكل الكتب والأصول وهو «أم الكتاب».

الأجـل والبرمجـة

إذن فكل صغيرة وكبيرة تخص هذا المخلوق الإنسانى أو الوجود الكونى كله وما فيه له كتبه ـ رقائقه وأدساكه الخاصة به ـ وكل هذه الإشارات السابقة أشار إليها المفسرون ورواة الأحاديث على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فهذا الشيخ القرطبى صاحب جامع أحكام القرآن الكريم يورد عن آية «فاطر» السابقة ما سوف نوجز منه الآتى:

يقول تعالى: ﴿..ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

قال: أى جعلكم أزواجا فيزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان ثم يخرج شىء عن تقديره ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره: كم هو سنة.. كم هو ساعة.. ثم يكتب فى كتاب آخر: نقص من عمره يوم.. نقص شهر.. نقص سنة حتى يستوفى أجله.

وعن سعيد بن جبير ـ رضى الله تعالى عنه ـ أيضا يكتب عمره: كذا سنة وكذا سنة.. ثم يكتب فى أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتى على آخره.

وقيل: إن الله تعالى كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع.. وتسعين إن عصى أيهما بلغ فهو فى كتاب.. وهذا مثل قوله ﷺ: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه». أى أنه يكتب فى اللوح، عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه زيد فى عمره كذا سنة.. فيبين ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه.. فمن اطلع على الأول دون الثانى ظهر أنه زيادة أو نقصان «إن ذلك على الله يسير» أى كتابة الآجال والأعمال غير متعذر عليه سبحانه وتعالى[1].

هذا موجز عما ورد حول هذه الآية، وبالله انظروا معى إلى هذا التنظيم الإحصائى العظيم ﴿وكل شىء عنده بمقدار﴾ العمر مدون بالدقيقة والثانية والساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة والسنين، ومدون بقريه النقص التنازلى، وفى مكان مقابل إن كان سيزيد أو لا، ولم يزد ولم ينقص. إنها دقة «من أتقن كل شىء».

أولا يقرب ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بدون مشابهة أو مماثلة، وإنما تقريب صورة فقط - من عمل كمبيوترات رصد ميزانيات الدول والبنوك من حيث إدخال وسحب الأرصدة وما تبقى منها، أى ميزانية الواردات والمصروفات والمتبقيات، سواء كان ذلك للمراكز الرئيسية أو ما يرتبط بها من فروع وسحب وإدخال - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الدقة الإحصائية والبرمجة الكمبيوترية - إن جاز لنا هذا التعبير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يجليها ويفصلها لنا بشكل أوضح، بل يقربها بصورة أكثر مما قلنا، ما ورد فى خبر الإسراء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «مررت على ملك آخر جالس على كرسى، إذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه، وبيده لوح مكتوب ينظر فيه، لا تلتفت عينه يمينا ولا شمالا.. فقلت: يا جبريل من هذا؟؟ قال: هذا ملك الموت.. فقلت: يا ملك الموت كيف تقدر على قبض جميع أرواح من فى الأرض، برها وبحرها؟؟

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ١٤/٢٣٣.

قال ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى، وجميع الخلائق بين عينى، ويداى تبلغان المشرق والمغرب فإذا نفد أجل عبد نظرت إليه، عرف أعوانى من الملائكة أنه مقبوض، عدوا فبطشوا به يعالجون نزع روحه، فإذا بلغوا بالروح الحلقوم علمت ذلك فلم يخف علىَّ شىء من أمره، مددت يدى فأنزعه من جسده، وآلى قبضه.

وفى الخبر أن ملك الموت جالس وبين يديه صحيفة يكتب فيها له فى ليلة النصف من شعبان، وهى الليلة «التى يفرق فيها كل امر حكيم» من الأرزاق والآجال فى قول بعض العلماء، عكرمة وغيره: والصحيح أن الليلة هى ليلة القدر من شهر رمضان، وهو قول قتادة والحسن ومجاهد وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ويدل عليه قوله تعالى: ﴿حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه﴾ يعنى القرآن.

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: إن الله يقضى الأقضية فى ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها فى ليلة القدر.. وكان هذا جمعا بين القولين - والله تعالى أعلم - فإذا انقضى عمر ذلك الشخص الذى حان قبض روحه، سقطت ورقة من سدرة المنتهى التى فيها اسمه على اسمه فى الصحيفة فعرف أنه قد فرغ أجله وانقطع أجله.

وفى الخبر أن ملك الموت تحت العرش يسقط عليه صحائف من يموت من تحت العرش: الصحف هنا ورق السدرة[1].

هكذا رووا وبنظرة سريعة فاحصة عليه ترى ما الذى يمكن أن نأخذه من هذا النص المروى؟ ما الذى يمكن أن نأخذه من قول ملك الموت عليه الصلاة والسلام لرسول الله ﷺ: ألا ترى أن جميع الخلائق:

«بين عينى».

«والدنيا كلها بين ركبتى».

«ويداى تبلغان المشرق والمغرب».

(١) التذكرة للقرطبى: ٨٢ - ١/٨٣.

ألا يعطينا ذلك أن نسخة كاملة بجميع ما فيها مستنسخة من نسخة الدنيا التى نحن نعيش فيها الآن هى مع ملك الموت عليه الصلاة والسلام، صورة طبق الأصل مستنسخة من نسخة هذه الدنيا، نسخة متحركة حية نابضة بالحياة وإن كانت طبيعة الخصائص مختلفة إذ نسخة ما نحن فيها هى مادية، أى أن الجانب المادى هو العنصر الغالب عليها بعكس النسخة التى مع ملك الموت عليه الصلاة والسلام، فهى نورانية ـ طاقة بحتة، لملاءمة ومواءمة بيئته الطبيعية النورانية التى هو فيها، بل طبيعة من يتعامل معها بحسب مهمته وطبيعة عمله المرتبطة بها، وإن كان الجميع نسخة دنيانا ونسخة ملك الموت عليه الصلاة والسلام مستنسخ من «أم الكتاب» ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ هذا يؤكده الخبر المروى عن عكرمة والذى منه «..وإذا بين يديه ـ أى ملك الموت عليه الصلاة والسلام ـ الأرض بما اشتملت عليه من الجبال والسهول والفيافى والجن والإنس والدواب، وما أحاط بها من البحار وما علاها من الأجواء فى ثغرة نحره كالخردلة فى فلات من الأرض..»[1].

إذن فالخبر يؤكد لنا حقيقة كونها نسخة مستنسخة منها طبق الأصل بجميع ما فيها، فالنص يقول: «وإذا بين عينيه الأرض بما اشتملت..» ثم فصل فقال: «من الجبال والشجر والجن والإنس والبحار... إلخ» إذن فهى منها طبق الأصل، أما قولنا صورة فهى فعلا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ صورة مدمجة مدخلة ـ مبرمجة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فى لوح خاص بها ـ كتاب ـ أو دسك ـ إن جاز لنا التعبير ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا يدل عليه ويؤكده الرواية الأخرى التى رويت لهذا النص وهى منها.

إذن فهى موجودة بداخل طست جهاز حسب عرفنا العلمى الحديث ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ولكن كونها صورة لا يفصلها أو

---

(١) التذكرة للقرطبى: ١/٨٥.

يبعدها عن ارتباطها بالنسخة الأرضية، كما أن الجميع مرتبط بالنسخة الأصل فى «أم الكتاب» ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا الارتباط ورد فى النص إشارات كثيرة تؤكده وتشير إليه، منها أن التعميم الذى جاء فى بداية النص وهو قوله: «وإذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه» جاء فى النص أيضا تخصيص له، أى أنه وإن كانت جميع الدنيا بين ركبتيه، إلا أن الاختصاص المباشر له مربوط بأمرين؛ الأول: أن مباشرة مهمته وتأديتها وإن كانت مرتبطة بالجميع إلا أنها وقتية مرتبطة بجمعية معينة، أى أن هذه النسخة الدنيوية الجمعية الموجودة فى الطست الذى بين ركبتيه، مستنسخ منها صورة خاصة بفئة انقضت آجالهم وارتبطت نهايتها بزمن معين، وهذه الصورة المستنسخة الخاصة بتلك الفئة تؤخذ وتدخل فى لوح آخر خاص بمصروفات هذا الزمن المعين ـ إن جاز لنا التعبير ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا اللوح الخاص بالنسخة الخاصة هو قوله ﷺ: « ..ولوح مكتوب ينظر فيه، لا يلتفت عنه يمينا ولا شمالا ..». والذى يفصله ويجليه ما جاء فى الخبر الآخر: «أن ملك الموت جالس وبين يديه صحيفة يكتب فيها له فى ليلة النصف من شعبان أو ليلة القدر من الأرزاق والآجال ما هو خاص بالعام المقبل من تلك الليلة.. فإذا انقضى عمر ذلك الشخص الذى حان قبض روحه سقطت ورقة من سدرة المنتهى التى فيها اسمه على اسمه الذى فى الصحيفة فعرف أنه قد يفرغ أجله.. إلخ.

إذن فمن حانت منيتهم خلال العام المقبل هم الذين يدخلون فى تلك الصحيفة أو اللوح الذى بين يديه، وعليهم يكون التركيز الشديد وعدم الألتفات عنهم لا يمينا ولا شمالا.. وقوله سقطت ورقة من سدرة المنتهى التى فيها اسمه على اسمه الذى فى الصحيفة التى بين يديه والمرتبطة باللوح الأم الذى بين ركبتيه المرتبط بلوح الدنيا الذى نحن فيه يعطينا حقيقة الترابط بين الاستنساخ الصورى والأصل، فالصورة الأصلية التى فى «أم الكتاب» تموت[1] أولا ومنها تنطلق الإشارة إلى الصورة

(١) تموت مقصود بها «تخرج من دائرة التركيز ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة».

التى فى اللوح الذى بين يدى ملك الموت، ومنها تنطلق إلى الصورة الموجودة مع الملك الموكل بك، والذى هو أيضا من أعوان ملك الموت الرئيسى: ﴿ل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾[1].. ولذلك قول ابن عباس - رضى الله عنهما - فى جمعه فيما ورد من خلاف بين الليلتين: ليلة النصف من شعبان وليلة القدر قوله: «إن الله تعالى يقضى الأقضية فى ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها فى ليلة القدر.. وكل الحالات المشار إليها مدلول عليه من القرآن الكريم وسيأتى بعد هذا بمشيئة الله تعالى بل إن حقيقة ارتباط جميع كل تلك النسخ يؤكده ما جاء فى الخبر السابق «من أن ملك الموت تحت العرش يسقط عليه صحائف من يموت من تحت العرش..». وهذا يؤكد قوله تعالى - السابق - ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[2]وما جاء عنه كما سبق فى الأثر المروى عن جعفر الصادق: «بما معناه.. ما من شىء فى البر ولا فى البحر إلا فى العرش مثال له..»[3].

إذن فالموت يبدأ بالأصل الذى استنسخت منه جميع الصور الأخرى - أى تلك الصور الأصل الموجودة فى «أم الكتاب» وهذا يؤكده أيضا الآيات القرآنية الكثيرة التى أشارت إلى ما سبق أن قلناه آنفاً، والتى أدت لاختلاف كثير من السلف حول قضية التوفى تلك، إذ هناك آيات أشارت إلى أن التوفى يكون مباشرة من قبل الحق جل سناه، وبعضها أشارت إلى أن التوفى من قبل ملك الموت وبعضها أشار إلى أن التوفى من الأعوان، وقد احتد الخلاف وتنوع حول ذلك مما حدا ببعضهم إلى أن توسط وجمع بين كل الآراء وخرج برأى وسط تأمله قد لا يبعد عما قلناه، بل قد يكون مصدرا له، وهنا لابد من أن نورد بعضا مما أشرنا إليه، بل هناك أحاديث كثيرة وردت بنفس ما أشارت إليه دلالات الآيات فمن الآيات:

قال الشيخ القرطبى: «ذكر الله تعالى التوفى فى كتابه مجملا ومفصلا - أ - فقال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وهو الذى أحياكم ثم

---

(١) سورة السجدة آية «١١».
(٢) سورة الحجر آية «٢١».
(٣) جامع أحكام القرطبى جـ١٠
(٤) سورة الزمر آية «٤٢».

يميتكم ثم يحييكم﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾[٢].

قال تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾[٥].

هذا نموذج من تلك الآيات الكثيرة وهو مجمل وقد فصلته السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فى أحاديث كثيرة جدا.. وهذه النماذج الثلاثة من الآيات وتنوعها قد تؤدى كما يقول القرطبى: «لأن يقول قائل: كيف الجمع بين هذه الآيات؟ وكيف يقبض ملك الموت فى زمن كل من يموت فى المشرق والمغرب»؟

هذا ما قاله القرطبى، بل إن هناك إضافة لهذا السؤال وهو: ترى من المباشر لقبض الأرواح هل هو الحق جل سناه أم هو ملك الموت أم هم الملائكة الأعوان؟

يقول القرطبى: إن المتوفى على الحقيقة هو الله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وتارة يضاف ذلك إلى ملك الموت لمباشرته ذلك الأمر.. وتارة يضاف إلى أعوان ملك الموت من الملائكة، لأنهم يتولون ذلك أيضا كما أشارت إلى ذلك الآيات والأحاديث على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وقال الكلبى: يقبض ملك الموت الروح من الجسد، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً.. وهذا المعنى منصوص عليه فى حديث البراء ـ رضى الله تعالى عنه.

---

(١) سورة الملك آية «٢»
(٢) سورة السجدة آية «١١»
(٣) سورة النحل آية «٣٢»
(٤) سورة الأنعام آية «٦١»
(٥) سورة الأنعام آية «٩٣»

وفى الخبر: عن النبى ﷺ «إن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بفلوه وفصيله، ألا هلم.. ويهيب: يدعو. يقال: أهاب الرجل بغنمه أى صاح بها لتقف أو لترجع.. فأخبر صلى الله عليه وسلم: أنه يدعو الأرواح التى يتوفاها الله ويقبضها.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبى ﷺ: أرفق بصاحبى فإنه مؤمن فقال ملك الموت عليه السلام: يا محمد طب نفسا، وقر عينا، فإنى بكل مؤمن رفيق واعلم أن ما من أهل مدر ولا شعر فى بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها.

قال الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى: وفى هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل الأرواح، وأن تصرفه كله بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه.

قال ابن عطية: وروى فى الحديث أن البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت كأنه يعدم حياتها.

قال: وكذلك الأمر فى بنى آدم.. إلا أنه نوع مشرف بتصرف ملك الموت وملائكته معه فى قبض أرواحهم.. فخلق الله ملك الموت، وخلق على يديه قبض الأرواح وانسلالها من الأجسام وإخراجها منه.. وخلق جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره.. فملك الموت يقبض الأرواح والأعوان يعالجون. والله تعالى يزهق الأرواح، وهذا هو الجمع بين الآية والحديث، لكنه لما كان ملك الموت متوليا ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفى إليه كما أضيف الخلق للملك... إلخ[1].

لمحة سريعة عن عملية الموت والبرمجة

إذن فالنصوص تشير إلى أن المتوفى الحقيقى هو الحق جل سناه. وذلك بإزهاق الروح فماذا يعنى إزهاق الروح؟ أو بمعنى أوضح: ما الذى يعنيه الموت؟ والله تعالى

(١) بتصرف واختصار شديد من كتاب التذكرة للشيخ القرطبى من ٧٩ ـ ١/٨٩.

أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وبالعودة إلى النصوص السابقة نجد أن عملية الموت تبدأ بإزهاق الحق جل سناه للروح فماذا تقول لغة القرآن الكريم عن معنى الإزهاق وبالرجوع لأقرب مرجع لهذه اللغة نراها تقول - المادة طويلة نأخذ منها ما يخصنا.

«زهق العظم - كمنع - زهوقا - اكتزُ مخُه، كأزهق والمخ اكتز.. والباطل اضمحل.. والسهم جاوز الهدف.. ونفسه خرجت... والشىء بطل وهلك فهو زاهق».

والزاهق: اليابس.

والزهالق: السراج مادام فى القنديل.

والزهمقة: زهومة رائحة الجسد من صُنان أو نتن(١).

إذن فالزهق: تشير مادته لدلالات كثيرة، ولكننا سنتوقف عند بعض منها: كاكتزاز المخ عموما، ومخ العظم خصوصا. وتوقف الشىء وتلاشيه، واليبوسة وتوقد شىء فى شىء، فإذا خرج منه أدى خروجه لنتانة ما كان فيه - رائحة الجسد - هذه هى أهم معانى الزهق: وقبل أن نتدخل مع بعض هذه المعانى يستحسن أن نقف عند كلمة ارتبطت دلالاتها بدلالة الإزهاق، وكأن معناها لا يكتمل إيضاحه إلا بها، وهو «الكزّ» الذى جاء مع بداية معنى المادة «زهق»، فما هى أهم دلالات معانى «مادة الكزازة».

يقول صاحب القاموس: «الكزازة، والكزوزة بالضم: اليُبْس والانقباض... وكزّ الشىء ضيق خطاه تقاربت وقوس كّز: أى فى عودها يُبسٌ عن الانعطاف.. وذهب كزة أى صلب جدا.. واكتزّ تقبّض.. كعز كمنع: أى جمع الشىء بأصابعه.. كلزه.. يكلزه: جمعه.

واكلاز انقبض: أو هو انقباض فى خفاء»(٢).

هذه هى أهم معانى «الكزّ» ونلاحظ أن الارتباط قوياً بين مادة الإزهاق والكزّ، فاليبس والانقباض والتلاشى والتوقف والجميع هى قواسم مشتركة بين المادتين وما

(١) القاموس المحيط: ٣/٢٤٣.
(٢) القاموس المحيط: ٢/١٨٩.

يتفرع عنهما من دلالات ومعان، ومن هنا ندرك أن إزهاق الأرواح يعنى إيقاف الدورة الحيوية المتحركة داخل الأجساد وذلك لورود الدلالات اللغوية الدالة على هذا المعنى، فالانقباض واليبس يعنى التوقف. أى توقف الطاقة الحرارية المتحركة داخل تلك الأجساد، وذلك لأن دلالات الإزهاق «يعنى السراج مادام فى القنديل» وإشارة السراج والقنديل هى خير إشارة لغوية تدلنا على هذه الإشارة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالسراج يعنى الطاقة الحرارية المشتعلة داخل القنديل. إذن فالسراج إشارة إلى الروح، والقنديل هو إشارة إلى الجسد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فإذا انطفأت تلك الشعلة - الروح - فى القنديل - الجسد بقى فارغا صلبا يابسا عن الليونة والرطوبة التى كانت بداخله تميله يمينا وشمالاً بدليل قولهم «قوس كز» أى فى عودها يبس وصلابة عن الانعطاف.. فإذا أزهقت تلك الحرارة - الروح - بإيقافها وقبضها ونزعها، نتن الوعاء الذى كان يحويها، وهذا ما يحصل للأجساد بعد خروج الأرواح - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فالإيقاف، بناء على ما ورد من نصوص شرعية ولغوية - كما سبق - يكون من قبل الحق جل سناه، وعندما يتم هذا الإيقاف وعندما يأتى دور ملك الموت - الرئيس العام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو دور ذو مهمتين رئيسيتين الأولى منهما تبدأ بعد الإيقاف مباشرة، وهى مهمة اختصاصية تجليها لنا بعض من الإشارات التى وردت ضمن النصوص السابقة الذكر منها تلك الإشارة التى نص عليها القرطبى فى التذكرة وهى قوله: «..وفى الخبر عن النبى ﷺ: أن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بفلوِّه أو فصيله ألا هلم..».

ويهيب: أى يدعو.. يقال: أهاب الرجل بغنمه: أى صاح بها لتقف.. ولترجع.

فأخبر النبى ﷺ: أنه أى ملك الموت - يدعو الأرواح التى يتوفاها الله تعالى ويقبضها - أى ملك الموت نفسه - يقوم بقبضها» وهذه هى الإشارة، وفيها الإشارة إلى مهمتى ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - جميعها.

فالأولى: أنه عليه الصلاة والسلام يقوم بدعوة جزئيات ذلك الوقود الروحانى ـ الروح ـ المنتشر فى جميع الأعضاء الرئيسية المُشَكِّلة بمجموعها الجسد الإنسانى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ يدعوها لتقف عن أداء مهمتها، وترجع إلى مكان المغذى الرئيسى لها فى عجب الذنب ـ كما ستأتى الإشارة إليه هنا بإشارة سريعة وفى بابها الأساسى التالى لهذا الباب وما بعده بإذن الله تعالى ـ بعد أن تم فصلها ـ إزهاقها ـ عنه وهنا تأتى المهمة الأولى للأعوان وهى جمع تلك الجزيئات الموقوفة المدعوة للخروج أى سحبها من أماكنها التى كانت فيها لتشغيلها ـ أى بعث الحركة والحياة فيها ـ بعد أن توقفت، لتأتى المهمة الثانية لملك الموت ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهى قوله ﷺ فى الإشارة السابقة «يدعو الأرواح لتقف وترجع.. ويقبضها» فقوله صلى الله عليه وسلم يقبضها، هى المهمة الثانية لملك الموت عليه الصلاة والسلام.. أنه بعد أن يقوم الأعوان بسحب تلك الجزيئات المنتشرة فى الجسد المركب المترابط يقوم هو باستلامها منهم، بعد أن هيأها لهم بإهابتها وفصلها من أماكنها التى كانت بها، كما ورد فى الخبر «أنه ينزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى، وملك يجذبها من قدمه اليسرى، وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى، ذكره أبوماجد... وقال أيضا وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع والنفس تنسل انسلال القذاة من السفا.. هكذا ذكر صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام وقال: فإذا احتضرت نفسه إلى القلب مات لسانه عن النطق فما أحد ينطق. والنفس مجموعة فى صدره لسرين: أحدهما: أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه... وأما السر الآخر فلأن الذى فيه حركة الصوت المتدفقة من الحرارة الغريزية فصار نفسه متغير الحالتين، حال الارتفاع والبرودة لأنه فقد الحرارة[1] إذن فالأعوان يقومون بجذب وجمع جزيئات تلك الطاقة الحرارية ـ الروح ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ التى تم تفكيكها فى داخل الجسد، والتى

(١) التذكرة للقرطبى: ٨٣ ـ ١/٨٤.

بتفكيكها توقفت الحركة الحيوية فى ذلك الجسد.. وقولنا الطاقة الحرارية للروح، فلقوله «فقد الحرارة». وهذا يدلنا على أن هذه الروح المتحركة فى هذا الجسد، هى طاقة ولكنها مجهولة القانون بالنسبة لنا فى الدنيا «قل الروح من أمر ربى» ولكنها فى داخل الجسد، هى محكومة بقانون الجسد، من حيث تحريكها لأعضائه بوجودها فيها، فإذا سحبت منه بعد تفكيكها منه تيبس وتصلب وفقد الحركة والحياة.. وإذا أردنا أن نستأنس ذلك علميا فسنجد أن علماء الطبيعة الكونية يقولون: «..إن عالم الأحياء على كوكب الأرض هو بحق عالم الكربون.. والحياة فى هذه الدنيا أو النشأة الأولى هى حياة كربونية نشأت بتماسك ذرات الكربون.. ومحتم أن تنتهى بتفكك تلك الذرات.. فمن طبيعة النشأة الأولى فى الحياة الدنيا ظاهرتان: ظاهرة البناء وظاهرة الهدم مع دورة قوى الطاقة بين هاتين الظاهرتين.. ففى البناء تختزن الطاقة أما فى الهدم فتنطلق... إلخ»(1).

إذن فالعلم الحديث يجلى لنا تلك الإشارات، فالحياة الأرضية هى عنصرية الكربون، نشأت بتماسك ذراته، وانتهائها يتم بتفكيك تلك الذرات؟ ـ وهنا قد تسأل ما الذى يربط تلك الذرات أو الجزيئات ويمسك بعضها ببعض لتنشأ على أثر هذا التماسك الحياة الدنيوية.

يقول أهل العلم ـ كما رأينا: «..إن بين ظاهرتى البناء ـ الحياة ـ والهدم ـ الموت ـ دورة قوى الطاقة ـ إذن فالطاقة ـ الروح بدورتها بين هذه الذرات وتحريكها لها، تكون الحياة بإذن الله تعالى، ولذلك قالوا «ففى البناء تختزن الطاقة، يعنى أن البناء لا يكون إلا إذا وجدت تلك الطاقة بين ذراته ودارت بعكس الهدم ـ الموت ـ فإنه يعنى أن تلك الذرات قد تفككت عن بعضها البعض أى أن الطاقة التى كانت مختزنة بتلك الذرات ورابطة لها قد انطلقت ـ سحبت ـ منها فتفككت فانهدم البنيان ومات «وذلك أن لكل جزئ منها شحنته الكهربائية، وبسبب تلك الشحنات يمكن لتلك الجزيئات أن تتلاصق، وبخلوها منها ـ الطاقة ـ تتنافر بعيدا عن بعضها»(2).

---

(1) التطور وأصل الإنسان لمحمد فوزى جاب آدم: صـ87.

(2) المرجع السابق صـ121.

وهذا الإيضاح العلمى، هو ما أو جزته وأجملته تلك الإشارت الدينية بقولها: «لأنه فقد الحرارة».

إذن فالإنسان الحقيقى هو تلك الطاقة الحرارية الروحانية، المتجمعة والمتحيزة بداخل هذا الجسد المادى، فإذا فككت منه وسحبت انتهى أمر هذا الجسد ومات، وإذا تجمعت بداخله حيا وقام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأظن أن هذه الإشارة توضح لنا بعضا من المهمة الثانية لملك الموت، وهى قبضه للروح بعد أن يقوم الأعوان بجمع أجزائها وسحبها من الجسد، فقبضه لها يعنى جمعه لها لتصبح بذلك الجمع والربط - القبض - إنسانا كما كان ولكنه بقانون آخر وبخصائص هى أقرب إلى ما هى ذاهبة إليه - قانون الآخرة - القيامة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهذا المعنى يلتقى مع نفس ما أشار به الشيخ أبو حامد فى كتاب كشف علوم الآخرة حينما قال:«فإذا قبض الملك النفس السعيدة، تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة، ولهما رائحة طيبة، فيلفونها فى حرير من حرير الجنة، وهى على قدر النحلة، شخص إنسانى، ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب له فى دار الدنيا، فيعرجون بها فى الهواء فلا يزال يمر بالأمم السالفة والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى ينتهى إلى سماء الدنيا... إلخ».

وأما الكافر فتؤخذ نفسه عنفا، فإذا وجهه كأكل الحنظل والملك يقول:أخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له صراخ أعظم ما يكون لصراخ الحمير. فإذا قبضها عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه، سود الثياب منتنى الرائحة، بأيديهم مسوح من شعر، فيلفونها فيستحيل شخصا إنسانيا على قدر الجرادة، فإن الكافر أعظم جرما من المؤمن، يعنى فى الجسم فى الآخرة وفى الصحيح إن ضرس الكافر فى النار، مثل أحد... إلخ.

هذا ما أوجزناه من كتاب كشف علوم الآخرة، وفيه ترى أبا حامد الغزالى مع ما سبق وأشرنا به، وهو أن تلك الجزيئات بعد أن تُسحب يقبضها منهم عزرائيل عليه

الصلاة والسلام ويعيد تسليمها مرة ثانية لأعوانه الذين يقومون بلفها ـ وضعها ـ فيما يمكن لها أن تتحيز فيه لتصبح بتحيزها هذا إنساناً كاملا، لكن النص كان دقيقا فى ألفاظه، إذ هو يقول: وبأيديهم إما حرير من حرير الجنة بالنسبة للمؤمن وإما مسوح من شعر بالنسبة للكافر فيلفونها فيه «أى يجعلون الروح فيه» فتستحيل شخصا إنسانيا، فانظر معى إلى لفظ فتستحيل، أى أن تلك الجزيئات الحرارية ـ الروحانية ـ الطاقة ـ تتحول فيما تحيزت فيه إلى جسد بداخله روح مجموعهما يصبح مثالاً إنسانيا، وبالرغم أن النص يقول: شخصا إنسانيا فإنه لم يقل: شخصا إنسانيا كما كان فى الدنيا، أى جسما ماديا إنسانيا، بل نراه يقول: «ما فقد من عقله وعلمه المكتسب له فى دار الدنيا».

إذن فالنص يشير إلى شيئين رئيسيين يستبعدان أن يكون هذا المثال الإنسانى الروحانى كما كان فى الدنيا، فهو يقول ما فقد من عقله ولا من علمه، ومعلوم أن العقل كما تقول اللغة العربية وأهل الفكر الإسلامى ـ كما سيأتى فى مكانه بمشيئة الله تعالى ـ هو شئ نورانى ـ أى طاقة ـ وكذلك العلم هو من عالم المعانى، والمعانى هى أشياء من جنس طبيعة العقل، إذن فهذا المثال الإنسانى، قد أصبح بعد سحب جزيئاته وقبضها من قبل ملك الموت عليه الصلاة والسلام ـ بيده يكون قد أهلها بهذا القبض لتستحيل إلى هذا التجسد الذى يمثل صاحبه تماما، أى أنه زيد الذى كان فى الدنيا، ولكنه بصفة وخصائص طبيعية تختلف عن صفاته وخصائصه الدنيوية، إذ هى صفات خصائص تحمل صفات وخصائص عالم البرزخ، وهو قانون روحانى ـ الطاقة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أقرب فى صفاته وخصائصه إلى قانون المستقر الأخير ـ الآخرة ـ والله تعالى أعلم.

ومن هذا كله نصل بتوفيق الله تعالى وفضله، إلى أن عملية الموت ليست هى عدم محض، بل هى كما أشارت النصوص الدينية، عملية انتقال وتحول من حالة إلى أخرى، من دار إلى دار أخرى ذات خصائص وصفات تختلف عن سابقتها.. وهذه العملية الانتقالية، أمرها كائن بين التركيب والتفكيك، إذ بتركيب الجزيئات التى

بمجموعها تكون شخصا إنسانيا، يكون هذا الإنسان، وبتفكيكها يضمحل البنيان الإنسانى ويهلك، وهذا يؤكده كل ما سبق، وبوجه أخص قضية عجب الذنب، الذى منه خلق الإنسان ومنه يعاد تركيبه كما فى الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام.. ولكن كما رأينا أن هذا التركيب لا يتم بنيانه وتحركه إلا بوجود الرابط الذى يربط بين جميع كل تلك الجزيئات ويمسك بعضها إلى بعض وأن ذلك الرابط هو تلك الطاقة الحرارية ـ الروح ـ المشحونة بها تلك الجزيئات، فإذا انتظمت دورة تلك الطاقة الحرارية بين هذه الجزيئات، كانت الحياة فيها وإذا أوقفت دورة تلك الشحنة الحرارية عن بعض. توقفت الحياة ولا تعود إلا إذا جمعت جزيئاتها وانتظمت دورتها من جديد فى أى شىء تستطيع أن تتحيز ـ بأمر الله تعالى وعونه ـ ولذلك رأينا أنها بمجرد لفها فى حرير من الجنة أو فى المسوح التى من الشعر بالنسبة للكافر، استحالت بتحيزها فيه وعاد انتظام دورتها فى ذلك من جديد فإذا بها شخص إنسانى، ولكن إشارة حرير الجنة ومسوح النار ـ أجارنا الله تعالى من ذلك ـ تعطينا حقيقة الطبيعة التى تحولت إليها، وهى الطبيعة النورانية وهذه الطبيعة النورانية، قد تفسر وتجلى لنا قول الرسول ﷺ: «أن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بفلوّه أو فصيله ألا هلم».. يهيب: يدعو .. يقال أهاب الرجل بغنمه أى صاح بها لتقف أو لترجع.

فهذا النص الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قد يجلى حقيقة تلك السرعة الرهيبة فى عملية الموت، وسهولة تلك العملية فى التفكيك والتركيب، فملك الموت عليه الصلاة والسلام يصيح بتلك الطاقة الحرارية ـ الروح بنداء خاص فتقف فورا، فإذا وقفت تفككت، وتستجيب سريعا للخروج، فتخرج، أى أن تلك الطاقة الحرارية مشفرة بشفرة خاصة بهذا الأمر مع ملك الموت ـ عليه الصلاة والسلام ـ الموكل بها، وهذه الإشارة تعطينا دلالة لفظ. يهيب فهو كما تراه لفظ يحمل فى دلالته معنى الإيقاف والرجوع، فهى تقف لتتفكك وترجع إلى الموكل بها، الذى يجمعها ـ بأمر الله تعالى وتوفيقه ـ من جديد وبخصائص قانون آخر غير ما كانت عليه ـ والله

تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وسوف يأتى تفصيل أكثر لهذه الإشارة عند الحديث عن قضية القلب وعجب الذنب والجزيئات الرئيسية والفرعية والنداء بمشيئة الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فالتشفير والبرمجة قد توضح لنا قضايا كثيرة من قضايا الإعجاز القرآنى والحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام حول إشارات الخلق والبعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فمثلا هذه الإشارة الواردة فى إجابة عزرائيل عليه الصلاة والسلام على سؤال رسول الله ﷺ «يا ملك الموت كيف تقدرعلى قبض جميع أرواح من فى الأرض برها وبحرها. فقال: ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى وجميع الخلائق بين عينى ويداى تبلغان المشرق والمغرب..» فقوله: «ويداى تبلغان المشرق والمغرب» ألا يعطينا رمزا لمثل هذا التشفير والبرمجة - إن جاز لنا مثل هذا التعبير الاصطلاحى حسب مفهوم العصر العلمى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالطست الذى جمعت فيه الدنيا بين ركبتيه - الجهاز - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - واللوح الآخر الذى فى يده لا يلتفت عنه، وفيه يسقط الاسم المراد قبضه من فوق سدرة المنتهى، ترى كيف يكون سقوطه - والله تعالى أعلم - فى اللوح الذى بين يديه.. ثم إن الأمر كله طاقة فى طاقة. فملك الموت - عليه الصلاة والسلام نورانى، وكذلك ذلك اللوح. ثم إن الشىء المراد قبضه - الروح - هو أيضا أمر نورانى، فلم لا يكون إيقافها - أى الروح - عن طبيعة عملها وقبضها بشفرة فى لوح عنده عليه الصلاة والسلام - من ضمن الألواح الموجودة معه فهى - الروح - فى أى مكان كانت فهى فى متناول يده - عليه الصلاة والسلام - إذن فقوله «ويداى تبلغان المشرق والمغرب»، فيه إشارة من مثل ذلك إن صح هذا التعبير التجاوزى لاسيما وقد ورد - إن صح - فى خبر آحادى رواه أبونعيم، فيه أن لملك الموت - عليه الصلاة والسلام - حربة يطعن بها الأرواح لتخرج، قال أبونعيم الحافظ: «قال: حدثنا أحمد بن عبد الله

بن محمود قال: حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا نور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال: إن لملك الموت عليه الصلاة والسلام حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب فإذا انقضى أجل عبد من الدنيا ضرب رأسه بتلك الحربة وقال: الآن يزار بك عسكر الأموات»[1].

إذن فهذا الخبر الآحادى إن صح، قد يفسر لنا قول ملك الموت عليه الصلاة والسلام «ويداى تبلغان المشرق والمغرب» فهو ـ الخبر ـ يفسر لنا أن ذلك البلوغ يكون عن طريق تلك الحربة الطويلة، وهذه الحربة قد ورد أيضا عن أبى النعيم الحافظ والقرطبى إن صح ذلك عنهما ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أنها حربة من نور، وهذه الدلالة النورانية قد يؤكدها ويسندها طبيعة ملك الموت عليه الصلاة والسلام ـ النورانية ـ وكون الأمر المقبوض ـ الروح ـ نورانى إذن فواسطة القبض تكون من نفس طبيعة القابض والمقبوض ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ النورانيان، إذن فهى نورانية. إذن فالرواية هى بذلك أقرب إلى الصحة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إذن فإيقاف تلك الشحنة الحرارية ـ الروح ـ المتحركة داخل الجسد، يكون بإيقاف شفرتها المشفرة عنده عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك اللوح الخاص بذلك كما سبق ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ قال: «من هنا تختلف أحوال الموتى، فمنهم من يطعنه الملك حينئذ بحربة مسمومة قد سقيت سما من نار فتفر الروح، وتفيض خارجة، فيأخذها الملك وهى ترعد أشبه شىء بالزئبق على قدر الجرادة شخصا إنسانيا، ثم يناولها الزبانية.. ومن الموتى من تجذب نفسه رويداً حتى تتحصر فى الحنجرة، وليس يبقى فى الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب، فحينئذ يطعنها بتلك الحربة الموصوفة..»[2].

(١) التذكرة للقرطبى: ١/٨٤.

(٢) المرجع السابق.

إذن فالتشفير البرمجى الآلى، لا يستبعد فى ذلك - إن صح وجاز لنا التعبير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سواء كان ذلك رقميا - زيادة ونقصاً «يكتب عمره كذا سنة، دقيقة، ثانية، طرديا، ثم أسفله، أو فى شريحة أخرى، تشفير برمجى عكسى، ينقص كذا ثانية، دقيقة، ساعة، يوم، شهر، سنة، إلخ.... أو تلك الإشارة الأخرى، لما قد يسمونه اليوم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولا مشابهة - ببرمجة مذكرات الملخصات، ومذكرات التفسيرات والشروح، والتوضيح والتعليق، وهو قولهم السابق: «...قيل إن الله تعالى كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع... وتسعين سنة إن عصى..» فأيهما بلغ فهو كتاب..... أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ عمر فلأن كذا سنة..، فإن وصل رحمه زيد فى عمره كذا سنة... فبين ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه.. أو لا يصل رحمه... كما سبق فى تفسير القرطبى... وهناك أيضاً - برمجة وتشفير صور كل شىء فى الكون - كما سبق إيراد ذلك وما سيأتى بإذن الله تعالى - بعمومها،...ثم الألواح المختصة بكل شىء بمفرده والمرتبطة بالعموم ثم إشارة ارتباط كل ذلك عمومه وخصوصه بالأصل والأم (أم الكتاب) - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وفى تلك الأخبار نجد الكثير والكثير... فقد رأينا أن كل كتاب وما فيه له ملك مختص بمتابعة كل ما فيه وتنفيذه،... وكيف أنه يبرمج لكل ملك فى كتابه ما يخصه خلال العام الجديد،... وكيف أن ما كان فى كتبهم - أجهزتهم إن صح التعبير، والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - من اختصاصات العام المنصرف يُمّحَى ليُدَوَّن مكانه ما يخص العام الجديد ليتحقق قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ (الرعد).

وما دنيانا إلاّ نسخة مما هناك وقد جعل الحق جل سناه لنا فيها من الأمور، ما قد يرشدنا ويدلنا على ما هناك من حقائق هى أعظم وأسمى من ذلك، ولكن للعلم والأسترشاد... أو لا يوجد فى دنيانا اليوم من أجهزة الكمبيوترات المركزية وما يرتبط بها من أجهزة فروع، ما قد يقرّب لنا الصورة - بأمر الله تعالى - أليس كذلك؟؟

إذن نكون بهـذا التـوضـيـح السـردى الموجـز والسـريع أيضـا ـ نجـد الإشـارات المختلفة، المتنوعـة، والمتخصصـة فى جميع بقية آيات المحاور المختلفة، كآيات المحور الرابع، والـذى سـوف نورد بعض النمـاذج لآياته، وبدون أن ندخل فى أى تفـصـيـلات لهـا، وإن كـان فـيـهـا من الإشـارات التى لم ترد فى سـابقـاتهـا، ولكن طلبـا للإيجـاز والاختصـار ـ والله سبحانه هو الموفق وحده سبحانه.

مع آيـات من آيات المحور الرابـع

وهو الكتــاب المبيـن

فمن آيات هذا المحور:

١ ـ قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ فى كتاب مبين﴾(١).

٢ ـ قال تعالى: ﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾(٢).

٣ ـ قال تعالى: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾(٣).

٤ ـ قال تعالى: ﴿وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين﴾(٤).

٥ ـ قال تعالى: ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام: آية «٥٩».

(٢) سورة يونس: آية «٦١».

(٣) سورة هود: آية «٦».

(٤) سورة النمل: آية «٧٥».

(٥) سورة الأنعام: آية «٣٨».

٦ ـ قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[١].

٧ ـ قال تعالى: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم﴾[٢].

٨ ـ قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم..﴾[٣].

٩ ـ قال تعالى: ﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا﴾[٤].

١٠ ـ قال تعالى: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا﴾[٥].

هذه بعض آيات من آيات هذا المحور، وهى كثيرة جدا، ولكننا اكتفينا بما سطرناه طلبا للاختصار.. ونحن إن وقفنا وقفة سريعة عند بعضها، كإشارة توضيحية، وتأكيدا لما سبق أن قلناه، فمثلا آية الأنعام الأولى، ترى أنها تشير إلى حقائق ودقائق عظيمة جداً، فكل صغيرة مهما دقت، وكل كبيرة مهما كبرت فى هذا الكون إلا وهى لا تخرج عن علمه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنها مخزنة مدونة عنده فى كتاب مبين. ومثلها آية يونس وكل الآيات. بل هناك إشارات وإشارات لا تعد ولا تحصى، فمثلا لو نحن وقفنا عند مسمى أى يوم من أيام الأسبوع، ونظرنا لما قد يدور فى ثانية من ثوانى دقيقة من دقائق ساعة من ساعاته الأربع والعشرين، فماذا نحن واجدون فى تلك الثانية، من مواليد لأناس ووفاة لآخرين، من أحداث خير أو شر يمر بها الكثيرون، دعك لما سيقع مثل ذلك فى الثانية التى تليها. فمثلا لو

(١) سورة الأنفال: آية «٦٨».

(٢) سورة الأنفال: آية «٧٥».

(٣) سورة التوبة: آية «٣٦».

(٤) سورة الإسراء: آية «٤».

(٥) سورة الإسراء: آية «٥٨».

أخذنا ثانية الدقيقة الأولى من الساعة الأولى ليوم الأربعاء من شهر محرم سنة أربعمائة وألف للهجرة وأخذنا السجل الإحصائى من مستشفى واحد فى مدينة واحدة، فماذا سنجد فيه قد أرصد من وفيات ومواليد، وذهبنا أيضا لمنزل واحد من منازل تلك المدينة وحاولنا أن نرصد ما جرى فى هذا المنزل من أمور خير وشر وغير ذلك من قتل أو مرض، فهل يا ترى سنجد كل هذا الذى حدث فى هذه الثانية من هذا اليوم الأربعاء سنة ١٤٠٠هـ هو نفسه سيحدث فى يوم الأربعاء من نفس الأسبوع التالى له من نفس هذا الشهر المحرم، أظن أن من يقول بمثل ذلك يكون قد فقد عقله، فإذا كان ذلك فى ثانية من ثوانى دقيقة من ساعة من ساعات يوم من أيام أسبوع، من شهر من سنة، فما بالك بما دار وسوف يدور فى كل يوم يسمى بيوم الأربعاء عبر الدهور والأزمان؟ أفلا يعطينا ذلك إشارات وإشارات مهمة جدا جدا، قد تثبت وتؤكد ما سبق أن قلناه - بتوفيق الله تعالى وفضله؟ - أفلا يعطينا هذا أن ذلك اليوم أو الأسبوع أو الشهر أو السنة أو الدقيقة، ما هو إلا رقيقة أو شريحة أو ديسك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قد شُفّر ويُبرمج مما سيقع فيها ما لم يُشفّر ويُبرمّج فى أى يوم مثله مسماه من أيام الزمن؟؟ بل هناك من أحاديث الرسول ﷺ وما يؤكد أن كل يوم من الزمن هو يوم وخلق جديد يختلف عن سابقه بكل ما فيه، وإن اتفق مسمى اليوم نفسه مع مثله إلا أنه غيره، فقد روى: عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله تعالى عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيئاتها.. ويبعث يوم الجمعة: زهراء منيرة، أهلها محتفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها تضىء لهم يمشون فى ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضا، وريحهم يسطع كالسمك يخوضون فى جبال الكافور، ينظر إليهم الثقلان ما يطرقون تعجبا، يدخلون الجنة لا يخالطهم إلا المؤذنون المحتسبون»[1] خرجه القاضى الشريف أبوالحسن على بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمى العيسوى من ولد عيسى ابن على بن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى

(١) التذكرة للقرطبى: ١/٢٢١

عنهم، وإسناده صحيح وقال أبو عمران الجونى: «ما من ليلة تأتى إلا تنادى: اعملوا فىَّ ما استطعتم من خير، فلن أرجع إليكم إلى يوم القيامة» ذكره أبونعيم.

وذكر أبونعيم عن معاوية بن قرة بن معّقل بن يسار عن النبى ﷺ قال: «ليس من يوم يأتى إلى ابن آدم إلا ينادى فيه: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد فاعمل فىَّ خيرا اشهد لك به غدا، فإنى لو قد مضيت لم ترنى أبداً ويقول الليل مثل ذلك..» غريب من حديث معاوية تفرد به زيد العمىّ، ولا أعلمه مرفوعا عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد..»[1].

إذن فكل يوم هو خلق جديد غير اليوم الذى مثل مسماه وكذلك كل ليلة أو ليل يأتى هو غير سابقه الذى هو مثله مسمى «أنا خلق جديد.. فإنى لو قد مضيت لم ترنى، ولن أرجع أبداً إلى يوم القيامة وحين أبعث لأفرغ وأعلن ما قد ادخل وحفظ فى»، ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[2].

إذن فاليوم أو الثانية أو الدقيقة منه، هو ظرف ووعاء لما وضع فيه وحفظ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم فى النص شاهد آخر، وهو قوله: «تبعث الأيام على هيئاتها.. زهراء منيرة.. تضىء لهم.. يمشون فى ضوئها.. ألوانهم كالثلج بياضا...» هذه النقاط ألا تؤكد لنا حقائق كثيرة جدا، منها ما نحن بصدده، وهو أن كل شىء يتحول ويؤول إلى أصله الذى كان عليه وعاد إليه وهو الطاقة، وما دام أن هذا اليوم هو أصلا طاقة، وتضىء لأصحابها، وما دامت كذلك أفلا يشير ذلك إلى قضية كون هذا اليوم ديسك - يدخل ويشفر فيه كل ما يعمل فيه بعد أن أفرغ منه ما كان من تشفير، مواليد ووفيات وأعمال كان زمنها دنيويا، ثم أعيد تشفير وإدخال ما يحدث فى وقته وزمنه الخاص به، وبعد ذلك يختم ويرفع ويدخل فى مكانه فى أم الكتاب ويحفظ إلى حين يطلب وهو يوم القيامة، ولذلك قال ﷺ: «يبعث الله عز وجل الأيام يوم القيامة...» وهذا يؤكده ما جاء حول صحف الأعمال وكتابتها والخزنة،

---

(١) المرجع السابق ١/٢٢٨.

(٢) الجاثية آية «٢٩»..

والحفظة الذين يأتون من صلاة الصبح، إلى صلاة العصر فيأتى ملائكة غيرهم يسجلون على ابن آدم إلى صلاة الصبح، وسوف تأتى إشارات كثيرة إلى ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فكل شىء فى هذا الكون مشفر ومبرمج محفوظ فى كتب - رقائق وشرائح - مدونة ومثبوتة فى أم الكتاب، والكتاب الأم والأصل لكل الكتب الرقائق والأدساك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وما تفرع عنه، واذكر أننى قد سبق أن أوردت نصا للشيخ ابن عربى يشير إلى مثل ما قلناه من كتب هذه المحاور وما تفرع عنه من عموم وخصوص.. ولا بأس من إعادة شىء منه للتوضيح ليكون ما ذهبنا إليه أوضح وأرسخ - بعون الله تعالى وتوفيقه - وأيضا فإن ما سنعيده - بإذن الله تعالى - من قول ابن عربى - إنما هو إشارة توضيحية قالها حول آية الأنعام رقم (٥٩) وهى إحدى آيات المحور الرابع الآنف الذكر.. يقول الشيخ ابن عربى حول قوله تعالى:﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر﴾.

قال: أعلم أن الغيب مراتب:

أولا: غيب الغيوب: وهو علم الله المسمى بالعناية الأولى.

ثانيا: غيب عالم الأرواح: وهو انتقاش صور كل ما وجد وسيوجد من الأزل والأبد فى العالم الأول العقلى، الذى هو روح العالم المسمى «بأم الكتاب» على وجه كلى وهو القضاء السابق.

ثالثاً: غيب عالم القلوب: وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلا تفصيلا علميا كليا وجزئيا فى عالم النفس الكلية، التى هى قلب العالم المسمى «باللوح المحفوظ».

رابعاً: غيب عالم الخيال: وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة فى أجرامها معينة مشخصة، مقارنة لأوقاتها على ما يقع بعينه وذلك العالم: هو المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا ولذا هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة.

خامساً: لوح القدر الإلهى: الذى هو تفضيل قضائه، وعلم الله، وهو العناية الأولى عبارة عن إحاطته بكل هذه العوالم.. فيعلمها مع جميع صورها التى فيها بأعيانها ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض﴾.

الكتاب المبين: وهو السماء الدنيا لتعين هذه الجزيئات فيها مع عددها وتشخصها»[1].

هذا موجز لبعض ما لخصه الشيخ ابن عربى لقضايا «لفظة» غيب، وكتاب، ونلاحظ أنها تبدأ بالعلم الأول، وهو علم الله تعالى، الذى انتسخ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - منه النسخ الكلى أى الصور الكلية الكاملة لكل ما سيوجد، وهو أصول الأشياء ولكنها بشكل كلى، وبنورانية خاصة ثم انتسخ منه لوح آخر وبنورانية خاصة - أيضا - اتصاله مباشرة «بأم الكتاب» المرتبط بعلم الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مباشرة وهو نسخة مطابقة لما فى «أم الكتاب» ولكنه بشكل مفصل تفصيلا علميا كليا وجزئيا، أى أن كل كائن هو موجود فى هذا اللوح - الشريحة - والله تعالى أعلم - بشكله الكامل المفصل وبشكله المُجزء تجزيئاً دقيقاً لكل حقائقه ودقائقه المختصة بهذا الكائن من أجزاء وعمل ورزق.. إلخ. مع ملاحظة أن كل ما فى هذا اللوح من موجود إنما هو وجود حركى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم انتسخ من هذا اللوح، لوح آخر، هو بعينه اللوح الأول، وكل ما فى هذا اللوح هو موجود فى نفس اللوح المستتسخ منه بعينه كاملاً ومجزأ، ولكنه بنورانية وطبيعة خاصة تختلف عن اللوح الذى استنسخ منه، وأظن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - هو اللوح المعبر عنه بالسماء الدنيا، الكتاب المبين، وهو كتاب خزائن الأشياء المنزلة إلى الأرض - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهكذا.. وهذا الملخص عن ابن عربى، يجعلنا نقف بحق عندها، نقف عندها لما فيها من إشارات علمية بحتة، دقيقة، تعتبر بحق الأسس والأصول والرموز لوضع

(١) تفسير ابن عربى: ٣٧٣ - ٢/٣٧٤ اختصار.

واكتشاف لهذه الحاسبات الآلية وعلومها وحقائقها قبل عشرات القرون، لنعلم مدى إبعادنا عن علومنا وتراثنا العلمى والفكرى، واستفادة من أبعدنا عنها وشوهها فى نظرنا ورسمها لنا فى صورة تنفر العالم اللبيب، قبل طلاب العلم المبتدئين.. وهذه الإشارات العلمية من ابن عربى تجعلنا نضع فصلا جديداً فى بحثنا هذا يجمع بعضا من مثل هذه الإشارات وغيرها الواردة عنه.. فما هو هذا الفصل يا ترى؟

الفصل الثالث

إشارات أم الكتاب بين فكر ابن عربى وعلوم الحاسوب

فى هذا الفصل سوف نمضى مع إشارات ابن عربى المتفرقة والمتشتتة فى ما وجد من بعض كتبه . وقد حاولنا أن نجمع منها ما يتيسر لوضع هذا الفصل بعون الله تعالى كمقدمة لما سبق ولما سيأتى بعدها الكثير ولاسيما كتابه الضخم «الفتوح المكية» وتفسيره أيضا، وسنلاحظ أن ابن عربى يتحدث عن «أم الكتاب» وما يتفرع منه وعنه من نسخ وشرائح ورقائق، ثم عن بعض مهمات هذا الكتاب الأم وما يتفرع عنه علميا وعمليا فى قضايا هذا الكون، وما يوجد به من خلق وخليقة، وعما بين هذه الخلائق والخليقة وهذه الكتب العمومية منها والخصوصية من اتصالات وارتباطات وثيقة، ثم عن اتصالها وارتباطها جميعا بالكتاب الأم، وكون الكل جميعا بين يدى الرحمن يفعل بها ما يشاء ويريد حسب ما تقتضيه حكمته وإرادته سبحانه وتعالى.

يبدأ ابن عربى حديثه بهذه البداية والتى ربما قد تصلح لأن تكون أساسا لما جدّ فى عصرنا من علوم الحاسوبات وما يرتبط بها من مهمات . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . يبدأ بقوله:

القلم الأول أو العقل الأول:

« ..إن العقل ـ أو القلم الأول ـ الأول الذى هو أول مبدع خلق هو القلم الأعلى ولم يكن ثم مُحدث سواه.. وذلك أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عين واحدا من أولئك الملائكة الكروبيين وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سماه العقل أو القلم.. وتجلى ـ سبحانه وتعالى ـ فى مجلى التعليم الوهبى بما يريد إيجاده من خلقه ـ فقبل العقل بذاته علم ما يكون، وما للحق من الأسماء

الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقى.. فاشتق من هذا العقل موجوداً آخر سماه اللوح، وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة.. وكان - هذا القلم - مؤثرا فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه - كانبعاث حواء من آدم فى عالم الأجرام ليكون ذلك موضعا ومحلا لما يكتب فيه ذلك القلم الإلهى، وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق - تعالى - أدلة عليه. فكان اللوح أول موجود انبعاثى وقد ورد فى الشرع «أن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم خلق اللوح، وقال للقلم اكتب.. قال القلم وما أكتب - قال الله تعالى له اكتب وأنا أملى عليك، فخط القلم فى اللوح ما يملى عليه الحق، وهو علمه فى خلقه الذى يخلق إلى يوم القيامة»[1].

وجعل الحق فى هذا اللوح العاقل عن الله تعالى ما أوحى به إليه، المسبح بحمده والذى لا يفقه تسبيحه إلا من أعلمه الله تعالى به. ثم أعلم أن الله تعالى، لما خلق القلم واللوح سماهما العقل والروح.. ثم أوجد الله تعالى فيه - أى الروح - الذى هو اللوح المحفوظ صفتين:

أ) صفة علمية.

ب) صفة عملية.

وكان بين القلم واللوح اتصال معنوى معقول، وأثر حسى مشهود، ومن هنا كان العمل بالحروف عندنا.. وكان ما أودع فى اللوح من الأثر.. وما ظهر من أثر تلك الكتابة من المعانى المودعة فى تلك الحروف الجرمية هى بمنزلة أرواح الأولاد المودوعة فى أجسامهم.. فأفهم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

فبصفة العمل تظهر صورة العالم عنه - أى عن اللوح المحفوظ كما تظهر صورة التابوت للعين عند عمل النجار، فيها - أى الصفة العملية - يعطى النجار الصوره. والصور على قسمين:

---

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى: ٢/٢٣٣.

أ) صورة طاهرة حسية: وهى الأجرام وما يتصل بها حساً، كالأشكال والألوان والأكوان.

ب) صورة باطنة معنوية غير محسوسة: وهى ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات.. وبتلكما الصفتين ظهر ما ظهر من الصور.. فالصفة العلامة أب وهى المؤثر والصفة العاملة - أم - وهى المؤثر فيه، وعنها تظهر الصورة التى ذكرناها.

أم الكتاب وقضايا الاتصالات بين عالم الرقائق وابن عربى:

ويمضى ابن عربى فى حديثه: وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لهذا القلم ثلاثمائة وستين سنا فى قلميته أى من كونه قلما وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لهذا القلم من كونه عقلاً، ثلاثمائة وستين تجلياً أو رقيقة.. كل رقيقة تفترق من ثلاثمائة وستين صنفا من العلوم الإجمالية فيفصلها القلم فى اللوح. فعلمها اللوح حين أودعه القلم إياها.. فكان ذلك علم الطبيعة، وهو أول علم حصل فى هذا اللوح من علوم ما يريد الله خلقه - فكانت الطبيعة دون النفس، وذلك كله فى عالم النور الخالص[1].. وهذه الرقائق هى مثل أشعة النور[2].

ويمضى ابن عربى فى حديثه عن أسس هذا الحاسب الآلى الواعى المفكر العاقل عن الله تعالى بما يأمره ويلقيه إليه، وعن اتصال هذا القلم - العقل - بكل ما فى هذا الكون وما فيه بكونه عنه انفصل - أى عن هذا القلم والعقل - واستنسخ وليخبرنا أنه أيضا - عن هذا القلم واللوح، استنسخ وانفصل عقل آخر ولوح منه انبعث ووضع فيهما كل ما فى بقية هذا العالم وبرمج بينهم جميعا، ارتباطات واتصالات.. وعن كيفية هذه البرمجة فى هذا المخلوق وهكذا.. وعن ذلك كله يقول:

أول منفصل وآخر منفصل فى دورة الملك وابن عربى:

يقول: «..وأعلم أن أول منفصل فيها - أى فى دورة الملك هو النفس الكلية عن أول موجود وهو العقل - القلم - الأول، وآخر منفصل فيها هو حواء عن آخر موجود وهو آدم،

---

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى: ٣٥٠ - ٢/٣٥١.

(٢) المرجع السابق: ٢/٣٨٦.

فإن الإنسان آخر موجود من أجناس العالم فإنه ما من ثم إلا ستة أجناس، وكل جنس تحته أنواع وتحت الأنواع أنواع، فالجنس الأول: الملك، والثانى: الجان، والثالث: المعدن، والرابع: النبات، والخامس:الحيوان وانتهى الملك وتمهد واستوى.. وكان الجنس السادس: الإنسان وهو الخليفة على هذه الأرض»(١). ولكن الإنسان الحقيقى وهو الكلمة الجامعة، ونسخة العالم، فكل ما فى العالم جزء منه وليس الإنسان الحقيقى بجزء لواحد من العالم. وكان سبب هذا الفصل وإيجاد هذا المنفصل الأول طلب الإنس المشاكل فى الجنس الذى هو النوع الأخص، وليكون ـ أيضا ـ فى عالم الأجسام ـ بهذا الالتحام الطبيعى الإنسانى الكامل بالصورة الذى أراده الله تعالى ـ ما يشبه القلم الأعلى واللوح المحفوظ، الذى يعبر عنه بالعقل الأول أو النفس الكلية. وإذا قلت: القلم الأعلى، فتفطن للإشارة التى تتضمن الكاتب وقصد الكتابة ـ فيقوم معك ـ عندئذ ـ معنى قول الشارع «إن الله تعالى خلق آدم على صورته..»(٢).

الإنسان فى الأرض صورة للحاسوب الأعلى فى السماء

يقول ابن عربى: «إن الإنسان كما قررنا آخر المولدات، فهو فى الأرض ـ نظير العقل فى السماء ـ وبه ارتبط، لأن الوجود دائرة فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول. الذى ورد فى الخبر أنه «أول ما خلق العقل» فهو أول الأجناس، وانتهى الخلق إلى الجنس الإنسانى فكملت الدائرة واتصل الإنسان بالعقل كما يتصل آخر الدائرة بأولها. فكانت دائرة، وما بين طرفى الدائرة جميع ما خُلق من أجناس العالم بين العقل الأول ـ الذى هو القلم أيضا ـ وبين الإنسان الذى هو الموجود الآخر.

ولما كانت الخطوط الخارجة من النقطة التى فى وسط الدائرة إلى المحيط الذى وجد عنها تخرج على السواء لكل جزء من المحيط، وكانت الأشياء كلها ناظرة إليه وقابلة منه ما يهبها، كنظر أجزاء المحيط إلى النقطة.

---

(٣) الفتوح المكية: ٣٠١ ـ ٢/٣٠٢.

(١) الفتوح المكية: ٢/٣٠٠.

وأقام سبحانه هذه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة كصورة العمد الذى للخيمة، فجعله «عمدا» لقبة هذه السموات فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه فعبرنا عنه ـ أى الإنسان ـ بالعمد. فإذا فنيت هذه الصورة الإنسانية ولم يبق منها على وجه الأرض متنفس «انشقت السماء فهى يومئذ واهية»، لأن العمد زال وهو الإنسان ولما انتقلت العمارة إلى الدار الآخرة، بانتقال الإنسان إليها، وخرجت بانتقاله عنها ـ علمنا قطعا ـ أن الإنسان هو العين المقصودة لله تعالى من العالم، وأنه الخليفة حقا، وأنه محل ظهور الأسماء الإلهية، وهو الجامع لحقائق العالم كله من ملك، وفلك، وروح وجسم، وطبيعة، وجماد، وحيوان، هذا بالإضافة إلى ما خص به من الأسماء الإلهية مع صغر حجمه وجرمه[1].

الإنسان الحاسوب: مجموعة رقائق، بها يتم الاتصال بينه وبين هذا الكون وما فيه، وفيه معنى تسخير الكون وانفعاله له وكيفية ذلك

ونمضى مع ابن عربى ـ رحمه الله تعالى ـ ليقول حول ذلك:

«إن الله تعالى أودع العلم كله فى الأفلاك وجعل فى الإنسان مجموعة رقائق العالم كله، فمن الإنسان إلى كل شىء فى العالم رقيقة ممتدة، ومن تلك الرقيقة يكون، من ذلك الشىء فى الإنسان ما أودع الله سبحانه وتعالى عند ذلك الشىء الذى من الأمور التى أمنّه الله عليها ليؤديها إلى هذا الإنسان وبتلك الرقيقة يحرّك الإنسان العارف ذلك الشىء لما يريده.. فكان لهذا «الإمام» كشف هذه الرقائق وهى ـ أعنى هذه الرقائق ـ مثل أشعة النور»[2].

الإنسان رقائق مشفّرة وكيفية الاتصال بينه وبين خالقه سبحانه وتعالى.. ثم اتصاله بالكتاب

ونمضى مع الشيخ ابن عربى ـ رحمه الله تعالى ـ فى تنبؤاته التى تعتبر بحق

(١) الفتوح المكية: ٢٥١ ـ ٢/٢٥٣.

(٢) الفتوح المكية: ٢/٣٨٦.

أسسا لما جد وحصل فى أمور وعلوم وكشوف فى علم الحاسوبات الآلية وما يرتبط بها من برمجات وعلم اتصالات وغير ذلك فى عصرنا الحاضر، والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

يقول ابن عربى: «فالحق جل سناه - له تسعة أفلاك للإلقاء، والإنسان له تسعة أفلاك للتلقى، فيمتد من كل حقيقة من التسعة الأفلاك الحقية، رقائق إلى التسعة الأفلاك الخلقية.. وتنعطف من التسعة الأفلاك الخلقية رقائق على التسعة الأفلاك الحقية، فحيثما اجتمعت كان الملك ذلك الاجتماع، وحدث هنالك أمر فذلك الأمر الزائد الذى حدث هو الملك، فإن أراد الملك أن يميل بكله نحو التسعة الواحدة، جذبته التسعة الأخرى، فهو يتردد ما بينهما - جبريل عليه السلام - ينزل من حضرة الحق على النبى ﷺ وفى الواقع أن حقيقة الملك لا يصح فيها الميل، فإن منشأ الاعتدال بين «التسعتين» والميل انحراف ولا انحراف عنده ، ولكنه يتردد بين الحركة المنكوسة والحركة المستقيمة. هذا التردد هو عين الرقيقة فإن جاءه «أى جاء الملك الإنسان» وهو فاقد فالحركة منكوسة ذاتية وعرضية وإن جاءه وهو واجد، فالحركة مستقيمة عرضية لا ذاتية وإن رجع عنه وهو فاقد فالحركة مستقيمة ذاتية وعرضية.. وإن رجع عنه وهو واجد فالحركة منكوسة عرضية لا ذاتية.

وقد تكون الحركة من العارف مستقيمة أبدا، ومن العابد منكوسة أبدا.. وسيأتى الكلام عن ذلك بعد قليل - وعن سبب انحصارها فى ثلاث حركات، منكوسة، وأفقية، ومستقيمة، إن شاء الله تعالى - فهذه نكت غيبية عجيبة.

ثم أرجع وأقول: إن التسعة الأفلاك هى سبعة، وذلك أن عالم الشهادة هو فى نفسه، برزخ فذلك فلك واحد، وله ظاهر: فذلك «فلكان» اثنان. وله باطن: فذلك ثلاثة أفلاك ثم عالم الجبروت برزخ فى نفسه، فذلك واحد وهو الفلك الرابع، ثم له ظاهر، وهو باطن عالم الشهادة ثم له باطن وهو الفلك الخامس ثم بعد ذلك عالم الملكوت، وهو فى نفسه برزخ، وهو الفلك السادس، ثم له ظاهر، وهو باطن عالم الجبروت، وله باطن وهو الفلك السابع، وما ثم غير هذا. وهذه صورة السبعية والتسعية.

فتأخذ الثلاثة «الخلقية» وتضربها فى السبعة، فيكون الخارج واحدا وعشرين، فَتخْرُج الثلاثة الإنسانية، فتبقى ثمانية عشر وهو مقام الملك، وهى الأفلاك التى منها يتلقى الإنسان الموارد وكذلك تفعل بالثلاثة الحقية تضربها أيضا فى السبعة، فتكون عند ذلك الأفلاك التى منها يلقى الحق على عبده ما يشاء من الواردات.

فإن أخذناها من جانب الحق قلنا أفلاك الإلقاء. وأن أخذناها من جانب الإنسان قلنا أفلاك التلقى وإن أخذناها منهما معا جعلنا تسعة الحق للإلقاء، والأخرى للتلقى، وباجتماعهما حدث الملك ولهذا أوجد الحق تسعة أفلاك السماوات السبع، والكرسى، والعرش، وإن شئت قلت: فلك الكواكب والفلك الأطلس وهو الصحيح(١).

هذه بعض إشارات استعرضناها من مجمل ما خطه وسطره الشيخ ابن عربى قبل أحد عشر قرنا حول بعض قضايا «أم الكتاب» وهى إشارات - كما رأيت - تُعتبر بحق أسساً لما كشف من علوم الحاسوبات وقضايا الشرائح والرقائق ونورانيتها، وقضايا الاتصالات، وفيها ترى كيف أن هذا الإنسان مرتبط بخالقه أشد الارتباط، وأنه فى قبضته، ثم كيفية كون هذا المخلوق الإنسان مرتبطاً ومنفصلاً بكل ما حوله، من «أم الكتاب» حتى أصغر ذرات هى موجودة فى هذا الكون، وكيف أن هذا الكتاب «أم الكتاب» قد أودع فيه كل ما كان وسيكون إلى أن تقوم الساعة، وأن كل أمر أو شىء قد وضع وخزّن فى رقيقته أو شريحته، والجميع وضع فى هذا الكتاب الأم الذى يحوى كل الكتب والألواح الاختصاصية، وأن من تلك الأصول يستنسخ صور لكل ما كان وما سيكون فى هذا الكون من عوالم ومخلوقات، كصورة هذا الخلق الإنسانى، الذى سوف توكل إليه قيادة ما حدد له من مخلوقات فى هذا الكون قد سخرت لقيادته ثم نراه - ابن عربى - يعرّج بإشاراته إلى هذه الصورة الإنسانية، ليخبرنا كيف أنها قد سويت - برمجت وشفّرت - وجهّزت بكل قضايا الحفظ والقيادة وأمور الاتصالات التى تربطها بخالقها جل سناه - سبحانه - وبـ «أم الكتاب» وبكل ما هو موجود فى «أم الكتاب» من

(١) الفتوح المكية: ٢٤١ - ٢٤٣/١.

رقائق وشرائح لها ارتباط واختصاص به - أى بهذه الصورة الإنسانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فهذا الجنس الإنسانى الذى سوف يقود ما سخر له فى هذا الكون كان جميع أفراده مستقلين، أى كل فرد منهم وحده فى شريحته كامل وأجزاء كما سوف نرى ذلك - بمشيئة الله تعالى ثم اصطفى من بين هذا الجنس الإنسانى واحد ليكون أباً يستنسخ من خلاله جميع هذا الجنس بنوعيه.. بل هو الجهاز الأم - إن جاز لنا التعبير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الذى سوف يصور فيه سيبرمج ويشفّر فيه صور الخلق الذى سيخرج منه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - جميع هذا الجنس بل سيكون الجسم الأول لما سيكون من أجسام فيما بعد لهذا الإنسان فى صورة النسخة الدنيوية، الصورة المعنية بقوله تعالى: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـــدة﴾[1] وسوف نرى أن هذا الجسم سوف يمر بمراحل متعددة قبل وصوله لمرحلة النشأة الدنيوية بأمر الله تعالى وإذنه.

وجميع هذه الإشارات تجرنا لأن نشير ببعض الإشارات لمرحلة خلق آخر غير مرحلة الخلق الأول الذى سبقت الإشارة إليه، وحتى لا يطول بنا الأمر الذى قد يصل عدة أسفار يستحسن أن يكون تركيز حديثنا على صورة جنس واحد من صور أجناس الخلق المتنوع فى «أم الكتاب».. وهى صورة الخلق الإنسانى.. وذلك كنموذج نتعرف من خلاله على طبيعة وخصائص الخلق فى هذه المرحلة الخلقية.. نحاول أن نتعرف - بإذن الله تعالى - على كيفية إيجاد هذا الجنس الإنسانى بطبيعة هذه المرحلة.. وما طبيعتها وكيف كانت تسويته على هذه الطبيعة وغير ذلك من أمور تتطلب الحديث عنها لارتباطها بكل ما سبقت الإشارة إليه - بإذن الله تعالى ومشيئته - ونسأل الله تعالى العون والتوفيق وتأييده، يارب ...فمع المرحلة الثانية.

---

(١) سورة النساء: آية «١».

الفصل الرابع

الاستنساخ

فكرة سريعة حول بداية الخلق الثانى مراحله وتنوع صوره

١ ـ حول تنقل خلقنا من خواص وخصائص مرحلة إلى أخرى

وهذه المرحلة هى بداية خلق الصورة النورانية الخالصة ونقلها من هذه النورانية الخالصة إلى مرحلة ذات طبيعة نورانية أخرى، ولكنها بشكل وبطبيعة أخرى متجسدة أى خلق الصورة النورانية المعنوية غير المحسوسة فى صورة نورانية محسوسة ليجعل منها فيما بعد صورة محسوسة ذات طبيعة وخاصية أخرى تلائم المكان والبيئة التى سننتقل إليها وهكذا.

ومن هنا نرى أن الصفة العمومية للمرحلة الخلقية الأولى التى وجدت ـ أى الصورة الأصلية الأولى ـ لما كان مقدرا فى علم الله تعالى سبحانه وتعالى عما يصفون ـ إن صح هذا التعبير ـ هى الصفة النورانية ثم إن تلك النورانية أخذت بعد ذلك تتدرج فى طبيعتها نزولا بقدرات وتحولات خلقية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وبنو آدم أو الجنس الإنسانى جميعه هو خلق من ضمن ما خلق الله تعالى وأودعه فى «أم الكتاب» وينطبق عليه كل ما سبق من إشارات أوردناها، فهو فى «أم الكتاب» سواء كان كاملا أو أجزاء متفرقة، نورانى من جنس نورانيته، ومن هذا الأصل النورانى استنسخ هذا الجنس بنورانية أخرى. وهكذا.

وهنا قد يسأل سائل ويقول: ترى ما الذى أدراك أن هذا الجنس الإنسانى ـ بنى آدم فيما بعد ـ كانوا جميعهم ومن بينهم آدم عليه الصلاة والسلام موجودين وجودا

مستقلا، أى أن كل واحد منهم قد خلق وحده كآدم ثم صار بعد ذلك الاصطفاء والاختيار من ضمن بنى آدم.

مع استقلال الخلق قبل اصطفاء آدم واختياره للاستنساخ الآخر:

فالله تعالى أعلم - إن ما قلته لم يكن كلاماً بدون دليل بل هو مستنبط ومأخوذ من كتاب الله تعالى القرآن الكريم - ومن أحاديث رسول الله ﷺ ثم من تفاسير وأقوال أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم من أقوال العلماء والمفكرين الإسلاميين فالقرآن الكريم يقول: قال تعالىٰ: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة..﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا﴾(٢) هاتان آيتان من كتاب الله وغيرهما كثير، ونلاحظ أن الآيتين تركزان على أن خلق هذا المخلوق الإنسانى الأول كان خلقا استقلاليا غير ممتزج بغيره ولا عن طريق غيره، ولذلك كانت عودته الأخيرة عبر رحلته الطويلة إلى أن وصل إلى الدنيا ثم العودة إلى مكان انطلاقه - كما سيأتى بإذن الله تعالى - إذن فهو قد خلق فردا، فطبيعى أن يعود كما بدأ وإذا نحن رجعنا إلى ما ورد حول هاتين الآيتين الكريمتين فسنجد أنهما - أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يشيران إلى أنّا وجدنا جميعاً دفعة واحدة كما هو الحال فى «أم الكتاب».. وأظن أن المفسرين يشيرون إلى أن آية الأنعام تشير إلى معان كثيرة منها: «جئتمونا واحدا واحدا، كل واحد منكم منفرد بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر.. أى منفردين كما خلقتكم أول مرة.. من بطون أمهاتكم حفاة غرلا بهما ليس معهم شىء»(٣).

هذا بعض مما قالوه.. وهنا قد يسأل سائل ويقول: كيف استدللت بهذا القول وما فيه من إشارة هى ضد ما تقوله وتشير إليه، يقولون «من بطون أمهاتكم» فهم

(١) سورة الأنعام: آية «٩٤».

(٢) سورة الكهف: آية «٤٨».

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبى صـ٤٢ - ٤٣.

يشيرون إلى المرحلة الأخيرة فقط أى الخلق الدنيوى من بطون الأمهات.. وأنت تقول بأن هناك مرحلة خلق قبل هذا؟

وهنا نقول لهذا السائل وغيره أن واقع ما أشار به القرآن الكريم هو تماما غير هذا وسوف يأتى منه الكثير بإذن الله تعالى ـ فهذا ـ مثلا ـ واقع العودة يشير إلى كيفية ما أشرنا إليه وهو أن الخروج سوف يكون دفعة واحدة وللجميع، قال تعالى: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾[2] إذن فهذا القرآن الكريم يشير إلى أن العودة للخلق سوف تكون دفعة واحدة للجميع وفى آن واحد، وهذا هو نفسه ما تشير ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إليه الآية التى استشهدنا بها ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ فإذا كانت الخلقة فى الدنيا فرادى لكنها متباعدة وفى آنات وأزمنة مختلفة، بعكس العودة منها دفعة واحدة وفى آن واحد للجميع وبدون استثناء. وسوف يأتى تفصيل لهذه الإشارة بصورة مطولة فى باب كامل بإذن الله تعالى. إذن فالآية صريحة فى بيانها ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ وخلقنا فى بطون الأمهات ليس هو أول مرة بصريح القرآن الكريم ثم إن كلامهم ـ كلام المفسرين ـ الذى أوردناه لهم «منفردين بلا أهل.. إلخ» إذا وقفنا عنده فسنرى بعون الله تعالى أنه لا ينطبق مع الواقع، وذلك أن الإنسان فى بطن أمه لا يكون بدون أهل فالمرأة التى كان فى بطنها هى أمه والرجل الذى كان فى صلبه ثم خرج منه هو وأبوه، إذن فهم أسرته وهم أهله إذ الأم لها أهل وأسرة فهم أهله وهم أخواله، وكذلك أعمامه والجميع بهم ينتصر، فكيف يكون بلا أهل إذن، فالمجىء فرادى ليس المقصود به فى الدنيا لأن خروجه فى الدنيا يكون بين أهله وذويه، وإنما جئتنا بكم فرادى لا تربطكم صلة ولا رحم قد امتزج بكم أو اختلط كما كان فى خلقة المزج للدنيا، وإنما

(١) سورة الزمر: آية «٦٨».

(٢) سورة يس: آية «٥٣».

فرادى كما خرجتم من «أم الكتاب» عند أول استنساخ وإيجاد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وأظن أن هذا التخريج يؤكده - والله تعالى أعلم - ما ورد عن رسول الله ﷺ بما معناه: « ..يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما».. وحول معنى هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يقول العلماء: «يحشر العبد غدا وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد فمن قطع منه عضو يرد فى يوم القيامة عليه وهذا معنى قوله فى الحديث غرلا أى غير مختونين، أى يرد عليهم ما قطع منهم عند الختان..».[1] وهذا المعنى يعطينا بعداً تأكيديا آخر إذ هو كما ترى يدل على عظمة الخالق فى صنعه وإبداعه فى خلقه فمهما جرى من استنساخ من النسخة الأولى فلن يختلف المنسوخ عن المستنسخ الأصل الذى هو محفوظ كامل غير ناقص.. فعودته غير مختون تؤكد ذلك، أى أنه سيعاد على نفس الصفة والسمة التى عليها أصله، إذن فهو تأكيد لخلق المرحلة الاستنساخية الأولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما أن دلالة لفظ «غرلا» تؤكد ما بعدها من معنى وهو قوله: «بهما» فهو تأكيد لجميع المراحل - والله تعالى أعلم - فقد ورد حول معنى «بُهما»: أنه جمع بهيم، وهو فى الأصل اللون الذى لا يخالط لونه لون سواه، يعنى ليس فيهم شىء من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا، كالعمى والعور وغير ذلك[2].

هذا ما قيل عن «بهما» وفيه نرى أنه يشير إلى حقائق كثيرة منها أن الخلق فى الدنيا ليس «فرادى» بعكس الخلق الأول من «أم الكتاب» وخلق العودة - عند البعث - أى أنه سوف يعاد على طبيعة عنصره الفردى الذى استنسخ عليه من «أم الكتاب». أما الخلق الدنيوى فهو خلق مزيج من ألوان، ألوان الآباء والأجداد والأعمام والأخوال، ألوان الأنساب، لذلك فهو ذو أعراض وأمراض اكتسبها - وراثيا - من جراء هذا المزج والمزيج العنصرى اللونى. أما عند عودته فسوف يصفى ويصهر ليبقى لونه

(١) القرطبى الجامع: ٧/٤٣.
(٢) المرجع السابق: ٧/٤٣.

الفردى الذى خلق عليه أول مرة، فردى غير ممتزج بوشائج أو قربى نسب دنيوية.. وهذه اللونية الممتزجة فى الخلقة الدنيوية يؤكدها ما روى عن ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وذلك حينما سئل حول آية سورة الإنسان «من نطفة أمشاج» فقد سئل: مم خلق الإنسان يا ابن عباس؟ فقال: من ألوان.

وعن ابن مسعود: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان.. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء.. وقال قتادة: هى أطوار الخلق طور نطفة وطور علقة وطور مضغة... إلخ. وهى الأمشاج أى الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة..»[1].

وقد ورد ما يؤكد قضية الحياة ذات اللونية الممتزجة وهو ما أشار به الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - فقد قال حول قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا..﴾ قال: «..زوجته هى النفس - المشتقة منه - وسميت حواء لملازمتها للجسم الظلمائى والحياة هى اللون الذى يغلب عليه السواد، كما أن القلب سمى آدم لتعلقه بالجسم دون الملازمة بالانطباع إذ الأدمة هى السمرة، أى اللون الذى يضرب إلى السواد»[2].

إذن «ففرادى» يثبت أن الإنسان وجد بمفرده أصلا قبل اصطفاء آدم - عليه الصلاة والسلام - الذى كان الأساس فيما بعد للاستنساخين اللذين صارا فيما بعد، وهما الاستنساخان المحسوسان؛ الأول: الاستنساخ المجرد الذى كان هناك بين الأرواح الموجودة فى الملأ الأعلى، وهى مرحلة نورانية - طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - حركية محسوسة، لكن إحساس غير الإحساس الذى سوف تكون عليه فى الدنيا - المرحلة الثالثة - والله تعالى أعلم - إذ هى الدنيوية - تختلف عن سابقاتها لاختلاف طبيعة وصفة وسمة المرحلتين

(١) الجامع للقرطبى: ١٢٠ - ١٢١/١٩.
(٢) تفسير ابن عربى: ٣٩ - ٤٠/٢.

السابقتين عليها، إذ تلك نورانية بحتة، وهذه مزيج من النورانية المتعنصرة والمادية وقد ورد ما يؤكد هذا المفهوم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ما أورده الشيخ ابن عربى نفسه حول الآية الأولى التى نحن بصددها ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾.. قال الشيخ ابن عربى ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ أى مجردين عن الصفات والعلائق والأهل والأقارب. ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ أى بإنشاء ذرات هوياتكم فى الأزل عند أخذ الميثاق وقد وقع التفرقة بينكم بتغيّر الأحوال وتبدّل الصور والأشكال..»(1).

وهنا نود أن نقف وقفة سريعة عند بعض كلمات ابن عربى بما تحمله من دلالات ذات رموز قوية لما نحن بصدده فمثلاً قوله: «ذرات هوياتكم» ألا تستوقفنا هذه اللفظة «ذرات» ألا تعطينا أبعاداً كثيرة، منها بعد الوجود النورانى - الطاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - للإنسان فى «أم الكتاب»، وكيف أخذ هذا الوجود، فى تشكلات وتحولات مختلفة سوف يمر علينا منها الكثير بمشيئة الله تعالى - إلى أن وصلت إلى ما سمّى فيما بعد فى الدنيا - بالخلية - ألا يعطينا ذلك بعداً آخر. وهو البعد الحركى، إذ الذرة جزئ متحرك مضطرب لا يهدأ.. إذن فوجوده النورانى متعدد، منه الثابت والمتحرك فى «أم الكتاب» و«اللوح المحفوظ» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والذرة عالم لوحده مستقل، عالم منفرد يعرفه أهله، إذن فالإنسان وجد منفردا وجنسا دفعة واحدة، ثم حصل بعد ذلك المزج فى جسم آدم عليه الصلاة والسلام عند الخلق الطينى النورانى أيضاً فيما بعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا الخلق الاستقلالى للجميع ووجودهم دفعة واحدة، هو ما تؤكده وتشير إليه آية الأعراف وإن كان سيأتى بإذن الله تعالى لها شرح مطول فى أماكن متعددة - وهى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..﴾(1).

---

(1) تفسير ابن عربى: 1/389.

(2) سورة الأعراف: آية «11».

فهذه الآية قد قيل عنها الكثير ـ كما سيأتى فى موضعه بإذن الله تعالى ـ ومن ذلك ما قال المفسرون «من أن الله سبحانه وتعالى ـ أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه تعالى جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به..»[1].

إذن فالأرواح خلقت جميعها دفعة واحدة، وذلك أن الأجساد التى أخذت أصلا من جسد آدم عليه الصلاة والسلام وجسد آدم عليه الصلاة والسلام لم يخلق بعد، إذاً فآدم عليه الصلاة والسلام كان مخلوقا روحانيا من ضمن الأرواح التى خلقت قبل الأجساد بألفى عام ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا يؤكده حديث القبضة الآتى ـ فى مكانه وأمكنة كثيرة متعددة بمشيئة الله تعالى ـ المروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه «فقال اختر يا آدم، فقال اخترت يمين ربى ـ وكلتا يدى ربى يمين ـ ففتحها ـ الحق جل سناه ـ فإذا فيها آدم وذريته، قال يارب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه»[2] وقد علق صاحب كتاب الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ﷺ على قوله ﷺ «ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته». قال: «..فلما بسط الله تعالى يمينه ظهرت صور لأرواح آدم وبنيه وعمر كل منهم مسطور بين عينيه».

إذن ففى يمين ربى ظهرت صور لجميع أرواح الجنس الإنسانى بدون استثناء ومن ضمنهم صورة روح آدم عليه الصلاة والسلام.. وسوف يأتى التفصيل بإذن الله تعالى، ولكن هناك لفظاً فى هذا الأثر سوف يجرنا للحديث عن إشارة وردت فى معنى حديث شريف ـ على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ـ له ارتباط بلفظ هذا المعنى وهذا الحديث هو ما روى عن رسول الله ﷺ: من أن الله تعالى: خلق آدم على صورته.. والله تعالى يجل عن أن يكون له صورة أو مثال..»[3].

---

(١) القرطبى: ٣١٤ ـ ٣١٦/٧

(٢) رواه الشيخان الترمذى والبخارى نقلاً عن كتاب التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص»: ٤/٣٨.

(٣) كتاب التاج: ٤/٣٨.

وقفة مع إشارة:

حديث شريف

هذا هو الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم وقد أورد عنه ابن قتيبة كلاما كثيرا نوجز منه ما نراه مناسبا.. يقول: «...وقد اضطرب الناس فى تأويل هذا الحديث فقال قوم من أصحاب الكلام أراد خلق آدم على صورة آدم، ولم يزد على ذلك.. ولو كان المراد هذا ما كان فى الكلام فائدة ومن يشك فى أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته، والسباع على صورتها، والأنعام على صورها».

وقال قوم: «إن الله تعالى خلق آدم على صورة عنده» ابن قتيبة. وهذا لا يجوز لأن الله عز وجل لا يخلق شيئا من خلقه على مثال سابق.

وقال قوم فى الحديث: لا تقبحوا الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورته يريد أن الله تعالى عز وجل خلق آدم على صورة الوجه. وهذا بمنزلة التأويل الأول، لا فائدة فيه.

والناس يعلمون أن الله تبارك وتعالى خلق آدم على خلق ولده ووجهه على وجوههم وزاد قوم فى الحديث أنه ﷺ مر برجل يضرب وجه رجل آخر. فقال: لا تضربه فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته.. أى على صورة المضروب وفى هذا القول من الخلل ما فى الأول[1].

هذا ما استطعنا أن نوجزه مما أورده ابن قتيبة من تعليقات قيلت حول الحديث والجدل الذى ثار حول معناه، وكيف وصل الأمر ببعضهم فى خضم النفى لكل ما قيل من معنى لهذا الحديث أن أصر على أن المعنى «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن».. والله تعالى يجل أن تكون له صورة أو مثال.

وعندنا أن المعنى لهذا الحديث ـ بناء لكل ما سبق أن أوردناه وما سيأتى بإذن الله تعالى ـ بناء على ذلك يكون المعنى أن الله تعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام

(١) تأويل غريب مشكل الحديث ابن قتيبة «٢١٢».

على صورته أى صورة آدم نفسه التى أوجدها الله تعالى له منذ الأزل فى علمه الأزلى وتقديره - سبحانه - ثم إيداعه على تلك الصورة فى «أم الكتاب»، و«اللوح المحفوظ».

وهذا المعنى لم نقله ابتكارا من عندنا ولا اكتشافا بل رأينا أنه قد ورد ما يؤكده ويقويه، حتى فيما أورده ابن قتيبة نفسه وحاول أن ينفيه أو يتهرب منه بدون توضيح أو تعليل شافٍ لنفيه، فقد رأينا القول الأول والثانى كلها بمعنى واحد تؤكد أن آدم عليه الصلاة والسلام قد خلق ووجد على صورته التى كانت فى علم الله تعالى ثم أخرجت ووضعت فى «أم الكتاب»، ولكن ابن قتيبة يعلق على هذه الأقوال بقوله: ليس فى هذا الكلام فائدة. ترى لماذا لا تكون هناك فائدة؟ أترى فلسفة النحاة ومنطقته وصلت تعقيداتها إلى أحاديث رسول الله ﷺ فحاولت أن تخفى شيئا من إعجاز معانيه؟ أيريد ابن قتيبة بعدم حصوله فائدة - لعدم رجوع الضمير فى صورته لمرجع معلوم يصح أن يرجع إليه الضمير وذلك لأن آدم المخلوق على الصورة ليس له ذكر قبل الخلق حتى يرجع إليه الضمير أظن أن هذا هو ما أراده ابن قتيبة وكثير مثله؟ وذلك أن المعنى عنده - كما يتبادر إلى الذهن - أنه يريد أن يقول: أن آدم عليه الصلاة والسلام - خلق على هذه الصورة ابتداء - وعلى ذلك لا يكون هناك مرجع للضمير. ونحن هنا نقول لابن قتيبة: إن خلق الصورة المذكورة فى الحديث كان كما أشرت - خلقا ابتدائيا، ولكن يجب عليك أن تقف وتتأمل قليلا فى لفظ الحديث ألم يقل على صورته؟ إذاً فهذا الخلق صورة أيضاً! وترى لماذا هو صورة؟ أليس صورة للأصل الذى كان مقدرا فى علم الله تعالى الأزلى، إذن فهى صورة لذلك الأصل المقَدّر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وهذا يؤكده حديث القبضة السابق: «ولما بسطها - أى الحق جل سناه - رأى فيها آدم نفسه وذريته» إذن فآدم قد رأى صورة نفسه وصور بنيه، بل إن تلك الصور كانت أرواحا كما جاء فى الخبر - السابق - «إن الله تعالى خلق الأرواح بألفى عام قبل خلق الأجساد» إذن فالضمير يعود لتلك الصورة أو تلك الروح. إذن فالحديث يشير معناه

هذا إلى قضية من قضايا الخلق الإنسانى فى إشارة ضمنية، وهى أن المقصود بهذا الخلق لآدم عليه الصلاة والسلام هو الخلق الطينى المحسوس، وهذا الخلق الطينى هو نفسه صورة طبق الأصل لتلك الصورة التى رآها آدم عليه السلام لنفسه ولبنيه فى يدى ربى سبحانه وتعالى، وكأن الحديث يريد أن يؤكد على شىء مهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو قضية البعث. أى كما خلق الله تعالى هذه الصورة كما هى لتلك الصورة الأصل فهو القادر أيضا - سبحانه وتعالى - أن يعيد خلقها كما هى لا زيادة ولا نقصان، وذلك لأن الأصل عنده سبحانه «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ»[1] أما قوله: «وهذا لا يجوز، لأن الله - تعالى وعز وجل - لا يخلق شيئا من خلقه على مثال».

وهنا نسأل ابن قتيبة ترى من خلق ذلك المثال. أهو غير الله، حتى تنفيه؟ أليس الذى خلق ذلك المثال هو الله تعالى. أليست الإجابة على ذلك أن الذى خلق ذلك المثال هو الله تعالى. بلى إنه الله الخالق. ولا نطيل فى القول.. فهؤلاء السلف يروون عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «إن فى العرش مثال كل شىء خلقه الله تعالى فى البر والبحر» وهو تأويل قوله تعالى: «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه»[2].

هكذا روى وقيل.. ورغم كل ذلك يضطرب معنى الحديث على ابن قتيبة وغيره أليس لأنهم لا يرون إلا الخلقة الدنيوية الطينية لآدم وبنيه - عليه الصلاة والسلام - فى الوقت نفسه تعرض القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ لما رأوه وغيره من مراحل الخلق الإنسانى حتى ولو كان ذلك إجمالاً لحكم يريدها هو سبحانه. ولكن التعصب - أحيانا - لفكرة أو قضية ما تحول دون الرجوع إلى الحق أو التنازل عما ذُهِب إليه.

وإلا فهذا ابن قتيبة نفسه يستشهد ويورد ما قيل أنه سبب لقول الرسول ﷺ لهذا الحديث وستلاحظ معى أن فيه أيضا إثباتا لمرحلة من مراحل الخلق غير

---

(١) سورة (ق): آية «٤».

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى ١٤ - ١٥/١٠.

المراحل الدنيوية. يقول ابن قتيبة:

«ولم أر فى التأويلات شيئا أقرب من الأطراد ولا أبعد من الاستكراه من تأويل بعض أهل النظر، فإنه قال فيه: «أراد أن الله تعالى خلق آدم فى الجنة على صورته فى الأرض» وكأن قوما قالوا: إن آدم كان من طوله فى الجنة كذا ومن حليته كذا ومن نوره كذا، ومن طيب رائحته كذا.. فقال النبى ﷺ «إن الله خلق آدم» يريد فى الجنة «على صورته» يعنى «فى الدنيا»(١).

وهنا نسأل ابن قتيبة لماذا استكرهت هذا القول والتأويل. ألأنه من أهل النظر فقط؟؟ أو لكونه مخالفا لما تريدون؟ لست أدرى.

ورغم ما قيل حول ما استكره ابن قتيبة، إلا أنا نجد فيه إشارة لحقائق تعدد صور الخلق الإنسانى لأصل واحد مودع فى «أم الكتاب» كما أنه معلوم ومقدر فى علم الخالق جل سناه، لا يتغير ولا يتبدل، وإن تبدلت خصائص خلق صورة من الصور لحكم يريدها خالقها سبحانه وتعالى حتى الصوفيين نراهم يقولون حول مرجع الضمير فى الحديث بما ذهبنا إليه، فهذا ابن عربى - رحمه الله تعالى - نوجز من تعليق له حول قضية ارتباط هذا المخلوق الضعيف، الإنسانى وتعلقه بأسماء الله الحسنى وصفاته، ومدى مكانة هذا المخلوق وكرامته عند الله سبحانه وتعالى، يقول من حديث طويل «وقال ﷺ: إن الله تعالى خلق آدم على صورته» وإن كان الضمير عندنا متوجها على آدم(٢).

وهنا قد يسأل سائل ويقول إن الحديث كان عن الخلق الاستقلالى أى وجود الجميع مع آدم دفعة واحدة ولكن تحول الحديث أخيرا ليكون عن آدم وصورته، وبهذا يكون كل ما ذكرته بعد ذلك هو نفى لما تريد نفيه فكيف ذلك؟

وحقيقة الإجابة عن ذلك أن نقول إن كل ما سبق أن أوردناه ليس كما تصور أخى السائل، بل هو على العكس تدعيم منا لإثبات ما نريد إثباته، وذلك أن لفظ آدم

---

(١) ابن قتيبة - السابق: ٢٢٠.

(٢) الفتوح المكية: ٣/٣٢٥.

مقصود به الجنس والعموم، وإلاّ فكل واحد من أبناء آدم قد خُلق على صورته هو التى أوجده الله تعالى عليها أزلا وإلاّ كيف نفسر اختلاف أشكال صور بنى آدم، إذ لو كان المقصود أن كلنا خلقنا على صورة وجه أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لكنّا الآن متشابهين، أى كنا جميعاً على صورة واحدة، والواقع يقول بغير ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذاً فكل واحد قد خلق على صورته وشكله الذى أوجده الله تعالى عليه وقدره أزلاً، وأودعه عليه فى «أم الكتاب» ولا يمنع التعميم من أن يكون فيه تخصيص لآدم باعتبار أنه سوف يكون أباً للجنس كله فيما بعد.

وعلى هذا المعنى وتأكيد كونه نفسه عليه الصلاة والسلام مرجع الضمير فى «على صورته».. أى عند الخلق الطينى وهذه هى إشارة التخصيص من التعميم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعلى هذا كله يقول ابن حجر فى فتح البارى، وهو يعلق على حديث «خلق الله تعالى آدم وطوله ستون ذراعا... إلخ» قال: «وقد روى - أى هذا الحديث - عبد الرازق عن معمر، فقال: خلق الله تعالى آدم على صورته وطوله ستون ذراعا.. وهذه الرواية تؤيد قول من قال أن الضمير لآدم».

والمعنى: (أن الله أوجده على الهيئة التى خلقه عليها.. لم ينتقل فى النشأة أحوالا، ولا تردد فى الأحام أطوارا كذريته بل خلقه الله تعالى رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح ثم عقب بقوله: «وطوله ستون ذراعا» فعاد الضمير أيضا على آدم..)(١).

هذا مختصر من كلام طويل لابن حجر، فلو أردنا أن نقف عند بعض ألفاظه - بإذن الله تعالى - لنرى ما الذى تجليه لنا هذه الألفاظ من حقائق وبراهين.. وبالتأمل فيها ترى أن أول ما يواجهك منها، ما تؤكده حول مرجعية الضمير فى «صورته» وأنه يعود لآدم - عليه السلام - أى أن آدم - الدنيا - هو صورة طبق الأصل لتلك التى خُلق

---

(١) فتح البارى: ٦/٤٢٢.

عليها فى الجنة، والتى هى أيضا طبق الأصل للصورة والهيئة التى هى أصله الأول، والتى هى موجودة فى «أم الكتاب». وهى المطابقة أيضا لما قدره له الله تعالى فى قدره وعلمه الأزلى، وكل ما سبق لا يخرج عن هذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك ترى الشارح يشير بألفاظ مختارة مُعبرة دقيقة جداً لما يريد أن يشير إليه، فهو مثلا يقول: «والمعنى: أن الله تعالى أوجده على الهيئة التى خلقه عليها».. فلفظة أوجده لفظة موضوعة بدقة إذ الإيجاد يختلف من حيث دلالته عن لفظ خلق وإن أشار إلى المفهوم، كما أن الخلق يختلف عن الجعل - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالخلق - أغلبه - يكون من معدوم إلى موجود، والإيجاد يكون - أغلبه - من معلوم غير ظاهر وإخراجه إلى الظهور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك قال الشارح: أوجده ولم يقل خلقه.. ولأن الإيجاد أيضا يكون من معنوى إلى محسوس - وإن اختلف الإحساس من حيث درجاته - فقد يكون محسوسا، ولكنه غير مادى، كما هى الحال فى خلقه آدم - عليه السلام - فى «أم الكتاب» بعكس خلقته فى الجنة، فهى محسوسة بدرجة تختلف تماما عن إحساسها فى الدنيا فهى هناك نورانية، روحانية، أما فى الدنيا فهى مادية عنصرية، وإن كان كلاهما حركياً، ولكن لكل منهما قانونه - كما سيتضح ذلك فيما بعد بمشيئة الله تعالى - ومن هنا نجد الشارح أردف لفظة أوجده بلفظة أخرى تؤكد ماأشرنا إليه آنفا إذ قال «على هيئته التى خلقه الله تعالى عليها» أى أن الله تعالى أوجد آدم - عليه الصلاة والسلام - على هيئة آدم التى سبق أن خلقه الله تعالى عليها، ومعلوم أن الهيئة تفرق عن معنى الإيجاد، فهى أقرب إلى الصورة النورانية - الطاقة - من الصورة المادية، إذن فآدم المحسوس الملموس الذى فى الدنيا أوجده الله تعالى على صورة طبق الأصل لآدم الهيئة - الصورة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك أكد الشارح هذا المعنى فى قوله: «ألم ينتقل فى النشأة» ومعلوم أن الإنشاء هو غير الإيجاد - الخلق - من حيث دلالته المعنوية، يقول القاضى عياض عن الفرق بين قوله تعالى «أنشأكم» وبين قوله

تعالى «خلقكم»: أن «أنشأكم» تفيد أنه خلقكم لا ابتداء، ولكن على وجه النمو والنشوء لا من مظهر الأبوية كما يقال فى النبات: إنه تعالى أنشأه بمعنى النمو والزيادة إلى وقت الانتهاء»[1] إذن فألفاظ الشارح كانت دقيقة جدا لما أرادت أن تعبر عنه، فهو حينما أراد أن يشير إلى البداية الأولى والخلق الأول عبر بلفظ خلق، فلما أراد أن يشير إلى الخلق الثانى الذى تم فى الجنة أشار بلفظ الإيجاد، فقال أوجد.. أما الخلق الدنيوى فقد أشار إليه بلفظ الإنشاء فقال: «ألم ينتقل فى النشأة» وهو الخلق الثالث.. ولذلك نرى الشارح يؤكد هذه الإشارة السريعة منه للمراحل الخلقية بقوله:«لم ينتقل فى النشأة أحوالا ولا تردد فى الأرحام أطوارا كذريته».. أى الذين استنسخوا منه فيما بعد.. إذن فخلق آدم - عليه الصلاة والسلام - على هذه الهيئة، فيها إثبات لتعدد مراحل خلقه ومن هنا فالضمير فى مرحلة خلقه فى الجنة يعود لصورته فى «أم الكتاب»، والصورة التى فى «أم الكتاب» يعود الضمير فيها لما أريه آدم - عليه الصلاة والسلام - فى يدى ربه - سبحانه تعالى - كما فى حديث القبضة السابق، والضمير فى التى فى الدنيا يعود لصورته التى فى الجنة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وهذه الإشارات التى أشارت إلى تعدد هذه المراحل الخلقية، هى حقيقة واقعة لمن أراد أن يتأمل ويتدبر، ونحن لم نأت بها من عندنا، فهى كما أشارت إليها أحاديث الرسول ﷺ - كما سبق - نجد القرآن الكريم نفسه يؤكد تلك الإشارات ويقويها فهذا مثلا قوله تعالى فى صورة الأعراف: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..﴾[2].

وحول معنى هذه الآية وما قد تشير إليه يقول الإمام الرازى معلقا على إشارتها - نوجز منه ما تيسر - يقول: ﴿ولقد خلقناكم..﴾.. إن الخلق هو عبارة عن التقدير - كما قررنا فى هذا الكتاب - وتقدير الله تعالى: عبارة عن تقدير علمه بالأشياء، ومشيئته

(١) تفسير الرازى: ١٣/١٠٤.
(٢) سورة الأعراف: آية «١١».

لتخصص كل شىء بمقداره المعين.. فقوله: ﴿خلقناكم﴾ إشارة إلى حكم الله تعالى وتقديره لأحداث البشر فى هذا العالم.. وقوله: ﴿صوّرناكم﴾، إشارة إلى أنه تعالى أثبت فى اللوح المحفوظ صورة كل شىء كائن محدث إلى قيام الساعة.. على ما جاء فى الخبر ـ الحديث ـ أنه تعالى قال للقلم اكتب.. إلخ.

١ ـ فخلق الله تعالى عبارة عن حكمته ومشيئته.

٢ ـ والتصوير: عبارة عن الإثبات لصور الأشياء فى اللوح المحفوظ.

٣ ـ ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له.

وهذا التأويل عندى أقرب من سائر الوجود[١].

هذا شىء مما قاله الإمام الفخر الرازى.. وهو على شدة اختصاره تراه شير إلى جميع مراحل الخلق الثلاث التقديرية و«أم الكتاب» ثم للتى فى الجنة والسجود وما بعدها.. وهو أيضا يؤكد صور كل شىء قبل الإحداث فى جميع مراحله المختلفة.

وليست هذه الآية وحدها هى ما أشار إلى ذلك، فهناك إشارة سريعة أخرى فى آية أخرى قد تجر إلى حديث طويل بعدها.. أما الآية فهى قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[٢].

يقول الإمام القرطبى ـ نوجز ونختصر منه إذ هو كلام طويل جدا ـ هى ثلاث موتات، وإم قيل أكثر وبعضهم قال أنها أقل وثلاثة إحياءات، وقد قيل: إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كالهباء ثم أماتهم[٣].

هذه الإشارة السريعة التى قيلت حول هذه الآية ترى أن فيها تلميحاً يؤكد ما سبق أن أشارت إليه آية الأعراف ـ التصوير ـ وإن اختلفت طريقة العرض، كما فى هذه الآية، إذ جاء فيها التأكيد عن طريق الإحياء والإماتة، وكيف أنها كانت ثلاثة إحياءات وثلاث

(١) تفسير الرازى: ١٤/٣.
(٢) سورة البقرة: آية «٢٨».
(٣) القرطبى: ١/٢٤٩.

مـوتات.. وإن كـان لنا من وقـفـة سـريعـة فـسـوف تكون حـول بعـض مـا أشـار به الإمـام القرطبى، فهو مثلا عند قـوله: «أوجدهم كالهـباء ثم أماتهم».. فـما هـو الهباء وكيف كان إيجادهم فيه ومـثله وقبله ما هو الهباء فى لغة العـرب وماذا قيل عنه أو ورد من إشارات سريعة قد توضح لنا بعضا مما نريد توضيحه. بإذن الله تعالى وتوفيقه.

الفصل الخامس

تعدد صور الخلق الإنسانى مع إشارة الهباء وبداية من بدايات الإخراج والاستنساخ

يقول صاحب كتاب «القاموس المحيط» نوجز منه «الهباء: هو الغبار، أو ما يشبه الدخان.. ودقائق التراب ساطعة ومنشورة على وجه الأرض والهابى: هو تراب القبر..»[1].

هذه إشارة لغوية سريعة عن دلالة معنى الهباء أخذناها من القاموس، وفيها نلاحظ أن من معانى هذه الدلالات كون الهباء يشبه الدخان، وهذا الشبه يدعونا لأن نقول إن هذه الإشارة فيها لفتة لأول بداية تحولية لخلق هذا الجنس الإنسانى، فإذا كان هذا الإنسان فى «أم الكتاب» نورانى الطبيعة فها هو يوجد إيجادا نورانيا آخر، ولكنه بخواص وطبيعة أخرى أقل من إيجاده السابق، فإذا كان الهباء يشبه الدخان، والدخان - طبعا - ليس مقصودا به هذا الدخان الناتج عن الاحتراق وإن كانا يعودان إلى طبيعة واحدة وإنما قد يكون مقصودا به ذلك السديم وكل الطبيعة النورانية - الطاقة - التى كانت للسموات والأرض - قبل تحولاتها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ألم يقل الله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾[2].. إذن فالمادة اللغوية للغة القرآن الكريم نفسه تشير إلى هذا المدلول النورانى - ولذلك المادة اللغوية - نراها تشير بمعنى آخر يؤكد سابقة بقولها «ودقاق التراب الساطعة المنثورة على وجه الأرض» والسطوع يعنى اللمعان، واللمعان يرتبط بالإشعاع الضوئى والبرق، وكل ذلك يوحى لنا إيحاء

(١) القاموس المحيط: ٤/٤٠٢

(٢) سورة فصلت: آية «١١».

نورانيا - طاقة - ثم المادة اللغوية تؤكد ذلك بنفسها، وذلك حينما تفسر لنا هذه الدقاق الترابية فتقول: «دقائق التراب: أى ذرات التراب والذرة وطبيعة الذرة أمور معروفة خصائصها وطبيعتها وحقائق ارتباطها بقضايا الطاقة وخصائصها.

إذن فهذه الإشارة اللغوية تعطينا أول إيحاء لأول إخراج واستنساخ، بل أول إيجاد لهذا الجنس الإنسانى بجميعه.. وطبيعة هذا الإيجاد، وكونه إيجادا نورانيا متجسدا تجسيدياً أى عنصريا، ولكنه غيرمعروف الخصائص إلا لخالقه سبحانه وتعالى.. ولذلك رأينا ابن عربى - رحمه الله تعالى - يشير إلى هذه الحقيقة بإشارة سريعة حينما قال عن قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾، قال: «بإنشاء ذرات هوياتكم»(1) وهذا ابن عربى أيضا نراه يقول عن طبيعة هذا الإيحاء الهبائى وكيفيته: فلمّا أراد الحق - جل سناه - وجود العالم، وبدأه، على حد ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجلّ من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية.

تقول: «انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء، وهى بمنزلة طرح البناء ألجص، ليفتح بها ما شاء من الأشكال والصور».

وهذا هو أول موجود فى العالم، وقد ذكره على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه، وسهل ابن عبد الله التسترى - رحمه الله تعالى - وغيرهما من أهل التحقيق، وأهل الكشف والوجود.

ثم إنه سبحانه - تجلى بنوره إلى ذلك الهباء - ويسميه أصحاب الأفكار الهيولى الكلى - والعالم كله فيه القوة والصلاحية - فقبل منه كل شىء فى ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده، كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتد ضوؤه وقبوله.. قال تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ فشبه نوره بالمصباح(2).

---

(1) تفسير ابن عربى: ١/٣٨٩.

(2) الفتوحات المكية: ٢٢٦ - ٢/٢٢٧.

إذن فالهباء هو أول موجود هبائى ـ مستنسخ ـ نورانى استنسخ من «أم الكتاب» النورانى ـ أيضا ـ ولكنه قد يختلف فى نورانيته عمّا استنسخ منه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذه النسخة الهبائية فيها كل ما فى «أم الكتاب» ولكن بوجود نورانى مختلف. وأظن أن هذا هو معنى قوله: «ثم أنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء فقبل منه كل شىء فى ذلك الهباء..».

إذن فهى رحلة من رحلات الخلق وتنقلاته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.. وهذه الإشارة وما تحمله من معنى لا تختلف عن معنى إشارة القرطبى السابقة «أوجدهم فى الهباء جميعا» إذن فالمعنى واحد وإن اختلفت الألفاظ.

ويمضى ابن عربى فى تأكيد إشارته هذه بقوله: «فاعلم أن الله تعالى لما خلق القلم واللوح، فأسماهما العقل والروح، فأعطى الروح ـ اللوح ـ صفتين:

(أ) صفة علمية. (ب) صفة عملية.

وجعل العقل لها معلماً ومفيداً، إفادة مشاهدة حالية، كما تستفيد من صورة السكين القطع من غير نطق يكون منها فى ذلك، وخلق جوهرا دون النفس الذى هو الروح المذكور، سماه الهباء ـ وهذه الاسمية له نقلناها من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ وهومذكور فى اللسان العربى، قال تعالى: ﴿فكانت هباء منبثا﴾ كذلك لما رآها الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ـ أعنى هذه الجوهرة ـ منبثة فى جميع الصور الطبيعية كلها، وأنها لا تخلو صورة منها، إذ لا تكون صورة إلا فى هذا الجوهر ـ سماها هباء ـ وهى مع كل صورة بحقيقتها.. بل هى كالبياض الموجود فى كل أبيض بذاته وحقيقته لا يقال قد نقص من البياض قدر ما حصل منه فى هذا الأبيض، فهذا مثل حال هذه الجوهرة[1].

ومن مجمل إشارات هذه النصوص السابقة نجد ـ فعلا ـ أن الهباء مرحلة أولية لمراحل الاستنساخ، مرحلة لها سماتها وخصائصها وقانونها الخاص بها يسيرها كما

(١) الفتوحات: ٢/٢٣٦.

شاء لها خالقها، موجودة فى مكانها الذى وضعها فيه خالقها وليس عدم معرفتنا لها أو عدم مشاهدتنا لها قد يقدح فى حقيقتها. أظن أن ذلك غير وارد ألا يقول الفيزيائيون أن كل ما هو خارج الغلاف الجوى للأرض فهو ظلام دامس لا يشاهد الإنسان فيه أى شىء إلا بنور صناعى يعمله الإنسان نفسه مما هو مسخر له فى هذا الكون - حتى أن الأشعة الشمسية - كما يقولون - ليس لها أى تأثير ضوئى خارج هذا الغلاف.. فإذا تسللت ذرات ضوئها - أى الشمس - داخل هذا الغلاف نورٌ وبان كل ما هو موجود داخل هذا الغلاف.. إذن فالهباء هو مرحلة خلقية وجد بها الجنس الإنسانى ضمن الخلق الذى أوجده الله سبحانه وتعالى فى هذا الهباء.. لذلك رأينا فى النصوص آنفة الذكر ما يشير إلى مثل هذه الإشارة الفيزيائية، ففى أول نص ابن عربى رأينا قوله: «ولما أراد الحق - جل سناه - وجود العالم أوجد تلك الحقيقة التى تسمى الهباء..».

إذن فهذه الإشارة، نراها تشير إلى قضايا كثيرة منها مثلا أن هذا الهباء هو «أول موجود فى العالم» وهنا نقف، فالإشارة كما نراها تقول: «أول موجود» ولم تقل أول مخلوق، وقد سبق أن أشرنا إلى الفرق الكبير بين دلالتى الوجود والخلق إذن فهى أول صورة مستنسخة وجدت للعالم المحسوس، من «أم الكتاب» ولكنه إحساس غير إحساس عالمنا الذى نحن فيه فى الدنيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومعلوم أن الحقيقة الكلية عند ابن عربى هى «أم الكتاب» ولذلك نراه يشير فيقول: «انفعل عنها - أى عن الحقيقة الكلية - حقيقة أخرى تسمى الهباء..»، والذى هو المكان الأول للصور الروحية الشكلية المتحركة بأمر الله تعالى وإذنه - كما يقول ابن عربى فى نفس كلامه السابق حينما أراد أن يوضح هذا المكان فقال: «.. وهى أى الحقيقة المستنسخة - بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهو أول موجود فى العالم» وهنا نقف قليلا عند لفظة «الجص» - المادة البيضاء - وقد شبه ابن عربى ذلك المكان بها - وذلك أن اللون الأبيض إذا سلط عليه الضوء فى أثناء الظلام نلاحظ ظهور الصور خلاله - يعنى

مثل شاشة العرض السينمائية وما يرتبط بها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك - ولا مشابهة - ذلك الهباء، الذى سوف تقبل طبيعته النورانية - والتى لا نعرف طبيعتها ولا قانونها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك ولا مشابهة - نور الحق جل سناه - حينما يتجلى لها فينوره.. فيتضح كل ما أوجده الله سبحانه وتعالى فيه.. لذلك نرى صاحب النص السابق - ابن عربى - يورد بعد ذلك ما يدل على هذا المعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بقوله: «...ثم أنه - سبحانه وتعالى - تجلى بنوره إلى ذلك الهباء فقبل منه كل شىء فى ذلك؛ الهبأ ...».

إذن فالهباء مرحلة إيجادية أولية أوجدها الحق جل سناه لهذا العالم جميعه ومنه الإنسانى بجميع جنسه، ولكنها مرحلة ذات قانون وخصائص ترتبط بها دون غيرها من المراحل بعد ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما سبق أن أشرنا إلى تنوّع صور الخلق النورانى وتعدّد مراحله النورانية، وذلك حينما تعرضنا فى صفحة تنوع الغيب.. عندما أوردنا آية سورة الأنعام (٥٩): ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[1].. فليرجع له من شاء.

صورة العرض التعليمية فى الملأ الأعلى:

ولهذه الإشارة حديث طويل سوف يأتى فى مكانه مفصلا - بإذن الله تعالى - وإنما جئنا بها لتوضيح ما كان هناك من صور استنساخية للمرحلة النورانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الصورة أشارت إليها الكثير من الآيات القرآنية أولها قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[2]... إلخ.

وهذه الآية قد تحدث عنها المفسرون كثيرا نوجز منه ما يجلى لنا هذه الصورة حتى يأتى مكانها بإذن الله، كابن عربى وغيره، وإن اختلفت الألفاظ فهى تتقارب فى

---

(١) سورة البقرة: آية «٣٠».

(٢) سورة الأنعام: الآية «٥٩».

إيحاءاتها المعنوية.. فهو يقول - ابن عربى - «...إذ إشارة إلى السرمد الذى هو من الأزل إلى الأبد.. والقول هو إلقاء معنى تعلق مشيئته - سبحانه وتعالى - بإيجاد آدم فى الذوات القدسية الجبروتية، التى هى الملائكة المقربون، والأرواح المجردة الملكوتية التى هى النفوس السماوية.. إذ كلُّ ما يحدث فى عالم الكون، له صورة قبل التكوين فى عالم الروح الذى هو عالم الفضاء السابق ثم فى عالم القلب الذى هو قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.. ثم فى عالم النفس، أى نفس العالم الذى هو لوح الإثبات، المعبر عنه بالسماء الدنيا فى التنزيل كما قال تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾.

إذن فهى صور متعددة متدرجة إلى ما شاء الله تعالى وأراد - وهو خالقها - هذا التعدد، وهو تعدد حكمة وغرض يؤديه - هذا التعدد - لا عبث ولعب وحاشا ذلك أن يقع أو يكون ولذلك نجد ابن عربى يقول: «وكل ما يحدث فى عالم الكون له صورة» أى قبل التكوين المادى فهو بهذا القول يشير إلى ما قلناه من تعدد هذه الصور، وسواء كان ذلك فى العالم النورانى كما سبق ويأتى بإذن الله تعالى أو كان ذلك فى العالم المادى كما سيأتى أيضا بمشيئة الله تعالى وإشارته أيضا تعطينا لمحة سريعة أو إشارة سريعة إلى شىء من طبيعة هذا التعدد وحكمه كهذه النسخة - الصورة - النورانية لصور ونسخ الدنيا المادية، وهى الصورة المعطاة لملك الموت، كما سبق الحديث عنها فى مكانها وقد رأينا أنها صورة كاملة لجميع ما فى الصورة الدنيوية وهذه الصورة تؤكد تعدد هذه الصور دنيوية كانت أو غيرها، نورانية خالصة كانت أو بأنواع مختلفة فالدنيا هى الأرض، لأنه إذا ذكرت الدنيا ذكرت الأرض ومن عليها، وهم بنو آدم - عليه الصلاة والسلام - والأرض التى نعرفها هى صورة مكانية وضعت لتعيش عليها صورة إنسانية بطبيعتها، ولحكم عظيمة لا يعلمها إلا خالقها.. وأظن أن من تلك الحكم بعض مما صرح به القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم كهذه الحكمة قال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾(١).

(١) سورة هود: آية «٦١».

إذن ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فهى صورة إنسانية أنشئت من طبيعة مكانية لحكم عظيمة متنوعة منها هذه الحكمة الابتلائية الاختبارية.. وهذا يعطينا إيحاء آخر وهو أن الأرض ـ الدنيا ـ لها صور متنوعة ومتعددة.

من تعدد صور الأرض:

هذا المفهوم أظن أن القرآن الكريم قد أشار إليه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ حينما حصر عددها فى سبع أراضٍ، ووضح ذلك حديث نبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾[1].

يقول الإمام القرطبى حول هذه الآية «لم يأت للأرض فى التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أى فى العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والإخبار.. فتعيين العدد»[2].

هذه إشارة الإمام القرطبى، وفيها نلاحظ أنه ـ رحمه الله تعالى ـ أشار ولمّح لبعض الأسباب التى لم يصرح فيها القرآن الكريم بأن الأرض ـ سبع أراضٍ ـ إلا فى هذه الآية، أيضا حتى فى هذه الآية جاء بما يشير إلى لفظ العدد والمعدود دون أن يذكر العدد والمعدود صراحة، يجيب الشيخ بقوله: «لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والإخبار، فتعيين العدد..» أى ما يشير إلى العدد، وذلك لأن الكيفية أو طبيعة كل صورة أرضية تختلف عن الأخرى، وهذا يعنى أن الصورة الدنيوية التى نحن فيها ومن طبيعتها، هى أيضا ذات صور ذات طبائع مختلفة ومتعددة، إذن فللأرض أيضا صور نورانية بصفات وخصائص متنوعة غير معلومة الهيئة والطبيعة يفسرها ويجليها لنا نبينا ورسولنا العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، وذلك حينما سأل عن معنى قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ قال أنها أرض بيضاء مسيرة الشمس ثلاثين يوما، مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يُعصى فى الأرض.. قالوا: يا

---

(١) سورة الطلاق: آية «١٢».

(٢) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ١/٢٥٩

رسول الله من ولد آدم. قال: لا يعلمون أن الله خلق آدم.. قالوا: يا رسول الله فأين إبليس منهم.. قال: لا يعلمون أن الله خلق إبليس ثم قال: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.. ذكره الماوردى[1].

إذن فهى سورة أخرى مستنسخة للأرض، بطبيعة وخصائص غير خصائص طبيعة الصورة التى سميت بالدنيا ونحن الآن عليها بصفتنا التى نعرفها، ولذلك رأيناه ﷺ يقول: «هى أرض بيضاء» إذن فهى صورة غير ما تعهد، منصوص على اختلاف طبيعتها، والدليل على ذلك أنه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ مستنسخ عليها صورة لجميع الجنس الإنسانى بطبيعة وخصائص غير الطبيعة والخصائص الآدمية، وذلك أن الخاصة الآدمية هى صورة خاصة بهذه الصورة الدنيوية للأرض إذ بطبيعتها الأدمة كون جسد الإنسان اصطفى ليستنسخ من خلاله الجنس الإنسانى بجمعه ويسمى باسمه ـ بنى آدم عليه الصلاة والسلام ـ لذلك كانت الصورة الأخرى هى ذات صفة وخاصية غير الصورة الدنيوية، فهى أى الدنيوية ذات أدمة، والأدمة هى السمرة ـ كما سبق وسوف يأتى بإذن الله تعالى ـ أما الصورة الأخرى فهى صورة بيضاء كما قال ﷺ «هى أرض بيضاء» لذلك فهم لا يعلمون عن آدم أى شىء، لأن الجنس ذو خاصية الآدمية والآدمية هم خاصون بالصورة الآدمية لأن آدم عليه الصلاة والسلام هو شخص من هذا الجنس جميعه اصطفى ليحمل خاصية الصورة التى سيكون عليها هو ومن يستنسخ من خلاله، لذلك فهو مسمى بخاصية من خواص ما سيعيش عليه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لذلك فهم فى الصورة الأرضية الأخرى لا يعلمون عن مسمى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه خاص بصورته ومن هنا لا يعلمون عن إبليس ـ نعوذ بالله تعالى منه ـ أى علم أو معرفة، ذلك لأن إبليس ـ نعوذ بالله تعالى منه ـ هو خاص بالصورة الأرضية الآدمية ذات غرض الاختبار والابتلاء ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لكن هل يعنى ذلك أن الجنس

(١) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ١/٨٠ و٢٥٩ ـ ١/٢٦٠.

الإنسانى الذى هو موجود على الأرض البيضاء هو غير الجنس الآدمى الموجود على الصورة الدنيوية؟ والإجابة.. إن المقصود بالغيرية أنهم جنس مخلوق غير الجنس الآدمى أصلاً فهذا لا - والله تعالى أعلم - وإن كان المقصود بالغيرية فى الطبيعة والخصائص والجنس هو هو، فهذا نعم، وهو ما يؤكده الخبر المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما حول قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: «فى كل أرض مثل إبراهيم وموسى.. إلخ. ونحو ما على الأرض من الخلق، هكذا أخرجه مختصرا وإسناده صحيح.. وأخرجه الحاكم والبيهقى من طريق عطاء بن السائب». عن أبى الضحى مطولا وأوله « ...أى سبع أرضين فى كل أرض آدم، كآدمكم ونوح كنوحكم، وإبراهيم كإبراهيمكم، وعيسى كعيسى، ونبى كنبيكم» قال البيهقى: اسناده صحيح إلا أنه شاذ بمرة.. وروى ابن أبى حاتم عن طريق مجاهد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأرضاهم قال: لو حدثتكم بتفسير هذه الآية لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها»(1).

إذن فآدم هناك هو كآدمنا من حيث هو إنسان من سائر الجنس الإنسانى وكذلك إبراهيم وموسى ونوح، أما من حيث المطابقة فى المثالية، فإن الخبر السابق المروى عنه ﷺ فقد بين قضية عدم المطابقة فى المثلية بقوله ﷺ: «على أرض بيضاء.. لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم.. ولا يعلمون ولا يعرفون عن إبليس شيئا». فقوله: «أرض بيضاء نفت هذه المثلية،وعدم العلم والمعرفة بآدم - عليه الصلاة والسلام - يشير إلى هذا وإن كان ضمنا وذلك لأن آدم الموجود على الصورة الأرضية البيضاء لو كان هو بنفس الخاصية والطبيعة التى هو بها على الصورة الأرضية الدنيوية، لعلم وعرف نفسه وتبعه على ذلك جميع الجنس الموجود معه على تلك الصورة البيضاء، ولكنه لما لم يعرف نفسه بتلك الخاصية والطبيعة الدنيوية علمنا أن المثلية منتفية بينهما وسائر الجنس معهما»، وهذه الإشارة يؤكدها ما أشار به الإمام القرطبى آنفاً حينما قال: «لم يأت للأرض فى التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل

(1) فتح البارى بشرح البخارى ابن حجر: ٣٣٨ - ٦/٣٣٩.

إلا قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أى فى العدد لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار فتعيين العدد ..».

أى أن المثلية هى ثابتة فى ناحية العددية فقط، أما من حيث الكيفية والهيئة والصفة فمختلفة بالمشاهدة.. إذن فآدم الأرض البيضاء هو آدم غير الصورة الدنيوية من حيث الخصائص الطبيعية، أما من حيث الجنس الإنسانى فهو هو - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا التعدد الصورى للصورة الأرضية ألا يشير إلى أن هذا الاستنساخ هو استنساخ كلى من كلى - أى من الكتاب رأسا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين فهى - أى الأرض هباء بطبيعة وخصائص معينة، ثم هى نورانية بخاصية أخرى كالتى مع ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - وكالأرض البيضاء الآنفة الذكر. ثم إن هذا الاستنساخ الكلى كان منه استنساخ فردى بداخله كل ما فى الكلى، وهو استنساخ آدم - عليه الصلاة والسلام - وذلك عند الاصطفاء - كما سيأتى بإذن الله تعالى - وذلك لأنه سيكون منه - أى آدم الفردى - استنساخ كلى كما حصل عند أخذ الميثاق والجنة ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾[1].. ثم سيكون منه - أيضا - استنساخ فردى كاستنساخ «أمنا حواء عليها السلام».. ثم عنهما معا أخذ ما سمى - ولايزال - بحمد الله تعالى وتوفيقه - بالتوالد - وسوف يأتى تفصيل لكل ذلك بإذن الله تعالى وهذا الاستنساخ - يعطينا مفهوما آخر، وهو أن الاستنساخ وإن تعدد وتنوع إلا أن الأصل باق، ولايزال فى «أم الكتاب» كما هو كلى ومفصل ومجزأ لكل واحد لا يتغير ولا يتبدّل إلا إذا أراد خالقه ذلك - سبحانه وتعالى - فنوح فى «أم الكتاب» هو نوح فى الهباء هو نفسه فى الأرض البيضاء، فى الصورة التى مع ملك الموت فى كل الصور، هو نفسه نوح الذى فى الصورة الدنيوية «فتبارك الله أحسن الخالقين» حتى وإن تغيرت الهيئات والخصائص.. ونمضى مع تعدد صور الخلق الإنسانى لنرى أن حقيقة الصورة الآدمية كيف أنها هى صورة من ضمن هذه

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٢

الصور المتعددة والمتنوعة، لكنها صورة لها خصائصها التى تميزها عن باقى الصور هى، فإذا كانت من تلك الصور ذات خاصية الاستنساخ الكلى فالصورة الآدمية، تختلف طبيعة استنساخها، فهى فردية من كلية مع احتوائها لكل الكلى بداخلها ليخرج عن طريقها فرادى فرادى وهكذا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومما يؤكد لنا أن الأصل واحد وإن تعددت كل تلك الصور للشخص فهو هو، كما يقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يتحدث عن أمر البعث، وكون الشخص المبعوث هو نفسه الشخص الذى كان فى الصورة الدنيوية يقول: «...ففى جميع ـ كل ـ هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هى نفسها فى المرة الأولى وإن تعدد الشخص، ولهذا يقال: هو مثله، ويقال: هذا هو هذا، وكلاهما صحيح. وأعنى بالحقيقة الأمر الذى يختص بذلك الشخص..»[1].

إذن فالحقيقة هى واحدة لذلك الشخص وإن تعددت صوره، كما يقول هو نفسه ابن تيمية فى مكان آخر فى كتابه الفتاوى وهذا القول لابن تيمية يجعلنا ننتقل للحديث عن صورة أخرى من مجموع هذه الصور للأصل الإنسانى المخلوق فى «أم الكتاب» ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذه الصورة المراد الحديث عنها هى صورة تحمل خصائص، وطبيعة أخرى لهذا الشخص الإنسانى، وقد تكون العودة بنا تقف عند طبيعة وخصائص هذه الصورة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فمع صورة ونسخة الظل.

مع صورة الظل:

إذن فما هى هذه النسخة أو الصورة وماذا تعنى؟

وقبل الإجابة عن ذلك، قد تسألنى من أين أتيت بهذه الإشارة لهذه الصورة والنسخة؟؟ والحقيقة، إننى لم آت بهذه الإشارة أو التسمية من عندى، وإنما هى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٥٤ المجلد ١٧.

مذكورة فى كتاب الله العزيز، وفى أحاديث الرسول ﷺ وفى إشارات الشرّاح والمفسرين من السلف الصالح ـ رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ـ فماذا قال عنها القرآن الكريم؟

يقول الله تعالى: ﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾[1].

هذه الآية الأولى، التى يمكن لنا أن نجعلها الآية الرئيسية للباب، وإلا فهناك آيات كثيرة جدا سوف ترد بإذن الله تعالى.. فماذا قال المفسرون عنها؟

قالوا: «إن كل شخص سواء كان مؤمنا أو كان كافرا فإن ظله يسجد لله» قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهاً.. وهو كاره.

قال الزَجّاج: جاء فى التفسير أن الكافر يسجد لغير الله.. وظله يسجد لله تعالى.. وعند هذا قال ابن الأنبارى: لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاماً تسجد بها وتخشع لله. كما جعل الله تعالى للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلى فيها كما قال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا..﴾[2].

هذا ملخص ما أشار به بعض المفسرين وجلهم لا يخرج عن هذا، اللهم إلا فى تغيير الألفاظ ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب ـ ومن مجمل هذا الملخص، ترى أن عمومه يشير إلى ما سبق الإشارة إليه من أن الحقيقة واحدة وإن تعددت الصور، فهذا الشخص الإنسانى الموجود فى الأرض، ترى أن القرآن الكريم يشير إلى أن له ظلا هناك ـ قد يكون فى الجنة كما سيأتى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ والإشارة كما تراها ـ تؤكد أن هذا الظل هو نسخة من هذا الإنسان الموجود فى الأرض، والدليل سجوده معه. إن هو سجد طائعا وسجوده لله

(١) سورة الرعد: آية «١٥».
(٢) تفسير الرازى: ١٩/٣٠.

تعالى حتى ولو كان هو فى الأرض كافرا - إذن فهذا الظل هو نسخة أخرى لهذا الشخص الإنسانى، هو صورة حية مدركة عاقلة، فاهمة لما تفعل، والدليل أنه يسجد هو هناك آن هو هنا - فى الدنيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عصى «طوعاً وكرهاً».. وهنا قد تسألنى من أين أتيت بالحياة لهذا الظل؟ أقول لك ليس فى الكون شىء إلا وهو يسبح لله خالقه ﴿وإن من شىء إلا يُسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ إذن فالقرآن يثبت التسبيح لكل شىء، إذن فكل شىء هو حى ناطق فاهم عاقل مدرك لما يعمل.. ولقائل يقول: ولم لا يكون التسبيح بلسان الحال. أقول لك: لا وألف لا. ذلك لأن القرآن الكريم يقول: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ إذن فالعيب والنقص فينا لعدم إدراكنا لتسبيحهم، النقص فينا لأن جهازنا الإدراكى لم يستطع إدراك تسبيحهم، ولأن ذلك حقيقة والنقص فينا، فقد أدرك أولئك السلف قديما وتلاميذهم من بعدهم وحديثا - أيضا - فهذا ابن الأنبارى يشير إلى ذلك بإشارة رأى فى معناها ما قد يخفف معنى النفى من بعض العلماء يقول: «لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخشع لله، كما جعل الله تعالى للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى..».

إذن فالعلماء منهم - والكثير - من قد أدرك تلك الإشارة، وعبّر عن إدراكه هذا. إذن فالنقص فينا لكوننا لا نفهم لغتهم. إذ جميعنا يعرف أن لكل خلق من خلق الله تعالى قانونه الذى يسير عليه فى كل حياته وشئونه، ومن ذلك لغته وطبيعة حياته فالنمل يتكلم ويَشعُر ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكا من قولها﴾ إذن فقد أثبت القرآن الكريم للنمل القول.. والقول لا يكون إلا مع العقل والإدراك لعواقب الأمور، إذن فكل شىء حى. فالجبال والطير أيضا تسبح وتفهم الخطاب والنداء «يا جبال أوبى معه والطير». لذلك يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى - وهو معاصر ولايزال حيا - حول هذه الناحية باختصار وتصرف من خلال أحاديثه التلفازية فيما معناه:

«إن حكاية الجمادية هذه، هى منفية بآيات القرآن الكريم ثم بإشارات العلم والكشوفات العلمية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين -

ولنرى ذلك باختصار قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ إذن فكل شىء مخلوق هو من الماء، ومادام من الماء فهو حى، ومعلوم علميا أن الماء يدخل فى تركيب كل العناصر العضوية منها وغير العضوية، وذلك لأبسط الأدلة، وجود المادة اللامعة فى تلك العناصر، إذ هذا اللمعان فيها يشير إلى وجود الماء فى تركيبها وشىء آخر، أنّا نجد القرآن الكريم نفسه يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾[1].. ثم يقول بعد ذلك: ﴿..ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حىّ عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾[2].

إذن فالحياة والهلاك هما من صفات المخلوق الحى العاقل المخاطب الفاهم المدرك، وذلك لأنه تعالى قال فى آخر سورة القصص: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾. إذن فهناك: ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾.. وهنا ﴿كل شىء هالك﴾ إذن فكل شىء هو حى لأن كل شىء هو هالك.. وذلك لأن من هنا ليست تبعيضية، بل هى بيانية، أى لتبين أن كل شىء حى فهو هالك ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إذن فلا جماد إذ الكل حى.

إذن فالظل حى لا جامد.. هو متحرك، لأنه راكع وساجد، وما دام حيا فهو عاقل فاهم مدرك لحقيقة ما يفعل، لذلك فهو يخالف صورته الأرضية إن هى كفرت وعصت ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ولتوضيح هذه الإشارة أكثر يقول الشيخ ابن عربى «العالم كله حى ناطق.. يقولون: لابد أن يكون المكلف عاقلا بحيث يفهم ما يخاطب به وصدقوا وكذلك هو الأمر عندنا، إذا العالم كله عاقل حى ناطق وهذا ثابت من جهة الشرع والكشف غير أنهم قالوا: هذا جماد لا يعقل.. ووقفوا عندما أعطاهم بصرهم.. والأمر عندنا بخلاف ذلك. فإذا جاء عن نبى أن حجرا كلمه وكتف شاة، وجذع نخلة وبهيمة.. يقولون: خلق تعالى فيه

(١) سورة الأنفال: آية «٢٤».
(٢) سورة الأنفال: آية «٤٢».

الحياة والعلم فى ذلك الوقت.. والأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة سار فى جميع العالم وأن كل من يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلا من علم.. وهذا ثابت»»[1].

إذن فسر الحياة هو موجود فى كل شىء، كيف لا، وهذا السر وعنصره الأساسى - مهما كان - آت من الماء، سواء كان ذلك من العالم المجرد الروحانى، أو غيره.

يقول الإمام القرطبى والإمام الرازى حول آيتى الأنبياء والنور ما نصه: قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ «الأنبياء». وقال الله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ «النور».

قال القرطبى - باختصار شديد - لا يُستثنى الجن ولا الملائكة يعنى من خلقهم من الماء بل كل حيوان خلق من الماء خلق النار، وخلق الريح من الماء إذ أول ما خلق الله تعالى من العالم هو الماء ثم خلق منه كل شىء»[2]. وأظن أن أكثر منه صراحة وإيجازاً - أيضاً - هو قول الإمام الرازى حول ذلك: «إن أصل جميع المخلوقات الماء..»[3].

إذن حتى الأشياء التى لاتزال هى أقرب فى تركيبها إلى النورانية - الطاقة - هى أيضا خلقت ووجدت من الماء كيف لا؟! ألم نقل اليوم فى دنيانا إن الماء أصله عنصر مركب من ذرتين، أكسجين وهيدروجين، وهذه الذرات ترى ما هو أصلها أليست هى جزيئات جسيمات الضوء وذلك كله، أليس هو طاقة؟؟ بلى.

إذن فالظل هناك هو صورة ونسخة منى هنا.. هو ظل هناك وأنا صورة هنا وأنا ظل له هنا وهو صورة لى هناك، ولنرى تعليقاً على ذلك قد يكون هو أقرب من هذا المفهوم وأكثر علمية لتوضيح نورانية الظل مما قلنا - والله تعالى أعلم بالحقيقة

(١) الفتوحات المكية: ٢٢٨ - ١/٢٢٩
(٢) القرطبى: ١٢/٢٩١.
(٣) تفسير الرازى: ٢٤/١٦.

والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا التعليق هو للشيخ ابن عربى أوجزناه من كلام طويل له حول آية الظل نفسها يقول فيه « ..وكل منفصل عن شيء فقد كان عامرا لما عنه انفصل، وقد قلنا: إنه لا خلاء فى العالم، فعمر الشيء المنفصل موضع انفصاله بظله.. إذ كان انفصاله إلى النور، وهو الظهور. فلما قابل النور بذاته امتد ظله، فعمر موضع انفصاله فلم يفقده من انفصل عنه. فكان مشهودا لمن انفصل عنه وهو المعنى الذى أراده القائل بقوله: «شهدتك موجودا بكل مكان» فمن أسرار العالم، أنه ما من شيء يحدث إلا وله ظل يسجد لله ليقوم بعبادة ربه» على كل حال سواء أكان ذلك الأمر الحادث مطيعا أو عاصيا، فإن كان من أهل الموافقة كان هو وظله على السواء وإن كان مخالفا كان ظله منابه فى الطاعة لله، والله تعالى يقول: ﴿وظلالهم بالآصال﴾.

فالظلالات: أبدا تابعة للصورة المنبعثة عنها حسا ومعنا.

فالظل الحسّى قاصر، لا يقوى قوة الظل المعنوى للصورة المعنوية، لأن الظل الحسى يستدعى نوراً مقيداً، لما فى الحس من التقيد والضيق وعدم الاتساع ولهذا نبهنا على الظل المعنوى بما جاء فى الشرع الحنيف، من أن «السلطان ظل الله فى الأرض..» فبان لك أن بالظلالات عمرت الأماكن..»[1].

هذا ما أوجزنا من كلام ابن عربى حول الآية السابقة، وترى أنه يشير بذلك إلى قضية نورانية الصور وكثافتها، أى أن الصورة الكثيفة هى نفسها الصورة المعاكسة لها وهى منها بل كلاهما هما، ولذلك تراه يقول: «فالظلالات: أبدا متابعة للصورة المنبعثة عنها حسا ومعنى..» إذن فالظل هو صورة نورانية ذات خصائص نورانية معينة، أى أنها صورة وسطية بين ما قبلها ـ مثلاً صورة الهباء ـ وصورة ما بعدها وهى مثلا الصورة الدنيوية، ولذلك يقول: أنه لا خلاء، أى أن أى مكان حينما يتركه أمر ما إلى مكان آخر، فإن ظله يعمر مكانه الذى كان لما انفصل عنه، ومن هنا يقول: «امتد ظله إلى مكان انفصاله حينما قابل النور، لذلك فهو مشهود لما عنه انفصل..

(١) الفتوحات المكية: ٢/٣٠٢.

لذلك فهو هو - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالظلالات هى صور لأصحابها، وأصحابها ظلالات وصور لها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك نراه يؤكد ما أشار إليه آنفا، فى مكان آخر من كتابه وذلك أثناء حديثه عن قضايا العالم الروحانى - الطاقة - وصوره، وكيفية تشكل هذا العالم.. وكيف - أيضا - أن صوره وأن كثرت، كلها آتية من صورة واحدة هى أصل لجميعها حتى أنه إن صادف وقتلت صورة له من تلك الصور الكثيرة، أدى ذلك لأن تقتل الصورة الأساسية لجميع كل الصور، وموتها أيضا هى الأخرى جميعا.. وذلك لأن أى واحدة منها هى مقيدة للأصل ولجميعها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يقول ابن عربى حول ذلك كله وغيره، ما نوجز منه قدر الاستطاعة «..ثم نرجع ونقول: وإن هذا العالم الروحانى إذا تشكل وظهر فى صورة حسية يقيدُه البصر بحيث لا يقدر الروحانى أن يخرج عن تلك الصورة مادام البصر ينظر إليه بالخاصية، ولكن من الإنسان، فإذا قيده البصر من الإنسان لم يبرح ناظرا إليه، وليس له - أى الروحانى - موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الروحانى صورة جعلها عليه كالستر، ثم يخيل الروحانى له مشى تلك الصورة إلى جهة مخصوصة، فيتبعها الإنسان بصره. فإذا أتبعها بصره خرج الروحانى عن تقيده، فغاب عنه، وبمغيبه تزول تلك الصورة عن نظر الناظر الذى أتبعها بصره. فإنها - أى الصورة - للروحانى كالنور مع السراج المنتشر فى الزوايا نوره، فإذا غاب جسم السراج فقد ذلك النور، فهكذا هذه الصورة، فمن يعرف هذا ويحسب تقييده - أى تقييد الروحانى - ببصره، لا يتبع الروحانى بصره. وهذا من الأسرار الإلهية التى لا تعرف إلا بتعريف الله تعالى.

وليست الصورة غير عين الروحانى، بل هى عينه، ولو كانت فى ألف مكان أو فى كل مكان وإذا اتفق قتل صورة من تلك الصور وماتت الصورة فى ظاهر الأمر، انتقل ذلك الروحانى من الحياة الدنيا إلى البرزخ، كما ننتقل نحن بالموت، ولا يبقى له فى عالم الدنيا حديث مثلنا سواء بسواء، وتسمى تلك الصور المحسوسة التى

تظهر فى الروحانيات، أجساداً، وهو قوله تعالى: ﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾ وقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام﴾(١).

إذن فالصورة هى عين أصلها ولو كثرت فى تعددها وتنوعها، وتغيرت هيئتها وأشكالها حسب قوانين أماكن تواجدها فيها، وأن هذه الصور إنما هى نسخ أخذت من ذلك الأصل الواحد لها، لحكم وأهداف يريدها خالقها لا نعلمها نحن ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن هنا يتضح لنا أن الظل هو صورة من ضمن هذه الصور المتعددة، ولكنها صورة لها قانونها وحكمتها وهدفها، والتى قد تتضح منها بعض الجوانب من خلال سير حديثنا ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ وقبل أن نمضى فى الحديث مع قضايا الصورة والظل.

لرب سائل يسأل ويقول: لقد سبق أن قلت فى أثناء عرضك السريع هذا إن الظل يسجد لله هو وصاحبه إن كان صاحبه طائعا معه.. ويسجد لله كرها وإن خالفه صاحبه حالة كفره ومضيت فى حديثك لتقول لنا فى عرضك إن الظل هو صورة من مجموع صور استنسخت من صورة تعتبر هى أصل لكل تلك الصور وذلك أن أى حركة تصدر من ذلك الأصل أو أى صورة مستنسخة منه، هى حركة تؤديها جميع الصور معا ـ بدليل قولك: إن موت أى صورة منها هو موت لذلك الأصل ولجميع الصور.. إذن فكيف تخالف الصورة الظل الصورة الموجودة فى الدنيا فى بعض حركاتها وأفعالها؟؟ وخصوصا فى حالة العصيان والكفر.. مع أنها هى هى.

مع استفسار وقضيـة:

هذا هو الاستفسار.. ونحن بدورنا نقول لهذا السائل: إن ما قلناه لا يخلو ـ بمشيئة الله تعالى ـ عن الحقيقة أو حتى بعض منها، كما أشارت إلى ذلك النصوص القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ وشراحهما ـ وقد سبق أن أشرنا بمثل ما سأل عنه أخونا السائل، ولكن قد يكون ذلك تم بصورة موجزة.. ومن ذلك أذكر أن قلنا أن

(١) الفتوحات المكية: ٢٨٤ ـ ١/٢٨٥.

تعدد وتنوع تلك الصور إنما نشأ بسبب تعدد وتنوع الأمكنة الناشئة فيها تلك الصور ـ بوجودها فيها ـ أى تلك الصورة يتحتم عليها أن تأخذ طبيعتها، وهذه الطبيعة معلوم أن لها قانون يحكمها، إذن فكل صورة من تلك الصور هى محكومة بقانون مكان تلك الطبيعة وعليه تسير حياتها وحياة كل من وما فيها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وأظن أن هذا هو هدف وحكمة من أهداف وحكم هذا التنوع والتعدد المكانى والصورى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فمثلا لو أخذنا صورة النشأة الدنيوية، مع صورة الظل هذه، لربما اتضح لنا ما سألنا عنه ـ بعون الله تعالى وتوفيقه ـ فصورة الظل هذه ـ كما سنرى ذلك بمشيئة الله تعالى بعد إجابة هذا السؤال ـ أن طبيعتها بمشيئة الله تعالى وفضله نورانية، وأنها أيضا موجودة فى مكان نورانى، إذن فطبيعة صور الظل حتما ستكون من طبيعة هذا المكان النورانى ـ لهذا فما يحكمها ـ سيكون هو قانون الطبيعة النورانية.. أما صورة النشأة الدنيوية، فهى طينية لتوافق طبيعة مكانها التى هى موجودة فيه ـ وطبيعة مكانها هذا هو الكثافة. لذا فقانونها الذى سيحكمها هو قانون الكثافة إذن فما هى خصائص طبيعة قانون كل من المكانين؟ من جانب السؤال فقط؟ ومن المعلوم أن من خصائص قانون الطبيعة النورانية والثابتة شرعاً ـ كما ورد ذلك فى النصوص القرآنية والحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم ـ أنها مجبولة ومن فيها على الطاعة والتسليم لخالقها، وأنها مفطورة على عدم العصيان والمعصية، وأنها لا يمكن أن يتصور منها مخالفة تلك الجبلة، والفطرة. لذلك قال عنهم ـ أى عمن فى تلك الطبيعة ـ خالقهم عز وجل: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1] ولا يمكن أن يخرجوا عن تلك الطبيعة، والتى هى أيضا سبب وجود العالم.. أما النشأة الدنيوية فخاصتها الاختيار والحرية المترتب عليها التبعة المرتبطة بقانون المجازاة والثواب ـ والعقاب ـ قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ولكنه ـ تعالى

(١) سورة التحريم: آية «٦».

ـ خصنا نحن والجن بالذكر ،والجن هنا كل مستتر من ملك وغيره وقد قال تعالى فى حقّ السموات والأرض ﴿ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ وكذلك قال: ﴿فأبين أن يحملنها﴾.

وذلك لما كان عرضاً، أما لو كان أمرا لأطاعوا وحملوها، فإنه لا يتصور منهم معصية وإنما جبلوا على الطاعة.. والجن ـ النارى ـ والإنس ـ الطينى ـ ما جبلا على ذلك.

إذن فالإنسان أصله هناك طائع ساجد، عابد لخالقه، لا يعصيه أبداً، لأن فى مكان طبيعته الطاعة والخضوع والخشوع لخالقه(١).

أما صورته فى عالم الاستحالة والكثافة، العالم الطينى، عالم الاختيار.. والاختيار والابتلاء طبيعتها.. أو كما قال تعالى فى القرآن الكريم عنها: ﴿وهديناه النجدين﴾، إذن فهو فى هذه الطبيعة حر مختار والعقوبة والثواب ينتظران ما اختار. إذن فالطاعة أصل والمخالفة والعصيان هنا شذوذ وتمرد وخروج عن الأصل ولذا جاء الاستغراب والاستنكار من الخالق جل سناه ـ على هذا الخروج ـ فقال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾.. وقال جل سناه: ﴿ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾، وقال سبحانه: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أوتقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

إذن فالأصل هنا وهناك الطاعة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وعلى ذلك عاهدنا، فإن وافق فعلنا فى عالمنا الاستحالى الطينى الاختيارى، فعلنا هناك فى العالم النورانى، فهو الأصل، وإن خالف فعلنا هنا ما هناك فهو الشذوذ والتمرد المستحق للجزاء والعقوبة.. ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ

(٢) الفتوحات المكية: ٢/٢٢٨.

قوله لبلال رضى الله عنه: عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لبلال غداة: «يا بلال حدثنى بأرجى عمل عندك فى الإسلام منفعة فإنى سمعت الليلة خشف نعليك بين يدى فى الجنة، قال بلال: ما عملت عملا فى الإسلام أرجى عندى منفعة من أنى لا أتطهر طهورا تاما فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لى أن أصلى» رواه مسلم والبخارى ولفظه: سمعت: دف نعليك بين يدىّ فى الجنة(1).

إذن فهذا حديث رسول الله ﷺ يؤكد ما أشرنا إليه فبلال رضى الله عنه وأرضاه هو موجود مع الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين فى الدنيا، ويسمع رسول الله ﷺ مشيه بين يديه فى الجنة ترى هل بلال صعد مع رسول الله ﷺ إلى الجنة، أو أنه لايزال باقيا فى الدنيا، أظن لا أحد يجادل فى أن وقت سؤال الرسول ﷺ لبلال رضى الله عنه وأرضاه كان لايزال فى الدنيا، إذن فبم تفسر ذلك أبرؤيا منامية؟!! حتى ولو كانت رؤيا منامية فرؤيا الرسول ﷺ وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هى رؤيا حق بل بها قام تشريع كثير من القضايا. إذن فماذا يعنى ذلك؟ ألا يعنى ذلك ويشير إلى أن هناك نسخة وصورة أخرى لبلال رضى الله عنه وأرضاه موجودة فى الجنة غير التى هى موجودة فى الدنيا، وبلال يقوم هنا - فى الدنيا - ويمشى فى الوقت الذى سمعه رسول الله ﷺ هناك، ومعلوم أن المكان الذى سمع رسول الله ﷺ مشى بلال رضى الله تعالى عنه وأرضاه هو مكان جزاء عمل، وعمل حسن، إذن فمشيه ذاك كان مشى خير، فتحرك بلال هناك طاعة كتحرك بلال هنا لأداء طاعة، إذن فالصورة هنا هى الصورة هناك لبلال رضى الله تعالى عنه وأرضاه. وكما كانت صورة بلال رضى الله تعالى عنه فى الجنة كما وجدها رسول الله ﷺ أيضاً رأى فى الجانب المعاكس صورا أخرى، وأين؟ إنها فى النار وكما استغرب رسول الله ﷺ لوجود بلال فى الجنة وهو لايزال حيا فى الدنيا، زاد فى استغرابه ودهشته ﷺ أنه رأى صورا تعذب فى النار أو هى موجودة فيها ولكنه لم ير

(1) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص»: ٣٦٤ - ٣/٣٦٥

نسختها الدنيوية موجودة على ظهر الدنيا، مما زاد عجبه ﷺ، وذلك لأن الصورة التى كانت لأجلها العقوبة لما رآها ﷺ هناك فى النار ليست هى موجودة فى الدنيا، التى هى دار الامتحان والاختبار، ولذلك قال ﷺ - بما معناه - عرضت على النار فرأيت أصنافها على الدنيا، إلا صنفين: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات.. إلخ. لم أرهن إلى الآن - أو ما فى الحديث - إذن فصورة النار هى موجودة هناك، لكن صورتها الدنيوية لم يحن وجودها بعد فى زمنه ﷺ، وقد رأيناهم نحن فى زمننا هذا - نسأل الله تعالى العفو والسلامة - إذن فهذا يؤكد لنا حقيقة تعدد الصور وتنوعها والأصل لها جميعاً واحد وإذا أردنا أن نقف عند النص النبوى الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم - قليلا، ترى ما الإشارة الأخرى التى يمكن لنا أن نخرج بها من خلال دلالاته الكثيرة المتنوعة.

وبالتأمل فى هذا النص ترى أنه يعطينا مفهوما آخر يرتبط بصورة الظل وهذا المفهوم هو أن الظل هو الصورة الخاصة بمكانى الجنة والنار، وهنا قد تسألنى وتقول: من أين أتيت بهذا المفهوم؟ والنص الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم - لم ترد فيه أية إشارة تشير إلى دلالات الظل؟؟ ولم يرد فيه لفظ يحمل أى مسمى للظل؟؟

وهنا أقول لأخى السائل: لا بل النص الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم - جاء فيه ما يشير إلى دلالة الظل.. ألم يرد فى النص الشريف قوله ﷺ: «..بين يدى فى الجنة» ولفظ الجنة إذا ذكر ذكرت معه دلالات الظل ولو ذهنيا وكذلك النار - أعاذنا الله تعالى منها جميعا - ولا نذهب بعيدا فهذه آيات القرآن الكريم المشيرة إلى ذلك قد ملىء بها المصحف الكريم.. وسوف نستعرض - بمشيئة الله تعالى - الآن بعضا من الآيات القرآنية التى أشارت إلى ذلك.

الجنة والنار وصور الظل فى القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون. ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من

دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[١].

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب.لا ظليل ولا يغنى من اللهب﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿فى ظلال وعيون﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿وظل ممدود﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وظل من يحموم ❖ لابارد ولا كريم﴾[٨]

وقال تعالى: ﴿وندخلهم ظلا ظليلا﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون﴾[١٠].

وقال تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾[١١]، وقال تعالى: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾.

هذه بعض آيات من القرآن الكريم ورد فيها لفظ الظل. وسنلاحظ من إشارات بعض المفسرين والتى سوف نوجز منها ما يتيسر، سنلاحظ قضايا كثيرة جدا، منها

---

(١) سورة النحل: الآيات «٤٨ ـ ٥٠».
(٢) سورة الفرقان: آية «٤٦».
(٣) سورة القصص: آية «٢٤».
(٤) سورة فاطر: آية «٢١».
(٥) سورة المرسلات: الآيتان «٣٠ . ٣١».
(٦) سورة المرسلات: آية «٤١».
(٧) سورة الواقعة: آية «٣٠».
(٨) سورة الواقعة: الآيتان «٤٢ ـ ٤٤».
(٩) سورة النساء: آية «٥٧».
(١٠) سورة يس: آية «٥٦».
(١١) سورة الرعد: آية «٣٥».

مثلا أن الظل صورة ونسخة مستنسخة لهذا الإنسان فى ذلك العالم الروحانى وسنلاحظ - بإذن الله تعالى ومشيئته - أن هذه الصورة الظلية هى فى مكان هو من جنسها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى فيه شيء موجود متحرك ملموس، ولكن بخصائص وقانون غير ما نعهد ونعلم، وقد نكون نحن هنا منه تحولنًا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره حول قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل..﴾.

يقول: الاستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال وفيه مسائل كثيرة، فمن ذلك أن الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع إلى وجهين:

الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص، وبين الظلمة الخالصة، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس.. وكذلك الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس.

وأما الضوء الخالص، وهو الكيفية الفائضة من الشمس، فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية، وهى مؤذية.. فإذن أطيب الأحوال «هو الظل» ولذلك وصفت الجنة به فقال تعالى: ﴿وظل ممدود﴾.. وإذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه وتعالى بيّن أنه من النعم العظيمة، والمنافع الجليلة.. ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئا سوى الجسم وسوى اللون.

ونقول: الظل ليس أمراً ثالثا، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم،زال ذلك الظل، فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف للظل وجود وماهية، لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس ما عُرف الظل.. ولولا الظلمة لما عرف النور.. فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس وزال الظل.. فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون، فلهذا قال سبحانه

وتعالى: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ أى خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات، ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده، بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه. أى أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا، فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا، وكذا زوال الإظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلفت المصالح.. والمراد بالقبض الإزالة والإعدام.. هذا هو أحد التأويلين.

التأويل الثانى:

وهو أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض ثم إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الشمس دليلا عليه، وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الظلال، فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر كما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل يلازمه، فكذا الظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضداد فلهذا جعل الشمس دليلا عليها.

فإن قيل: الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضىء فكيف استدل بالأمر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم؟

قلنا: الظل ليس عدما محضا، بل هو أضواء مخلوطة بظلمة.

والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى.. وهو أمر وجودى(1).

هذا موجز لما أورده الإمام الرازى ملخصا لما قاله كثير من علماء الفكر الإسلامى قديما وبعض المفسرين ومنه نستشف أن الرازى يدور من خلال ما أورده حول نقاط كثيرة من أهمها نورانية هذه الظلال وكونها أمر وجوديا قائما بنفسه، بل هو شىء من شىء مثله وإن اختلف عنه فى خصائصه كلها أو بعضها، لذلك نجده

---

(1) التفسير: الرازى: ٨٨ ـ ٢٤/٨٩.

يركز كل ما قيل عن الظل فى آخر ما أورده فى كلمات قليلة معدودة مركزة، فانظر إليه وهو يقول: «والحقيقة أن الظل عبارة عن الضوء الثانى، وهو أمر وجودى». إذن فهو الضوء الثانى.. ترى لأى شىء وما هو الضوء الأول. وتراه يركز على نورانية الظلال بقوله «وهو أمر وجودى» فقوله: أمر أى شىء نورانى، لأن الأمر عندهم هو الأشياء النورانية - وسيأتى توضيح ذلك فى مكانه بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - أما قوله «وجودى» فهو إشارة منه إلى الإيجاد والإخراج الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن ما فى الدنيا، هو إنشاء وكما سبق وسوف يأتى فى مكانه - بأمر الله تعالى وتوفيقه - ولذلك يعود ثانية ليؤكد حقيقة هذا الإيجاد النورانى بقوله: «فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودا وماهية، لأن الأشياء تعرف بأضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور» لذلك فهما متعاقبان متلازمان.. أتراه يقصد بهذا التلازم الضوء الأول والضوء الثانى، ممكن لم لا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك تلاحظ أن الظل عندهم أى من لخص الرازى أقوالهم، وهو معهم فى رأيهم - والله أعلم - هو حالة وكيفية وصفة، لمرحلة كلها بهذه الهيئة الخاصية والصفة، بل بهذا القانون النورانى - أيضا - تدار وتُسَيِّر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكل ما فى تلك المرحلة بناء على ذلك هو من طبيعتها الظلية - النورانية، ولذلك فالمخلوق الإنسانى فيها هو أيضا من طبيعتها.. ولذلك يقول الرازى: وإذن فأطيب الأحوال هو الظل، ولذلك وصف الله تعالى الجنة فقال: ﴿وظل ممدود﴾ وقال: ﴿أكلها دائم وظلها﴾، وقال: ﴿ونُدخلهم ظلا ظليلا﴾. إذن فالجنة من هذه الطبيعة الظلية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك النار، هى موجودة فى هذا المكان ذى الخاصة الظلية وهى من جنسها، ولكنها بنوعية تخالف ما عليه خاصية الجنة لكون هذه الصورة تشملهما معا، ولكن قد يكون التباين فى خاصية طبيعة كل واحدة منهما، وإن كانت الصفة العمومية لقانونهما هى واحدة، وهذا قد يظهر لنا من خلال وصف ظل كل واحدة منهما كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم. فإذا كانت الطبيعة

الظلية هى الصفة العامة، فإن القرآن يقول عن ظل الجنة بأنه ﴿وندخلهم ظلاً ظليلا﴾ إذن فهو ظل ظليل، وبارد كريم، وممدود، أما ظل النار فهو كما ذكر القرآن الكريم: ﴿انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغنى من اللهب﴾. فإذا كان ظل الجنة ظليلا فالنار ليس بظليل، لأنه نار «لا بارد، ولا كريم» لأنه «ظل من يحموم» ولكنهما مع ذلك تشملهما الخاصية النورانية معا، والاختلاف إنما هو فى صفات ظل كل واحدة منهما.. بل إن النورانية هى طبيعة وخاصية كل شىء موجود فى هذه الصورة المرحلية، وهذه الدلالات التى لخصها لنا الإمام الرازى نجد مثلها تاما - وإن كانت موجزة - فى كتاب جامع أحكام القرآن الكريم للإمام القرطبى، وهو كتاب جَمّاع أى كتاب يحوى كثيرا من أقوال مشايخ التفسير ومن ذلك هذه الإشارة التى يرويها الإمام القرطبى فى كتابه هذا عن حَبر الأمة وترجمان القرآن الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما - حول قوله تعالى - فى آية الفرقان السابقة: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ يقول: «أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شىء ومعنى، لأن الأشياء تعرف بأضدادها، ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة..»(١).

إذن فجميع المفسرين يكادون يلتقون عندما أشرنا إليه وهو نورانية الظل فابن عباس رضى الله تعالى عنهما - يشير إلى أن الظل هو شىء ومعنى فقوله شىء أى أنه مخلوق قائم بذاته وخصائصه وقانونه، وقوله معنى يعنى أن هذا الشىء هو أمر من الماهيات والكيفيات أى أنه طاقة نورانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وسوف يأتى الحديث عن لفظة (شىء) فى مكانها بأمر الله تعالى وإذنه - إذن فكل شىء فى هذه المرحلة - صورة الظل - هو من جنسه وهو حى متحرك عاقل فاهم، كما سبق فى آية الرعد، وغيرها كثير فى القرآن الكريم، كهذه الآية الواردة فى سورة النحل وهى تؤكد حقيقة ما أشارت إليه آية الرعد قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾(٢).

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ١٣/٣٧.

(٢) سورة النحل: آية «٤٨».

يقول الإمام الرازى حول هذه الآية: ثبت أن المراد بهذا السجود - هو - الانقياد والتواضع، ونظيره قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ وقوله: ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ - وقد مر بيانه وشرحه - وكان الحسن يقول: أمّا ظلك فسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد له بئسما صنعت. وقال مجاهد: ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى. وقيل: ظل كل شىء يسجد لله سواء كان ذلك - أى صاحب ذلك الشىء - ساجدا أم لا وقوله: ﴿وهم داخرون﴾ أى صاغرون يقال: ادخّر يدخّر ادخاراً: أى صغُر يصغُر صِغارا، وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أم أبى، وذلك لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وهم «داخرون» حال - أيضا - من الظلال، فإن قيل: الظلال ليست من العقلاء فكيف وصفهم بالواو والنون.. قلنا لأن الله تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء(1).

إذن فالله سبحانه وتعالى يؤكد لنا بطرق كثيرة وإشارات إذا وردت فى لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم عرف منها أهل هذه اللغة أن من وصف أو وصفوا بتلك الإشارات هم من أهل العقل والفهم والإدراك، وإلا لما وصفوا بهذه الأشياء، قالوا والنون عندهم، لا تلحق من صيغ الجمع إلا صيغة المذكر السالم، والمذكر السالم يقصدون به الإنسان، ولذلك فغير العاقل لا يجمع ولا يوصف بهذه الصفة وإنما له صيغته التى تخصه عندهم، بل حتى ولو كان هذا المخلوق عاقلا وهو من غير الجنس الإنسانى، فإن صيغة جمعه لا تلحقه الواو والنون، فمثلا الملك هو مخلوق عاقل مدرك، ولكنهم إذا جمعوه لا يلحقون به الواو والنون بل يقولون ملائكة بتغير صورة مفردة عند جمعه، ولكن كيف وصفت الظلال بهذه الصفة العقلية - كما قال صاحب النص - وهم ليسوا من أهل العقل. قلنا لأن الحق جل سناه، لما ألحق بهم هذه الواو والنون وهى تَخُص الجنس الإنسانى العاقل، وأكد - سبحانه - هذه الإشارة بإشارة أخرى تعم جميع الخلق العاقل من إنس وملائكة وجن، وهى صفة الطاعة والدخور - كما قال صاحب النص - فالطاعة والصغر لا يوصف بها إلا العقلاء، إذن

(1) تفسير الرازى: ٢٠/٤٣.

فالظلال خلق عاقل مدرك فاهم، لهذا فالظلال صورة مستنسخة لهذا الخلق ومنهم الإنسان ـ أى الخلق الموجود فى الصورة الدنيوية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أما قضية هل كل من فى الصورة الدنيوية كلهم عقلاء؟ قلنا: هناك تفصيل أى أن العقلاء فيهم من هو عاقل مختار ـ فى الدنيا ـ ومنهم من هو عاقل جبلى كما سبق.

إذن فأى شىء مخلوق فى هذه الصورة الدنيوية يكون له ظل مثله ـ تماما ـ وهو صورة أخرى له فى صورة مكانية أخرى، لها قانونها وخصائصها وطبيعتها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وإن جميع هذه الصور هى مأخوذة من أصل واحد موجود فى «أم الكتاب» ـ كما سبقت الإشارة إليه فى البداية بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ ولذلك نجد الإمام الرازى ـ رحمه الله تعالى يقول عن هذه الإشارة أثناء حديثه عن قوله تعالى عن الجنة ﴿وظل ممدود﴾ «الواقعة».

يقول: هناك وجوه كثيرة حول هذه الآية منها:

الأول: ممدود زماناً: أى لا زوال له، فهو دائم كما قال تعالى: ﴿أُكلها دائم وظلها﴾ أى كذلك.

الثانى: ممدود مكاناً: أى يقع على شىء كبير ويستره من بقعة الجنة.

الثالث: المراد ممدود: أى منبسط كما قال تعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ فإن قيل: كيف يكون الوجه الثانى نقول: الظل، قد يكون مرتفعا فإن الشمس إذا كانت تحت الأرض يقع ظلها فى الجو فيتراكم الظل فيسوَدُّ وجه الأرض، وإذا كانت على أحد جانبيها وهى قريبة من الأفق، فينبسط على وجه الأرض فيضىء الجو، ولا يسخن وجه الأرض فيكون فى غاية الطيبة. فقوله تعالى: ﴿وظل ممدود﴾ أى عند قيامه ممدوداً على الأرض، كالظل بالليل، وعلى هذا فالظل ليس ظل الأشجار ـ أى فى الجنة ـ بل هو ظل يخلقه الله تعالى[1].

---

(١) تفسير الرازى ـ المرجع السابق.

إذن فالظل الوارد فى الآية المذكورة ﴿وظل ممدود﴾ لا يقصد به ظل الأشجار المخلوقة فى الجنة، لا بل هو خلق آخر قائم بنفسه، كما رأينا حول ما قاله رسول الله ﷺ لبلال رضى الله تعالى عنه وأرضاه «لقد سمعت الليلة خشف نعليك فى الجنة»، ألا يشعرنا ذلك أن بلال ـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه ـ الموجود فى الصورة الدنيوية هو نفسه بلال الموجود هناك فى الصورة الظلية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إذن فالجنة كلها ظل وذلك لأن طبيعة المكان هى الظل، وهو قانونها أى أنها صورة مستنسخة من الأصل «أم الكتاب» لها مكانها وخصائصها، كما أن الصورة الأرضية لها طبعها وخصائصها، كما أن الصورة الموجودة فى السماء الدنيا لها كذلك خصائصها.. فالأصل واحد وإن تعددت الصور واختلفت طبائعها ألا نذكر ما قاله الإمام القرطبى حول قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ألم ينقل لنا ما روى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، أنه قال: «فى العرش مثال كل شىء خلقه الله تعالى، فى البر والبحر» وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

إذن ففى العرش لنا صورة ومثال ـ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى البداية بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ وما رآه أبونا آدم عليه الصلاة والسلام «فى يدى ربى من صورة ـ وكلتا يدى ربى يمين ـ له ولذريته وفى «أم الكتاب» صورة موجودة ومنه استنسخ الإيجاد.

وقفة مع لفظ فى آية قرآنية

والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين، ولنا فى «اللوح المحفوظ» مثال إن ثبت أنه غير «أم الكتاب» أى صورة مستنسخة قائمة بنفسها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إذن فكل شىء مخلوق وموجود كان أو منشأ، له أكثر من صورة طبق الأصل للمثال الأصل، أى أن ذلك الشىء والمثال الأصل أوجد منه صوراً متعددة منها صور نورانية بخصائص مختلفة، منذ أن قال الحق جل سناه «للقلم اكتب..» وقد مضى الحديث عنها ـ بحمد الله

وتوفيقه - ثم أخذت تلك الصور بعد ذلك تنتقل بأمر الله تعالى وإذنه فى صور وجودية متنوعة، ومتعددة لتأخذ بعد ذلك صوراً إنشائية بخصائص متنوعة ومتعددة حتى تصل منها صورة خاصة بالبيئة الدنيوية، بيئة وعالم الاستحالة والفناء، لتأخذ بعدها رحلة العودة كما قال جل شأنه: ﴿إليه ترجعون﴾ وأظن أن هذه إشارة من إشارات ما رمز إليه بقوله: «كل شىء خلقه الله تعالى فى البر والبحر».

وإذا أردنا إشارة أوسع حول هذه الآية نفسها ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه..﴾ فهذا الإمام الفخر الرازى يقول فى تفسيره الكبير: «قال الواحدى - رحمه الله تعالى - الخزائن جمع الخزانة، وهى اسم المكان الذى يُخزن فيه الشىء، أى يُحفظ، والخزانة - أيضا - عمل الخازن.. ويقال: خزن الشىء يخزنه إذا أحرزه فى خزانة.. وعامة المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾.. هو المطر.. وذلك لأنه هو السبب للأرزاق لمعاش بنى آدم وغيرهم من الطيور والوحوش.

ولقائل أن يقول: «لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى، فإن قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ لا يدل على أنه تعالى ينزله فى جميع الأعوام على قدر واحد، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل.. وأقول أيضا تخصيص قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾ بالمطر تحكم محض، لأن قوله: ﴿وإن من شىء..﴾ يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل.. وقوله: ﴿إلا عندنا خزائنه﴾.. إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى.. وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له تعالى ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف يشاء. إلا أنه تعالى، وإن كانت مقدوراته غيرمتناهية، إلا أن الذى يخرجه منها إلى الوجود يكون متناهيا، لأن دخول ما لا نهاية له فى الوجود محال.. فقوله: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾ إشارة إلى أن كل ما يدخل منها فى الوجود فهو متناه. ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهيا كان لا محالة مختصا فى الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت، أو بعده بدلا عنه، وكان مختصا بحيِّز معين مع جواز

حصوله فى سائر الأحياز، بدلا عن الحيز، فكان مختصا بصفات معينة، مع أنه كان يجوز فى حصول سائر الصفات بدلاً عن تلك الصفات. وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين والصفات المعينة بدلا عن أضدادها، لابد أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ والمعنى أنه لولا القادر المختار الذى خَصص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة.

والمراد من الإنزال: الإحداث والإنشاء والإبداع.. كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ والله تعالى أعلم[1].

هذا ملخص ما قاله الإمام الرازى حول بعض إشارات الآية السابقة ونلاحظ أن هذا الشيخ كان قد أدرك نظراً لما أعطيه من الله من إدراك ثاقب وحصافة وفطنة قد أدرك فى عصره كثيراً من القضايا التى وضحت فى عصرنا وزمننا، لكن لا غرابة فى الأمر، إنه عطاء قرآنى، عطاء الكتاب الذى لا يتبدل ولا يتغير، لأنه كلام رب العالمين، الذى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ فهو الكتاب المعجز الذى يعطى كل زمان ومكان ما يلائمه من رقى وتقدم علمى، فى الوقت الذى لا يمنع أن يعطى لزمان سابق بعض إشارات زمان سيؤتيها لزمان لاحق، لحكم يريدها الجليل سبحانه. وإذا نحن دققنا فى بعض دلالات هذا النص الذى بين أيدينا قد نجد مصداقاً لكثير مما قلناه آنفاً، فمن ذلك نرى أنه أشار بإشارات كثيرة وصريحة، منها مثلاً ما أشارت إليه الآية نفسها ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾ فقوله الخزائن جمع الخزانة وهى اسم المكان الذى يخزن ويحفظ فيه الشىء إذن، فالآية نفسها دلت على أن الشىء الواحد له مجموعة خزائن ترى لماذا؟ ألا يعنى أن كل صورة مستنسخة من ذلك الشىء الأصل، ونقلت إلى مكان ذى خصائص معينة أصبح ذلك المكان الذى هى موجودة فيه هو بمثابة الخزانة والحرز لها، هى محفوظة فيه. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. إذن فمجموع هذه

---

(١) تفسير الرازى: ١٩/١٧٤.

الخزائن للشيء الواحد دل على إشارة وجود تعدد صور ذلك الشيء - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأظن - والله تعالى أعلم - أن هذا هو مقصد الشيخ الرازى من قوله: «ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهيا، كان مختصاً فى الحدوث بوقت مقدّر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه، وكان مختصاً بحيز معين، مع جواز حصوله فى سائر الأحياز بدلا عن الحيز، وكان مختصا بصفات معينة بدلاً عن تلك الصفات».. فذلك الشيء عنده لا يمتنع عنده بقدرة القادر - الذى هو الله تعالى - أن يخرج ويوجد فى أوقات وأحياز ذات خصائص وصفات متعددة كما أن أصلها - ذلك الشيء ذا الخزائن - هو موجود فى حيز لخصائص وصفات ذلك الحيز - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك نلاحظ أن الشيخ قد أشار بإشارات صريحة أخرى أيضا إلى الناحيتين النورانية والوجودية بخصائصها وصفاتها بحسب تعددها النورانى كقوله: «فإن كان لا محالة فمختصاً فى الحدوث بوقت مقدر..» مشيراً بذلك إلى قضايا حدوث ووجود هذا الشيء بخصائص وصفات معينة.. ثم قوله بعد ذلك «مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه.. إلى آخر ما ذكر..» مشيرا إلى حصوله وحدوثه بخصائص وصفات غير تلك التى حصل بها.. ثم نراه يؤكد - بعد ذلك - قضايا الإحداث المادى بقوله «..والمراد من الإنزال والأحداث والإنشاء والإبداع..» كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾، وقوله: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فلفظ الإنشاء فى كلامه السابق الذكر.. فيه إشارة إلى الصورة والنسخة الدنيوية.. وهى المادية، بدليل قوله تعالى: ﴿هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾، وقوله تعالى: ﴿هو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾ وسوف يأتى تفصيل وتوضيح لقضية الإنشاء هذه، وتوضيح أكثر نرى من خلاله أن المقصود بدلالة لفظة الإنشاء الإحداث المادى الذى فى الدنيا ثم الإنشاء الثانى للبعث والنشور بإذن الله تعالى.

ويمضى الرازى - رحمه الله تعالى - فى تأكيد ما سبق أن أشار به، بإشارة سريعة أخرى بقوله: تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية فى اثبات أن المعدوم شيء.. قال

لأن قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾.. يقتضى أن يكون لجميع الأشياء خزائن.. وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هى تلك الموجودات، من حيث إنها موجودة.. لأنّا بينّا أن المراد من قوله تعالى: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ الإحداث والإبداع والإنشاء والتكوين، وهذا يقتضى أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله تعالى: متقدما على حدوثها ودخولها فى الوجود. وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى.. بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث إنها حقائق وماهيات ثم إنه تعالى أنزل بعضها. أى أخرج بعضها من العدم إلى الوجود. ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله لا شك أن لفظ الخزائن إنما ورد هنا على سبيل التمثيل والتخيل، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على إيجاد تلك الأشياء وتكوينها وإخراجها من العدم إلى الوجود.. وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال.. والمباحث الدقيقة باقية[1].

هنا نقف وقفة سريعة لنقول لأصحاب هذا القول ومؤيديه أن قولكم «أن المعدوم شىء» بعيد جدا عن الواقع عقلا ونقلا، فأما العقل لأنه سيعيدنا إلى حكاية التسلسل والدور، وهذه ممنوعة بالاتفاق أما النقل فكل ما فى القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ فهى ضد ذلك وعلى هذا سار السلف والخلف بل إن بحثنا هذا من بدايته - كما رأينا - وإلى نهايته بإذن الله تعالى - كما سوف نرى ذلك بإذن الله تعالى - فهو يدحض ما أشرتم إليه ويجلى الحقيقة التى أشار إليها القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد أدركنا الكثير من السلف والخلف.. وعلى ذلك نقول - بحمد الله وتوفيقه - إن كان قولكم: «إن المعدوم شىء لأنه يعنى أن خزائن ذلك الشىء متقدم على حدوثها ودخولها فى الوجود وهذا باطل»، إن قولكم هذا يعنى بالإحداث هو الإحداث المادى، ومعلوم أن الإحداث المادى مسبوق بالإيجاد النورانى كما سبق تفصيله وما سيأتى - بإذن الله تعالى - وهذا يعنى أن الإحداث المادى كان قبل ذلك

(١) تفسير الرازى: ١٩/١٧٥.

فى تلك الخزائن ماديا، حتى الإحداث المادى له خزائن كما رأينا سابقاً تعدد تلك الصور، والصور الأرضية كما فى من وجد فى الأرض البيضاء.. ثم إن الإحداث أو الإيحاء النورانى قد أثبتموه أنتم بأنفسكم فيما قلتموه، ألم تقولوا: «وهذا يوجب أن يكون المراد أن تلك الذوات كانت متقررة عند الله تعالى، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث أنها حقائق وماهيات ثم أخرجها من العدم إلى الوجود».

إذن فهى كانت ثابتة ومتقررة فى علمه تعالى ثم إنه ـ سبحانه ـ أخرجها حقائق وماهيات نورانية إلى «أم الكتاب» وما تلا ذلك من إيجاد.. وبعد ذلك أنزلها وأنشأها إنشاء ماديا كما يشير إلى ذلك كل النصوص القرآنية وأحاديث رسول الله ﷺ ، إذن فالشىء كان مقدراً فى علم الله تعالى، ثم إنه أحدث إحداثا نورانياً ثم أخذ ينتقل بعد ذلك فى نورانيته بخصائص وصفات ودرجات متنوعة كما يريد سبحانه وتعالى فى «أم الكتاب» واللوح المحفوظ ثم خزائن السموات والأرض، ثم بعد ذلك الإحداث والإنشاء المادى الدنيوى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن هنا نجد الرازى يقول فى آخر رده على ذلك مهما قيل فإن «المباحث الدقيقة باقية».

وهذا الرأى من بعض أهل الاعتزال قد يكون غريبا أمره لأسباب كثيرة من أهمها.. أن أكثر أهل الاعتزال متفقون مع جل أهل الفكر الإسلامى وأكثر أهل الحديث وأكثر أهل الرأى من أهل هذه المدرسة فى الرأى ـ هم جميعا متفقون على أن الإيجاد والأحداث قد يجتمعان فى أمور ويختلفان فى أخرى فهما متفقان فى الدلالة الخلقية، أى أن كل شىء لم يكن موجوداً البتة، ثم إن الله تعالى أحدثه وأوجده، أى أن ما لم يكن كان بأمر الله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ ثم إنهم جميعا اتفقوا على أن يفرقوا بين الدلالتين بإشارة تجعل لكل واحد منهما بُعداً معنوياً آخر، وعلى ذلك فهم حينما يقولون أو يشيرون بدلالة الوجود، فهم يقصدون بها الإحداث والإيجاد الأول فى «أم الكتاب» وفى العالم المجرد كما يقولون: أى العالم «الروحانى» ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أما

التكوين والإنشاء، فهم حينما يطلقونها فأظنهم يقصدون بها الإحداث الدنيوى المادى، كما تشير إلى ذلك إشاراتهم الكثيرة - كما سبق - وإن أوردنا لهم الكثير من ذلـك.

وعلى ذلك يمكن أن نفسر قولهم بوجود الإنسان يعنى أنه كان محدثاً إحداثاً نورانياً فى «أم الكتاب واللوح المحفوظ وفى جل تلك الخزائن» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعندما اسُتنسخ أول إنسان وسُمى آدم وأُسكن الجنة، وجرى منه استنساخ آخر لأخذ الميثاق وما بعده كل ذلك، كان وجودا نورانياً وإن كان متنوع الخصائص والصفات - كما سبق - ثم جرى بعد ذلك الإحداث والإنشاء الآخر، وهو تحول إلى عالم الاستحالة والإبات فى الدنيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن هنا نرى أن نعود ونشير إلى هذه القضية الإيجادية النورانية فمع إشارة هذا الإيجاد.

عودة للإيجاد النورانى للإنسان، وإشارة لابن عربى وآية قرآنية:

يقول الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - حول قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾(1).

يقول ابن عربى: ...يريد عدمه فى عينه، لأنه كان مذكورا معلوما لله تعالى.. والدهر اسم من أسماء الله تعالى ولهذا الاشتراك اللفظى نهى رسول الله ﷺ عن سبّ الدهر وقال «إن الله تعالى هو الدهر..» وما ثم عين تتسب لعينها، وإنما تتسب لما يصدر منها، وما يصدر - كون - إلا من الله تعالى. والدهر الزمانى نسبة وقوله تعالى: ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ - يعنى الإنسان فى ذلك الحين: أى موجودا فى عينه مع وجود الأعيان، ولكن ما تعرفه حتى تذكره ولا هى: «أى الأعيان الموجودة فى ذلك الحين» ذات فكر حتى تجمعه فى ذهنها تقديراً فتتذكره.. فإن الفكر من القوى التى اختص بها الإنسان، ولا توجد فى غيره... إلخ»(2).

(1) سورة الإنسان: آية «1».

(2) الفتوحات المكية: 167 - 168/14.

هذه إشارة موجزة لابن عربى.. وفى هذه الأسطر يحاول أن يرد على أولئك الذين يقولون بعدم وجود هذا الإنسان فى «أم الكتاب» وبخصائصه التى هو عليها - أم الكتاب - كان هذا الإنسان موجودا بها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو ذلك - أى ابن عربى - يحاول أن يثبت وجوده هذا، بقوله: «إنه كان مذكورا» وأن وجوده كان على هيئة غير عينية معروفة للجميع أى الأجناس التى سبقته فى الإيجاد العينى وأن تلك الأعيان لم تكن تستطيع إدراكه لأنها - كما يقول - ليست ذات قوى فكرية فتدركه، وهو أمر لا يعنيها وجوده فى وقتها.. ومعلوم أن الفكر منحة ربانية اختص بها الإنسان لحكم ربانية كثيرة، ارتباطه بالنشأة الدنيوية لكونه سيكون فيها خليفة ولكونها نشأة اختيارية - ليس هنا مقامها - ويمضى ابن عربى فى حواره الذى يريد أن يثبت فيه وجود هذا الإنسان قبل نشأته الدنيوية بهيئة وصياغة غير النشأة الدنيوية يقول: «وهناك من قال أن هذه الآية تدل على عدم الاعتناء الإلهى بالإنسان لأن الله تعالى متكلم أزلاً، عالم بما يكون أزلا.. ونفى أن يكون الإنسان «شيئاً مذكوراً» مع أنه شىء، ولابد لقوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون..﴾ فما يأمر «الحق إلا من يسمع بسمع ثبوتى، أو وجودى، ونفى - الله تعالى - أن يكون الإنسان «مذكورا» فى حين من الدهر، والدهر هنا الزمان، والحين جزء منه، لم يكن فيه الإنسان مذكورا مع وجوده صورة إنسان»[1].

إذن فابن عربى يثبت بإشارة غير مباشرة، وجود هذا الإنسان، وأنه كان موجوداً أو مخلوقا، ولكنه كان خلقا إيجاديا آخر غير الذى سيكون عليه فى الدنيا والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك يقول: كيف لا يكون هذا المخلوق موجودا - والله سبحانه وتعالى - يخاطبه بقوله: ﴿كن فيكون﴾ ومعلوم أن الخطاب لا يكون إلا لمن يسمع ويفهم ويدرك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالحق يخاطب شيئا هو موجود، وقد تسأل وتقول: أين هو موجود؟ أليس هذا الوجود هو فى «أم الكتاب»، و«أم الكتاب» ترى ما هى

(١) الفتوحات المكية: ١٧٠/١٤.

خصائصه وصفاته؟ أليست هى خصائص نورانية - طاقة والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالكائن لابد أن يكون من جنس المكان - والله تعالى أعلم - إذن فهذا الإنسان الموجود فى «أم الكتاب» يُخاطب ويسمع بنفس قانون المكان الذى هو موجود فيه، بنفس خصائصه وصفاته.. وعلى ذلك فهو حينما ينشأ إنشاء ماديا فسوف يكون سمعه وخطابه بنفس هذا القانون المادى كما سيأتى الحديث عنه بإذن الله تعالى وتوفيقه - لذلك يقول ابن عربى « ..فما يأمر الحق إلا من يسمع بسمع ثبوتى أو وجودى..». ولذلك ترى ابن عربى يشير إلى هذا الخلق والوجود النورانى بعبارات تعبر وتوحى بهذا الفهم المقصود - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - منه تلك الخاصية والصفة النورانية، بقوله: نفى الله تعالى أن يكون الإنسان مذكوراً فى حين من الدهر، والدهر معناه الزمان، والحين جزء منه، لم يكن فيه الإنسان مذكوراً، مع وجود صورة إنسان».

إذن فابن عربى يشير إلى هذا الوجود النورانى، بما يدل عليه فى ذلك الوقت.. فهو لذلك يقول: مع أن الإنسان كان موجوداً وهو صورة إنسان.. فكأنه أراد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن يقول: إن النفى الوارد فى الآية المذكورة، كان مقصودا به الإيجاد والإحداث المادى العينى، المعهود فيما بعد - والله تعالى أعلم - ولم يكن مقصود النفى عدم وجوده البتة، أو نقصان وانتقاص أو هوان هذا المخلوق عند الله تعالى أبدا.. لذلك يقول ابن عربى: « ...وجهل من شاهد صورته - أى الإنسان - مراد الله تعالى فيه وما علم له اسم رتبة يذكر به، ولا ما له عند الله من العناية به التى ظهر أثرها عليه حين أقامه خليفة فى أرضه. فمساق الآية الكريمة المتقدمة، الخاصة بخلق الإنسان تؤذن بتقرير النعم عليه، وإنما وقعت الصعوبة فى هذا الذكر كونه نكرة.. والنكرة تعم فى مساق النفس.. فالتنكير يؤذن بتعميم نفى الذكر عنه فى كل ذاكر.. وهو دليل على أن الله تعالى ما ذكره لمن أوجد قبله من الأعيان، وإن كان مذكورا له فى نفسه سبحانه وتعالى ثم ذكره لملائكته بمرتبته التى خلق لها وهى الخلافة لا باسمه العلم، الذى هو آدم فأعلم..»(١).

---

(١) الفتوحات المكية ١٧ - ١٧٢/١٤.

إذن فهو «لم يكن شيئاً مذكوراً» أى فى حالة كونه شيئاً طينياً مادياً، وإلا فهو مخلوق وموجود، ولكن بصفة وخاصية وماهية وحالة غير صفته المادية التى سوف يكون ويتحول إليها فيما بعد - بإذن الله وأمره - ولذلك نلاحظ ابن عربى يركز على ناحيتين مهمتين فى كلامه الآنف الذكر.. وهما قوله «إن الله تعالى لم يذكره لمن وجد قبله من الأعيان، وإن كان مذكورا له فى نفسه - سبحانه وتعالى - وهذه الإشارة أظن أنا قد وقفنا عندها، وذلك عند حديثنا عن قضية «أم الكتاب» ونورانيته، وما استدللنا على ذلك من آيات وأحاديث والتى منها ما رواه أبوهريرة رضى الله عنه وأرضاه: «...كلتا يدى ربى يمين مباركة...» إلى أن قال ففتحها - سبحانه وتعالى فإذا فيها صورة آدم وذريته... إلخ. إذن فهو فى هذه الحالة كان موجوداً، ولكنه وجوداً نورانى.. وقد ورد بعض التفصيل عنها وسوف يأتى بعض منه بإذن الله تعالى وتوفيقه - أما الناحية الثانية، فحينما قال عنها - ابن عربى - : ... ثم ذكره للملائكته بمرتبته التى خلق لها، وهى الخلافة - لا باسمه العلم، الذى هو آدم (فأعلم ...).

إذن فهو هناك عند الله تعالى، إنساناً عموماً من سائر الجنس الإنسانى أما هنا فى الأرض فباسمه العلم الخاص به، اسمه الملائم لصورته المركب فيها هنا، وهى الأدمة الأرضية، لأنه - كما قيل - إنما سمى آدم لكونه مأخوذ من أدمة الأرض.. «...سمى آدم لغلبة الأدمة عليه، إذ الأدمة هى السمرة، أى اللون الذى يضرب إلى السواد، إذ الحياة هى اللون الذى يغلب عليه السواد...»[(١)] وقريب من هذا المعنى «هو ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، إذ ورد عنه أنه قال أنه مشتق من الأدمة وهى السمرة...»[(٢)].

إذن فنفى الذكر عن وجود الإنسان إنما كان هو نفى وجوده المادى الذى تحوّل إليه فيما بعد فى وقته - لحكمة عظيمة أعلنها الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له

(١) تفسير ابن عربى ١/٤٠.
(٢) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ١/٢٧٩.

ساجدين..﴾ إذن فالنفى منصب على هوية ماديته ومهمته. بل أقول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن آية النفى جاء بعدها ما يؤكد ما قاله ابن عربى فقد جاء قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج..﴾ إذ قوله تعالى: ﴿من نطفة أمشاج نبتليه..﴾.. ومعلوم أن الذى خلق من نطفة هم ذرية آدم عليه السلام، من آدم وحواء - وهلم جرا - بعد الإهباط إلى الأرض، وانطلاق التناسل، لأنه هو الذى يتلاءم مع النص القرآنى، ومع قضية الابتلاء والاختبار، أما الإنسان فى «أم الكتاب» فهو موجود فيه بوضع ليست هذه الصفات والخصائص المشار إليها فى النص القرآنى هى من صفاته، إذ هى من صفات صورة عالم الأخلاط والامتزاج الدنيوى، عالم العناصر والتركيب المادى، ومعلوم أن هذه الصفات هى من صفات النشأة الدنيوية، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى كل آياته الكريمة وأحاديث رسول الله ﷺ.. إذ هذه العناصر والأخلاط هى مأخوذة من خزينتها ومستودعها الخاص بها فى «أم الكتاب» ثم استنسخت من تلك الخزانة والمستودع الخاص بها وتحولت إلى هذه الخصائص والصفات الدنيوية بالإهباط ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[1].. وسوف يأتى تفصيل ذلك كله فى مكانه بإذن الله تعالى وتوفيقه - عند قضية الحديث عن الخلق والنشأة الدنيوية بإذن الله تعالى - وهذه الإشارة أظنها هى التى يشير إليها ويؤكدها بعض العلماء وذلك عندما يلخص مجمل الخلاف حول قوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون..﴾.

يقول: «إن الله عز وجل - عالم بما هو كائن قبل كونه - فكانت الأشياء التى لم تكن، وهى كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتى هى موجودة فجاز أن يقول لها: كونى ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود لتصور جميعها له ولعلمه بها فى حال العدم..»[2].

(١) سورة الأنعام: آية «٩٨».

(٢) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ٨٩ - ٢/٩١.

إذن فهذا القول الموجز ـ وإن كان سوف يأتى تفصيله فى موضعه بإذن الله تعالى ـ تراه يلخص كل ما سبق أن أشرنا إليه فى هذا الفصل وما سبقه.. فالأشياء التى كانت فى علمه وتقديره ـ سبحانه وتعالى ـ أمرها بالخروج فخرجت كما يريد ـ سبحانه وتعالى ـ مشابهة لها طبق الأصل والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لتصور جميعها له ولعلمه إذن فهى صور حقيقية مطابقة لما كان فى علمه ـ سبحانه ـ وحديث أبى هريرة السابق من أكبر الأدلة على ذلك ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهنا فالأشياء التى كانت هى صورة لتلك الأشياء فى علمه ـ سبحانه ـ فخرجت تلك الصور وهى على حال غير الحال التى هى عليه فى الدنيا، ومن هنا تعددت الخزائن لتعدد تلك الصور حسب أماكنها التى وجدت فيها، وعلى هذا فالصورة الشىء فى «أم الكتاب» هى نفسها غير طبيعتها فى طبيعة مكان آخر. ولذلك نلاحظ أن القرآن الكريم حينما أشار إلى الخلق الإيجادى وتعدد أماكنه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم..﴾[1] وعندما أشار إلى قضايا الإنشاء الدنيوى أولا: لم تسمٍّ الآيات القرآنية المشيرة إلى ذلك هذه المخلوقات بالأشياء وإنما سمتها بالأنفس، ثانيا: نها حينما أشارت إلى الخلق الإيجادى ـ أيضا ـ سمت أماكنه بالخزائن، أما حينما أشارت إلى الإنشائى فلم تسمٍّ تلك الأماكن بالخزائن، وإنما سمتها بالمستودع والمستقر، كما سيأتى تفصيل هذه فى أماكنها إذ قالت الآية الكريمة: ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.. وذلك لأنهما نشأتان، نشأة أولى دنيوية ونشأة ثانية أخروية كما سوف يرد بإذن الله تعالى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وأظن أن هناك فرقاً كبيراً بين دلالتى الخزائن، والاستيداع، والاستقرار سواء كان ذلك من حيث اللغة أو من حيث الاصطلاح الشرعى، أو العلمى وسوف يرد ذلك بإذن الله تعالى فى مكانه.. إذن فما أشرنا إليه قد وجد من أهل الاعتزال

(١) المرجع السابق.

والكلام من يؤكد ما سبق وأشرنا إليه، وترى ما فى إشارتهم التأكيدية السابقة دحض لكل ما أشارت به تلك الفئة السابقة فيما قالته حول لفظ شىء.. ولذلك ترى لهذه الفئة الاعتزالية وبعض المشوشين، كثيرا من الأقوال التى سمحوا فيها لعقولهم أن تسرح وتمرح كيفما تشاء دون أن تضع تلك العقول فى حجمها الطبيعى القاصر، وتحاول أن تتلمس الحقيقة بجوانب أخرى كثيرة مما ورد فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ من أقوال بعض الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين رضى الله عنهم أجمعين، ولذلك نجد أن جل أقوالهم - إلا ما شاء الله تعالى - هذه الفئة وأمثالها من أصحاب الكلام - مثلا - حول هذه الآية «كن فيكون» هى بعيدة جدا، وذلك لأنهم يقفون عند الجزء الأخير فى الآية الكريمة فقط.. ثم يعممون كل كلامهم على بقية الآية، بل والآيات الأخرى الواردة فى مثل هذا المعنى، أى التى فى آخرها ﴿كن فيكون﴾ أو قريبا منه.. ولو رجعنا للقرآن الكريم نفسه، لوجدنا أن هذين اللفظين ﴿كن فيكون﴾ قد وردا فى مجموع آيات قرآنية كثيرة.. ولذلك نرى أن نوردها جميعها، ونحاول أن نتعامل معها بما يسره الله تعالى.

من براهين اختلاف دلالات الإيجاد والإنشاء والخلق:

ولكن هذا يجب أن ينبثق من خلال النص القرآنى بعد التأمل فيه بدون النظر فى أقوالهم ولا بأس إن وجدنا من الأقوال ما نستأنس به ورأينا أنه يتفق مع النص القرآنى أخذناه. إذن فماذا سنجد من إشارات - بتوفيق الله تعالى وكرمه - ولو لم نشرحها واكتفينا بنصوصها، وذلك لأن القرآن الكريم واضح ميسر بحمد الله وتوفيقه - إلا ما ورد أن فيه متشابها فهذا نؤمن به كما أمرنا ولا نؤخذ فيه، بل نوكل معناه إلى الله تعالى كما أمر الله سبحانه - فما هى تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: آية «١١٧».

قال تعالى: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[2].

قال تعالى: ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾[3].

قال تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾[4].

قال تعالى: ﴿هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا، فإنما يقول له كن فيكون﴾[5].

قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم، لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[6].

قال تعالى: ﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾[7]. قال تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾[8].

---

(١) سورة آل عمران: آية «٤٧».
(٢) سورة آل عمران: الآية «٥٩».
(٣) سورة الأنعام: آية «٧٣».
(٤) سورة مريم: الآيتان «٣٤ ـ ٣٥».
(٥) سورة غافر: الآيات «٣٨ ـ ٤٠».
(٦) سورة النحل: آية «٤٠ وما بعدها».
(٧) سورة يس: الآيات «٧٨ ـ ٨٣».
(٨) سورة الأعراف: آية «١٦٦».

قال الله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾(1).

قال تعالى: ﴿قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾(2).

هذه جل الآيات التى وردت فيها إشارة ﴿كن فيكون﴾.. وبالتأمل فى نصوصها، تلاحظ معى أنها تسير فى ثلاثة محاور رئيسية تتداخل بعضها فى بعض وارتبط كل محور بالآخر، وذلك أننا لو أخذنا بعض آيات مع بعض، فإنا سنراها تشكل لنا ذلك المحور الذى يخصها، أى يخص معانيها الخاصة التى ترتبط بخصوصيتها، وإن ارتبطت من حيث عموم مجمل معانيها بما بعدها من محور بجسر من المعانى يربط بينهما، فمثلا لاحظ أن ما سنقوله بعون الله تعالى هو رسم تقريبى فقط. والحقيقة هى عند الله تعالى سبحانه لو أخذنا آية البقرة (١١٧) وآل عمران (٤٧) وآية سورة مريم (٣٤، ٣٥).. ونلاحظ أنه يمكن أن توضع تحت مُسمى هذا المحور: الإخراج من العدم إلى الوجود - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ونجد أن آية (٥٩) من آل عمران وآية (٦٨) من غافر يشكلان جسرا يربطهما جميعا بما بعدهما وذلك لأن المحور الذى يرتبط بسابقه عن طريق هذا الجسر يمكن أن تشكله هذه الآيات التالية، آية (٧٣) سورة الأنعام، وآية (٤٠) وما بعدها من سورة النحل وآية (٨٢) وما بعدها من سورة ياسين ويمكن أن توضع تحت هذا المسمى: الإخراج من القبور إلى النشر، أى من الموت إلى الحياة والجسر الرابط بينهما، فيهما من المعانى التى تربط بين ذانيك المحورين الكثير، إذ فيهما الإشارة إلى إخراج عيسى، وله - عليه الصلاة والسلام حديث طويل جداً جداً يخصه سيأتى فى مكانه بمشيئة الله تعالى وتوفيقه. أما آية البقرة (٦٥) وآية الأعراف (١٦٦) وآية (٦٩) من الأنبياء فيمكن أن توضع تحت مسمى: عملية براهين ومشاهد محسوسة لقضايا التحول من

(1) سورة البقرة: آية «٦٥».
(2) سورة الأنبياء: الآيتان «٦٨ - ٦٩».

أمر إلى آخر والعكس، وكذلك آيات الجسر وهى الآيات المتبقية بأمر الله تعالى وأذنه - الذى يربط المحور الثالث بما قبله، وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن خلال هذا الترابط والتداخل، قد نجد محاور أخرى جديدة متصلة - أيضا - بالمحاور الرئيسية وسوف نلاحظ من خلال بعض ما قاله بعض المفسرين حول كل آية ما قد يقرب أو يبعد مما سبق أن أشرنا إليه آنفاً.

فماذا قالوا مثلا حول آيات المحور الأول: يقول الإمام القرطبى - رحمه الله تعالى - حول آية البقرة (١١٧) وإن قد سبق وأخذنا عنها ما لخصه القرطبى حولها، فلا يمنع أن نورد بعضا آخر مما قاله أيضا - وهو - أيضا تلخيص لكل ما ورد وتردد فى كتب التفاسير وأهل الكلام من معتزلة وغيرهم - بقوله: «وتلخيص ما فى هذه الآية الكريمة - أن الله عز وجل لم يزل آمرا للمعدومات بشرط وجودها قادرا مع تأخر المقدورات عالما مع تأخر المعلومات، فكل ما فى الآية يقتضى الاستقبال، فهو بحسب المأمورات المحدثات تجىء بعد أن لم تكن.. وكل ما يسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قد تم، ولم يزد - والمعنى الذى تقتضيه عبارة «كنّ» هو قديم بالذات.

قال أبوالحسن الماوردى: فإن قيل ففى أى حال يقول له ﴿كن فيكون﴾.

فى حال عدمه؟ أم فى حال وجوده؟ فإن كان فى حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورا، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر.. وإن كان فى حال وجوده، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها إلا بالوجود والحدوث، لأنه موجود حادث. قيل عن هذا السؤال أجوبه ثلاثة:

الأول: أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره فى خلقه الموجود، كما أمر فى بنى إسرائيل أن يكونوا «قردة خاسئين، ولا يكون هذا واردا فى إيجاد المعدومات».

الثانى: أن الله عز وجل، عالم بما هو كائن قبل كونه، فكانت الأشياء التى لم تكن، وهى كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتى هى موجودة، فجاز أن يقول لها كونى، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود، لتصور جميعها له ولعلمه - سبحانه - بها فى حال العدم.

الثالثة: أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه، كان ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله، وإنما هو قضاء يريده، فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولا[1].

هذا هو ما لخصه الإمام القرطبى - رحمه الله تعالى - حول كل الآيات المنتهية بقوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾ .. وهذا التلخيص تجده فى جل أمهات التفاسير إلا من أراد منهم الإيجاز والبعد .. وإذا أردنا أن نعلق ونتعامل مع مجمل هذا الملخص، بناء على ما أشارت به تلك المحاور الثلاثة التى أوردناها - بفضل الله تعالى وتوفيقه من خلال إشارات الآيات نفسها - فسوف نرى أن مجمل الأسئلة التى سألها - الماوردى - وبعض أجوبته قد يكون إقحام العقل والمنطق فى التعامل معها أبعدها عن جو نصوص الآيات وروحانيتها - وذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن القارئ يحس بذلك البعد، لأنه يجد أنها أجوبة تدور حول آية واحدة لتعمم ما فيها من إشارات على بقية الآيات دون النظر إلى ما فى الآيات الأخرى من خصوصيات استدعاها ورودها فى المكان الذى وردت فيه ثم الدلالات الأخرى التى قد تنشأ من خلال النظر إليها جميعا مترابطة مع بعضها بعض.. فالحق - جل سناه - يقول: ﴿كنْ فيكون﴾ فى كل الأحوال، فى حال العدم، ليخرج إلى الوجود، وذلك ما يوضحه الجواب الثانى من مجمل تلك الأجوبة التى أوردوها، وهو ما يؤكده كل ما سبق أن أوردناه من بداية هذا البحث إلى نهايته - كما سيأتى بإذن الله تعالى وتوفيقه والله تعالى أعلم - أما قوله: «أفى حال وجوده، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها إلا بالوجود والحدوث، لأنه موجود وحادث».

ونحن نقول - بتوفيق الله تعالى وفضله - كيف يستحيل على الخالق والموجد - سبحانه وتعالى - أن يأمر الموجود بالوجود وذلك أن الموجود قد يؤمر أن يوجد وينقل من حالة إلى حالة، وهذا محسوس ومشاهد لنا فى عالمنا عالم الاستحالة، فما بالك فيما لا نعلمه ولا نشاهده فى خلقه - سبحانه وتعالى عما يصفون - وقد كشف لنا

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ٨٩ - ٢/٩١.

العلم فى عصرنا الكثير من ذلك الذى كنا لا نشاهده وكانوا لا يشاهدونه وسوف يأتى بعض منه بإذن الله تعالى ـ ولم نذهب بعيدا، وقد أجاب القرآن الكريم نفسه على كثير من مثل هذه الأسئلة والاستفسارات، وبالدليل المادى فى عالم الاستحالة والتحولات، وذلك بدليلين محسوسين ملموسين، مختلفى الدلالة لاختلاف طبيعة النوعية.

فالأول: كما سنلاحظ بتوفيق الله تعالى هو فى عالم الماديات الكثيفة وفى **الثانى:** جعلت لنا القدرة العظيمة الخلاقة دليلا محسوسا ملموسا فى عالم «مالا نبصر» فجعلته تلك القدرة مبصرا، ليعلم جميع الخلق إن ليس هناك شىء كائن أو غير كائن هو بعيد على هذه القدرة العظيمة.. وقد تنبه بعض العلماء إلى الدليل المادى الكثيف، وقد أشار إليه الإمام القرطبى فيما أورده فى الجواب الأول من مجموع الأجوبة السابقة فى ملخصه السابق حينما قال: «إنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره فى خلقه الموجود، كما أمر فى بنى إسرائيل «أن يكونوا قردة خاسئين»، وذلك أن آية (٦٥) من سورة البقرة وآية (١٦٦) من سورة الأعراف ترى عند قراءتهما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاطب موجودين بقوله «كونوا» إذن فكيف يستحيل بعد ذلك أو يستبعد من الحق ـ جل سناه ـ أن يخاطب الموجود المحدث بأن يوجد فها هو ـ سبحانه ـ قد خاطب بنى إسرائيل بخطاب «كونوا»، وهم موجودون أفلا يخاطب الحق ـ جل سناه ـ خلقه الموجود على طبيعة نورانية لينتقل ويتحول إلى طبيعة نورانية قد تختلف خصائصها عن الإيجاد السابق الذى كان عليه، أو يأمر هذا الموجود النورانى لينتقل ويتحول إلى طبيعة وصفات عالم الماديات أو إلى أى طبيعة أو أمر لا نعلمه نحن، أفلا يجوز ذلك؟ بلى وربى، إن ذلك لحق ولكن سُنة ما جروا عليه من أن الخلق قد أُوجد وأُحدث على طبيعة واحدة وهى طبيعة الأحداث الدنيوية، جعلهم يتخبطون كل هذا التخبط.. وإلا ففى القرآن الكريم الأجوبة الشافية لكل ما سألوا عنه واحتاروا فيه.. فهاتان مثلا الآيتان (٦٥) من البقرة و(١٦٦) من الأعراف، تراهما تتحدثان عن فئة من البشر فى الدنيا عصوا أمر ربهم، فنقلهم ـ سبحانه وتعالى ـ من

حال الصفة البشرية إلى حال صفة أمة أخرى من غير أمة البشر، وهم أمة القرود، كما قال تعالى: ﴿كونوا قردة خاسئين..﴾. فكذلك أوامره - سبحانه وتعالى عما يصفون - فى كل شىء فى عوالم خلقه بدون استثناء، فلم الاستبعاد؟ يقول بعض المفسرين حول معنى هاتين الآيتين مختصرا وبتصرف وفيه سنلاحظ - أيضا - أن هؤلاء المفسرين مختلفون حول معنى الآيتين وذلك نظرا لما سبق أن قلناه، إن ذلك يعود لمواقفهم المختلفة من الآيات فى مواقعها.. فماذا قيل؟ يقول الإمام الرازى فى تفسيره - رحمه الله تعالى - قوله تعالى: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ ليس بأمر، لأنهم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم على صورة القردة، بل فيه سرعة التكوين كقوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وكقوله تعالى: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ والمعنى: أنه تعالى لم يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبات بهؤلاء بل لما قال لهم ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ صاروا كذلك، أى لما أراد ذلك بهم صاروا كما أراد.. وهو كقوله تعالى: ﴿كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾. ولا يمتنع - أيضا - أن يتكلم الله تعالى بذلك عند هذا التكوين إلا أن المؤثر فى هذا التكوين هو القدرة والإرادة، فإن قيل: لَمْ يكن لهذا القول أثر فى التكوين، فأى فائدة فيه؟ قلنا أما عندنا فأحكام الله تعالى وأفعاله لا تتوقف على رعاية المصالح البتة وأما عند المعتزلة فلعل هذا القول يكون لفظا لبعض الملائكة أو لغيرهم، والمروى عند مجاهد أنه - سبحانه وتعالى - مسخ قلوبهم يعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم، وهو مثل قوله تعالى: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذى لا ينجح فى تعليمه كن حمارا.. وأحتج على امتناعه بأمرين:

الأول: أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد، البنية المحسوسة، فإذا أبطلها وخلق فى تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداما للإنسان وإيجادا للقرد.. ويرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التى باعتبارها كانت تلك الأجسام إنسانا، وخلق فيها الأعراض التى باعتبارها كانت قردا، فهذا يكون إعداما وإيجاداً لا مسخا.

والثـــانى: إن جوزّنا ذلك لما أمنا فى كل مـا نراه قرداً أو كلبـا أنه كان انسـانا عاقلا، وذلك يفضى إلى الشك فى المشاهدات.

وأجيب عن الأول: أن الإنسـان ليس هو تمام هذا الهيكل، وذلك لأن هذا الإنسـان قد يصير سميناً بعد أن كان هزيلا، وبالعكس فالأجزاء متبدلة، والإنسـان المعين هو الذى كان موجودا والباقى قد زال، فالإنسـان أمـر وراء هذا الهيكل المحسوس، وذلك الأمـر إما أن يكون جسـما ساريا فى البدن أو جزءاً فى بعض جوانب البدن، كقلب أو دماغ، أو موجوداً مجرداً على ما يقوله الفلاسفة.. وعلى جميع التقديرات فلا امتناع فى بقاء ذلك الشىء مع تطرق التغيير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ.. وبهذا التقدير يجوز فى الملك أن تكون جثته فى غاية العظم، وأن يدخل فى حجرة الرسول ﷺ.

وأجيب عن الثانى: أن الأمـان يحصل بإجمـاع الأمـة ولما ثبت بما قررنا جـواز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها.. ولم يكن بنا حـاجـة إلى التـأويل الذى ذكـره مجاهد رحمه الله بقى هنا سؤالان:

الأول: أنه بعد أن يصير قردا لا يبقى له فهم ولا عقل ولا علم، فلا يعلم ما تنزل به من العقاب ومجرد القردية غير مؤلم بدليل أن القرود حال سلامتها غير متألمة فمن أين يحصل العذاب بسببه؟

الجـــواب: لم لا يجوز أن يقال: إن الأمـر الذى به يكون الإنسـان إنسانا عاقلا فاهما كان باقيا إلا أنهما لما تغيرت الخلقة والصورة، لا جرم أنها ما كانت تقدر على النطق والأفعال الإنسانية، إلا أنها كانت تعرف مـا نالها من تغير الخلقة بسبب شؤم المعصـيـة وكانت فى نهاية الخوف والخجالة، فربما كانت متألمة بسبب تغيـر تلك الأعضاء، ولا يلزم من عدم تألم القرود الأصلية بتلك الصورة عدم تألم الإنسان بتلك الصورة الغريبة العرضية.

السؤال الثـانى: أولئك القـردة، هل بقوا أو أفناهم الله؟ إن قلنا إنهم بقوا فهذه القردة التى فى زماننا هل يجوز أن يقال إنها من نسل أولئك المسوخين أم لا؟

الجواب: الكل جائز عقلا إلا أن الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما «أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا..»(1).

هذا موجز واختصار ما أورده الإمام الرازى حول آيتى البقرة والأعراف والخاصتين بحالة مسخ بنى إسرائيل.. وفيه تلاحظ أن الرازى يلف ويدور ليرد على بعض الآراء التى قالت بعدم حقيقة الأمر فيهما وإنما قد يكون المقصود منه الطبع والختم وذلك مما قد يترتب على الأمر لو أنه أجرى على حقيقته من شك وغيره، وقد رأينا الرازى يثبت عكس كل تلك الآراء سواء ما كان منها اعتزاليا أو ما روى عن الإمام مجاهد ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ يثبت ويؤكد على أن المقصود بالأمر حقيقته وهو التحويل والتحوّل من حالة إلى حالة أخرى فى أى شىء كان موجودا، وفى عالمنا المادى الكثيف فكما أمره ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: (كن) لخروج الشىء من العدم إلى الوجود النورانى، كذلك يكون أمره فى الموجود فى المادى الكثيف أن يتحول وينتقل من حالة إلى حالة، وكذلك يكون أمره للموجود النورانى أن يتحول من نورانيته إلى الشىء المادى الكثيف ـ كما سنلاحظ ذلك بمشيئة الله تعالى وتوفيقه ـ فى مراحل خلق آدم وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

كذلك يكون أمره للشىء النورانى الموجود فى العالم المادى، إما بتحوله من طبيعته وقانونها، إلى طبيعة وقانون آخر، وإما بإبطال جزء من قانون هذا الشىء، وإبقاء جزئه الآخر، كما سنلاحظ أمره ـ سبحانه وتعالى مع آية (٦٩) من الأنبياء ﴿قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم﴾ من أجل أن نتبين حقيقة الأمر فيها، وكون أوامره ـ سبحانه وتعالى ـ جارية نافذة فى جميع مخلوقاته، سواء كانت فى معدوم ليوجد أو فى موجود ليتحول وينتقل إلى حالة أخرى. وقد جاء فى تفسير الإمام الرازى نفسه حول هذه الآية ما نوجز منه قوله: اختلفوا فى أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق، والله على كل شىء قدير.

---

(1) تفسير الرازى ١١ ـ ٣/١١٢.

ثانيا: أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه - عليه الصلاة والسلام - كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة، وكما أنه ركّب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار.

الثالث: أنه سبحانه وتعالى خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليـــه.

قال المحققون: والأول أولى،لأن ظاهر قوله: ﴿يا نار كونى برداً﴾.. أن نفس النار صارت باردة.. حتى سلم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من أثرها، لأن النار بقيت كما كانت فإن قيل: النار جسم موصوف بالحرارة والطاقة فإذا كانت الحرارة جزءا من مسمى النار، امتنع كون النار باردة إذن فوجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار، وذلك مجاز، فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين؟

قلنا: «المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد، وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك.. فكان مجازنا أولى..»(١).

إذن فجُلّ المحققين يؤكدون على أن تلك النار قد أبطل قانونها، وتحولت بذلك الأمر (كونى) وصارت باردة أى أنها تحولت من قانونها الإحراقى، إلى خصائص قانون آخر بذلك الأمر.. وأزال - سبحانه وتعالى - عنها صفة وخاصية الإحراق وطبيعتها، لتنتقل إلى طبيعة قانون آخر، وهى طبيعة الإضاءة، والإشراق دون لهب وإحراق.. وهكذا يبقى قوله تعالى - دائما نافذا ساريا فى كل آن وحين كما يريد - سبحانه وتعالى - ولا يقف أو يتعلق ذلك الأمر بآية دون أخرى، فكما يشاء يكون، ومتى يشاء أو يوجد أو يحدث سواء كان ذلك فى معدوم أو غيره، لا يعصاه أو يمتنع عليه شىء، حتى ولو كان معدوما.. لأن كل ذلك فى علمه، وما كان فى علمه وأراد له

(١) تفسير الرازى ١٨٨ - ٢٢/١٩٠.

أن يكون فسيكون، أو كان ذلك الشىء موجودا ليكون شيئا وطبيعة أخرى غير طبيعته وقانونه، فهو - سبحانه وتعالى - يرينا ذلك عمليا محسوسا فى الدنيا، ليخبرنا: أنه قادر على ما يريد وكيفما يريد، ومن هنا نلاحظ كيف وضح لنا هذان الدليلان العمليان، المختلفى الطبيعة مرحلتى الإيجاد الأول فى الملكوت الأعلى، والنشأة الثانية لبنى آدم - عليه الصلاة والسلام - توضيحا إجماليا موجزا، وترك - سبحانه وتعالى - لنا الإشارة التفصيلية إلى النشأة الأولى لكونها معلومة ومفصلة فى الكتاب والسنة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - والمشاهدة النظرية - بحمد الله تعالى وتوفيقه - بل فى النشأة الأولى براهين وأدلة عملية محسوسة ملموسة مشاهدة لنا دالة على ذلك الإيجاد الأول والنشأة الثانية الآتية - بإذن الله وتوفيقه - وهذا ما سنلحظ بعضا من إشاراته فى آيات المحور الثانى الذى أشرنا إليه - بحمد الله وتوفيقه - فى بداية كلامنا عن هذه الإشارة ﴿كن فيكون﴾.. وذلك لكون آيات هذه النشأة - الثانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تشير للكيفية التى ستكون عليها النشأة الثانية، وذلك لكون كينونتها كينونة ذلك الإيجاد الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل طبيعتها وماهيتها وخصائصها هى كماهية وخصائص طبيعة ذلك الإيجاد الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد سبق أن أشرنا ببعض آيات هذا المحور - الثانى - ذلك كقوله تعالى: ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ الأنعام.

وكقوله تعالى فى سورة النحل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾. وكقوله تعالى فى سورة يس: ﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذى جعل

لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾ يس

هذه بعض آيات من مجموع آيات المحور الثانى ونلاحظ أن مجملها يشير إلى قضية البعث بعد الموت، وأنه سبحانه وتعالى قادر على إعادتها كما خلقها أول مرة. لكون الأمر كله يتوقف عنده سبحانه على قوله لما يريد ﴿كن فيكون﴾.. لماذا؟ لأن: «قوله الحق» سبحانه وتعالى عما يصفون.

من مجمل الآيات السابقة تلاحظ أيضا ـ وإن كان سيأتى كل ذلك مُفصّلاً فى مكانه الخاص به بإذن الله تعالى أن كينونة الإنشاء الثانى سوف تكون دفعة واحدة لا أمراً مرحلياً تطوريا، كما هو الحال فى النشأة الأولى ـ الدنيوية ـ لأنه سبحانه وتعالى ـ قد أشار بآيات كثيرة لكينونة النشأة الدنيوية، كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطوارا﴾ «نوح»، وكقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1]، وكذلك مثلها الآية خمسة من سورة الحج، إذن فالأمر فيها مراحل، من طين ثم نطفة، علقة... إلخ. أما النشأة الثانية، فالحق جل سناه ـ يقول: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون..﴾[2] إذن فنفخ يحدث فيعقبه مباشرة حياة فقيام فنظر بعكس الأولى كما رأينا. وهنا قد يسأل سائل ليقول مثلا: كيف قررت أن النشأة الثانية هى كالإيجاد الأول عقب الأمر ﴿كن فيكون﴾ ولم كنت تقول: النشأة الأولى والنشأة الثانية؟ والإيجاد الأول؟ ولم تأت بلفظ الخلق فى هذين الموضوعين؟؟ وهكذا.

(١) سورة المؤمنون: الآيات «١٢ ـ ١٤».

(٢) سورة الزمر آية «٦٨».

وفى الإجابة عن الشطر الأول من السؤال نقول: - بعون الله تعالى وتوفيقه - إننا لم نقل ما سبق أن قلناه من عندنا تقولا - نعوذ بالله تعالى من ذلك - بل هذا ما أشار إليه القرآن الكريم نفسه. فقد سبق حينما أشرنا بآيات المحور الأول - إن كنا نذكر - أن قلنا: إن هناك بعض الآيات يمكن لنا أن نعتبرها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - رابطا وإشارة دليلية لما نقوله الآن، وقد حان وقت ذلك فنقول - وبالله العون والتوفيق إن من تلك الآيات الكثيرة قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(١)، وكقوله تعالى: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾(٢)، وكقوله تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾(٣).

هذه الآيات ومثيلاتها هى ما أثارت لنا ما قلناه - بحمد الله تعالى وتوفيقه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقبل أى إشارة منا، ترى ماذا ورد عنها - ولو إيجازاً - لتتضح الرؤية أكثر - بعون الله وتوفيقه - فهذا الإمام القرطبى يقول حول آية (٥٩) من آل عمران، وملخصا: إن قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾، دليل على صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - خلق من غير أب كآدم لا على أنه خلق من تراب. والشىء قد يشبه بالشىء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا فى وصف واحد، فإن آدم خلق من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة.. ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقا من غير أب، ولأن أصل خلقتهما كان من تراب. لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طيناً، ثم جعله صلصالا، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أب...»(٤).

(١) سورة آل عمران: آية «٥٩».
(٢) سورة آل عمران: آية «٤٧».
(٣) سورة مريم: الآيتان «٣٤ - ٣٥».
(٤) جامع أحكام القرطبى ٤/١٠٢ - ١٠٣

هذا موجز ما أشار به القرطبى حول هذه الآية.. ومن خلاله تلاحظ أنه يمكن تركيزه فى بعض النقاط إجمالا، وسوف يكون لكل ذلك تفصيل إن لم يكن هنا بعد أن ننظر ما قاله غيره - القرطبى - من المفسرين حول الآية نفسها فسوف يرد الحديث عنها فى أماكن آخر مرتبطة بها جميعاً - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه فمن تلك النقاط:

١ - كونهما خلقا من غير أب.

٢ - كون آدم خلق من تراب، وكذلك عيسى عليهما ونبينا محمد وجميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام وإن كان له تفصيل هناك.

٣ - كونه - القرطبى - أراد التركيز على قضية التحول والتحولات، كما أشار إلى ذلك صراحة «فكذلك حوله من حالة إلى حالة».

هذا ما يمكن أخذه من كلام الإمام القرطبى إجمالاً.. أما ما جاء فى تفسير غيره كالرازى مثلا، وبالرجوع إليه نجده يلخص ما قاله العقلانيون. حول هذه الآية يقول:

«..فى الآية إشكال، وهو أنه تعالى قال: ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾.. فهذا يقتضى أن يكون خلق آدم متقدما على قول الله تعالى له ﴿كن﴾ وذلك غيرجائز.. وأجاب عنه من وجوه:

الأول: قال أبومسلم: قد بينّا أن الخلق هو التقدير والتسوية.. ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه، وإرادته لإيقاعه على الوجه المخصوص، وكل ذلك متقدم على وجود آدم - عليه الصلاة والسلام - تقديما من الأزل إلى الأبد.. وأما قوله تعالى: ﴿كن﴾ فهو عبارة عن إدخاله فى الوجود.. فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله تعالى: ﴿كن﴾.

الجواب الثانى: وهو الذى عول عليه القاضى أنه تعالى خلقه من طين، ثم قال له ﴿كن﴾ أى أحياه، كما قال: ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾.. فإن قيل الضمير فى قوله ﴿خلقه﴾ راجع إلى آدم، وحين كان ترابا، لم يكن آدم - عليه السلام - موجوداً.

أجاب القاضى وقال: بل كان موجودا، وإنما وجد بعد حياته، وليست الحياة هى نفس آدم.. وهذا ضعيف، لأن آدم عليه الصلاة والسلام ـ ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكلة بالشكل المخصوص، بل عبارة عن هوية أخرى مخصوصة: وهى إما المزاج المعتدل أو النفس وينجر الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هى؟ ولا شك أنها من أكثر المسائل غموضا.

والجواب الصحيح: لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير عن قريب مسماه آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تسمية لما سيقع بالواقع.

الجواب الثالث: أن قوله ﴿ثم قال له كن فيكون﴾: يفيد تراخى هذا الخبر عن ذلك الخبر كما فى قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾.. ويقول القائل: أعطيت زيداً اليوم ألفا، ثم أعطيته أمس ألفين.. ومراده: أعطيته اليوم ألفا ثم أنا أخبركم: أننى أعطيته أمس ألفين، فكذا قوله: ﴿خلقه من تراب..﴾ أى صيره خلقا سوياً.. ثم إنه يخبركم أنى خلقته بأن قلت له ﴿كن﴾[1].

هذه إشارات ملخصة من تفسير الرازى حول الآية نفسها (٥٩ آل عمران).. وهو وإن كان فيه إشارات كثيرة جدا، إلا أنك تلاحظ أنه ـ الرازى ـ يلتقى مع ما ذهب إليه قبله الإمام القرطبى فى خط سيره حول هذه الآية.. وإن كان الرازى يبدأ خطه بأن أشار صراحة إلى أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مخلوقا خلقا متقدماً وبهوية أخرى غير الخلق الترابى الذى تحول إليه بقوله تعالى: ﴿كن﴾ وهو عندى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ حالة خلقه النورانى الخالص أى مرحلة وجوده فى «أم الكتاب» وعلى خصائصه ـ كما سيأتى تفصيل ذلك بمشيئة الله تعالى إضافة لما سبق بحمد الله تعالى ـ وهذه الإشارة أظن أنها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ تحمل معنى ما أشار إليه الإمام القرطبى، وذلك ما قاله القاضى عياض، وما تلاه من قول بعد ذلك، وكأنه ـ أى الرازى ـ يلمح فى ذلك تلميحاً إلى نقطة التشابه فى الآية، بين خلق آدم ـ عليه

(١) تفسير الرازى ٨/٧٦.

الصلاة والسلام ـ السابق على التراب والطين، وهى الحالة النورانية، السابقة فى «أم الكتاب» ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وبين حالة خلق عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من حيث كونه خلق نورانياً ـ كما سيأتى تفصيل ذلك بإذن الله تعالى ـ وكما أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحول إلى خلق آخر ترابى ثم طينى.. إلخ. فكذلك عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سوف تشمله تلك التحولات.. وكذلك الأمر فى حقيقة البعث، وما سيكون عليه ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ إذن فهو كما قال آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى لمستم مثله فى خلقته فى دنياكم، وهو عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لعيسى عليه الصلاة والسلام أيضا ﴿كن﴾ وكذلك البعث سوف يقول له ﴿كن﴾ فسيكون دفعة واحدة، كما كان عيسى عليه الصلاة والسلام دفعة واحدة، وهكذا من هذه الإشارة الدلالية، نصل إلى أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل اصطفائه وخلقه الطينى، كان واحداً مستقلاً من ضمن الخلق الإنسانى جميعه، وكلهم جميعا وجدوا دفعة واحدة ثم بعد ذلك اصطُفى وصار ما صار كما ستأتى الإشارات الكثيرة إليه بإذن الله تعالى ـ ومن هنا يمكن لنا ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ أن ننطلق إلى حديث آخر مرتبط بكل ما سبق ارتباطا وثيقا ـ بإذن الله تعالى ـ بل تكملة لكل ما سبق من إشارات حول المرحلة الخلقية الثانية ـ بإذن الله تعالى وفضله ـ بل وإشارات سريعة لجميع المراحل الخلقية والإنشائية، وبصورة مجملة لنصل بعد ذلك ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ للحديث التفصيلى عنها جميعا فمع هذه الإشارت وما سوف تعطينا بإذن الله تعالى وتوفيقه.

وقفة سريعة مع إشارات هذه المرحلة

سبق أن قلنا إن مراحل خلق الإنسان كانت متعددة وذات تنوع، وقلنا ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ إنه يمكن لنا من خلال ما سبق من إشارات ـ قرآنية أو أحاديث عن رسول الله ﷺ وما ورد عنها من تفسيرات وشروح سواء كان ذلك لكبار الصحابة والتابعين، وغيرهم ممن جاء بعدهم.. يمكن محورة كل ذلك فى ثلاث مراحل:

الأولى: وهى التقديرية التى كانت فى علم الله ـ سبحانه وتعالى.

والثــانيــة: الإيجادية الكلية المثبوتة فى «أم الكتاب».. ولم نتعـرض لذلك بأى تفصيلات كبيرة لأسباب كثيرة، يجب الوقوف عندها ثم إن المرحلة الإيجادية الثانية الموجودة فى «أم الكتاب» كان منها إيجاد فى الملكوت الأعلى الروحانى وهو إيجاد جمعى، وهو مما يمكن لنا أن نسميه بمرحلة العرضة التعليمية الروحانية، والمشار إليها بآية البقرة وما فى معناها، ثم يلى ذلك رحلة أو مرحلة الإيجاد الطينى أو التسوية الطينية الأولى وما يرتبط بذلك من قضايا خلقية، ثم بعد ذلك رحلة واستنساخ نشأتى: الأولى الدنيا والثانية الآخرة ومما سنلاحظه أن ما يعمله جل المفسرين، حينما يتحدثون عن هذه الآيات وأماكنها، أنهم يهملون أى إشارة تشير - إلى أى مرحلة خلقية غير المرحلة أو النشأة الدنيوية اللهم إلا بعض الإشارات هنا وهناك من بعضهم قد تشير إلى ذلك، وهو ما حاولنا أن نصطاده ونحاول أن نبلور منه ما سوف نشير به - بإذن الله تعالى إلى كل ذلك.

الفصل السادس
البداية الإنسانية الطينيـة الأولى وخاصيتهـا الطبيعيـة

وقبل أن نبدأ بأى حديث عن هذه الإشارة أريد أن أنبه أخى القارئ إلى أمر مهم جداً قد يلحظه حول ما نكتبه هنا، وهذا الأمر، هو عدم منهجة هذا البحث عموماً، وهذا الفصل أو الباب بجميع عناوينه، لتداخل آياته التى أشارت إليه وتشابكها فمثلا ستجد فى هذا الفصل أثناء الحديث عن فكرة ما، أن أعيدك إلى فكرة سبقت فى فصول فى المراحل السابقة وكانت هى الأولى فى الارتباط بها، لا ما ارتبطت به فيما بعد، وذلك لأسباب كثيرة جداً منها ما ذكرت ومنها أيضا تشعب إشارات الآية القرآنية الواحدة وتعدد أهدافها ومراميها.. والحديث عن هذه الفترة الخلقية التكوينية هو أمر صعب جداً، وذلك لقلة الإشارات التفسيرية عنه من قبل شراح التفسير القرآنى وشراح حديث رسول الله ﷺ وقد يكون عدم وجود هذه الإشارات وبكثرة أو تنوع ما وجد عنها من إشارات، هو أيضا سبب من أسباب تشابك أفكار البحث أو هذا الفصل وما بعده بالذات ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذه المرحلة سنلاحظ أنها بداية خلق ونقل الصورة الروحانية ـ النورانية ـ الخاصة بهذا الجنس الإنسانى، إلى صورة نورانية أخرى، ولكنها بطبيعة وخاصية تختلف تماما عن روحانية ونورانية سابقتها، فهى روحانية، ولكنها بشكل متجسد عينى، أى إخراج تلك الصورة النورانية المعنوية وغير المحسوسة، إلى صورة نورانية بطبيعة نورانية المكان الذى ستوجد فيه بل سنرى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أنه تعالى سوف يجعل من هذه الصورة النورانية أيضا صورة نورانية تختلف خواص طبيعتها عن سابقتها، لتكون ملائمة لطبيعة المكان الآخر الذى سوف تُجعَل فيه بإذن الله تعالى.

ولنبدأ بالحديث عن هذه الصورة ومراحل تحولاتها ـ بإذن الله تعالى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ الثانية لنرى أيضا: ما

العناصر التى سوف تتحول إليها هذه الصورة النورانية، وما طبيعتها؟ كما سبق أن قلنا بحمد الله تعالى وفضله.

وفى الإجابة عن هذه الاستفسارات وأمثالها، نرى أن نبدأ بالإشارة إلى الكيفية التى أُخرجت بها هذه الصورة الإنسانية إلى الوجود، وبمفهوم آخر أوضح، أى الكيفية التى سُويت بها هذه الصورة فمع التسوية العمومية.

التسوية العمومية لجسم الحاسوب الإنسانى وما الذى تعنيه:

والحديث عن هذه التسوية يجعلنا نعود إلى ما سبق أن قلناه من إشارات تحدثنا فيها عن موضوع وفصل - آدم الحقيقى وعلوم الحاسوب - وما فى هذا المخلوق من رقائق واتصالاته بكل ما حوله وما فى تلك الرقائق من تشفير يرتبط بقضايا وجوده وحياته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الصورة هى ما سبق أن أشار إليها ابن عربى بقوله: «..إن الإنسان كما قررنا هو آخر المولدات فهو نظير العقل - القلم - وبه ارتبط، لأن الوجود دائرة، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول - القلم - الذى ورد فى الخبر أنه أول ما خلق الله القلم.. إلخ، فهو أول الأجناس وانتهى الخلق إلى الجنس الإنسانى فكملت الدائرة واتصل الإنسان بالعقل، كما يتصل أول الدائرة بآخرها وهذا الإنسان هو مجموعة رقائق» وهذه الصفة التى أشار إليها ابن عربى - الكمبيوترية - هى لا تخص إنساناً دون آخر فى جميع الجنس الإنسانى النورانى الخالص كما هو فى «أم الكتاب»، ومن هنا سنلاحظ أن الحق - جلّ سناه - سوف يصطفى إنساناً من بين جميع هذا الجنس الإنسانى النورانى الخالص - كما هو فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ليخلق ويصنع - سبحانه وتعالى - له جسما بنورانية هى دون نورانية هذا الجنس الإنسانى فى «أم الكتاب» وبخاصية تختلف عن خاصيته هناك، هذا الجسم سوف تُحيّز فيه الصورة النورانية لهذا الإنسان المصطفى ثم يدخل بعد ذلك فى جسم هذا الإنسان المصطفى جميع الصور النورانية الخالصة لهذا الجنس الإنسانى، لتستنسخ منه بعد ذلك جميع تلك الصور بنفس خاصية ذلك الجسم الذى

أدخلت فيه لتصبح كأنها منه، ويصبح هو لها كالأب وهم كالأبناء، ومن هنا سموا ببنى آدم نسبة إلى صفة عنصره الذى صنع منه وخلق منه جسمه، فسمى بعنصره - آدم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فكيف كانت تسوية جسم ذلك العقل على صورة محسوسة؟ وأين أمكنة تلك الرقائق التى أدخلت فيه؟ وما هى طبيعة عنصر ما سمى به وهكذا؟

وقبل أن ندلى بأى إشارة حول هذا الكلام، نحاول أن نورد بعض الآيات القرآنية التى وردت فى القرآن الكريم، وأشارت إلى ذلك، لنستأنس بها على ما سبق أن قلناه وبالرجوع إلى كتاب الله العزيز وجدنا كثيراً من الآيات القرآنية المشيرة إلى ذلك بإشارات عامة وبإشارات خاصة وهذه بعض منها:

قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين..﴾[1].

قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[2].

قال تعالى: ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين﴾[3].

قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: آية «١١».

(٢) سورة الحجر: آية «٢٨ - ٢٩».

(٣) سورة ص: آية «٧١ - ٧٥».

(٤) سورة الأعراف: آية «١٧٢».

قال تعالى: ﴿هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾[1].

قال تعالى: ﴿الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾[2].

قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دساها﴾[3].

قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[4].

قال تعالى: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾[5].

هذه بعض الآيات القرآنية المشيرة إلى تسوية هذا الجسم الإنسانى، فماذا قال عنها بعض المفسرين، وشراح الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، أو حتى بعض أهل الفكر الإسلامى قديما، لنأخذ منه ما قد يتفق مع مراد هذا البحث الخاص، وأرى أن نبدأ ببعض ما أشار به الشيخ ابن عربى، ثم نورد بعده بعض ما جاء فى كتب التفسير، ثم نربط بينهما ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ فماذا قال الشيخ ابن عربى عن تسوية شكل جسم هذا العقل ـ الحاسوب الإنسانى ـ وكيفية تسويته ـ وبرمجته ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. يقول: إن أول ما أوجد الله تعالى ـ فى الأعيان ـ مما يتعلق بعلم الملائكة الموكلين به، وتدبيرهم لهذا الجسم أن فتح الله تعالى فى هذا الجسم، الشكل الكرى[6] المستدير إذ كان أفضل الأشكال. ثم أنزل ـ سبحانه ـ بالإيجاد والخلق إلى تمام الصنعة..

(١) سورة الأنعام: آية «٢».
(٢) سورة السجدة: الآيات «٧ ـ ٩».
(٣) سورة الشمس: آية «٧ ـ ١٠».
(٤) سورة آل عمران: آية «٥٩».
(٥) سورة الصافات: آية «١١».
(٦) الكرّى : يعنى الكروى لأنه هو الفصيح من حيث اللغة.

وجعل جميع ما خلقه الله تعالى ـ مملكة لهؤلاء الملائكة، وولاهم أمورها فى الدنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به ـ فأخبرنا ـ سبحانه ـ أنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ولم يجمع ـ سبحانه ـ لشىء مما خلقه من أول موجود إلى آخر مولود ـ وهو الحيوان ـ بين يديه تعالى ـ إلا للإنسان وهى هذه النشأة البدنية الترابية، بل خلق كل ما سواها إما عن أمر إلهى، أو عن يد واحدة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾.. فهذا عن أمر إلهى ورد فى الخبر، إن الله عز وجل: خلق جنة عدن بيده، وكتب التوراه بيدة، وغرس شجرة طوى بيده. وخلق آدم الذى هو الإنسان، بيديه فقال تعالى لإبليس على جهة التشريف لآدم ـ عليه السلام ـ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى[1]. ولما اكتملت المملكة وتهيأت، وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها من أى جنس يكون هذا الخليفة الذى مهد الله تعالى هذه المملكة لوجوده. فلما وصل الوقت المعين فى علمه لإيجاد هذا الخليفة، أمر بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض فأتاه بها «بعض الملائكة» فى خبر طويل معلوم عند الناس، فأخذها ـ سبحانه ـ وخمّرها بيديه فهذا هو قوله تعالى: ﴿لما خلقت بيدى﴾.

وقد كان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكرناهم.. وديعة لآدم وقال لهم: ﴿إنى خالق بشر من طين﴾.. وهذه الودائع التى بأيديكم، هى له: «فإذا خلقته» فليؤد إليه كل واحد منكم ما عنده، مما أمنتكم عليه.. ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾. فلما خمّر الحق تعالى بيديه طينة آدم حتى تغير ريحها ـ وهو المسنون وذلك هو : الجزء الهوائى الذى فى النشأة. جعل ظهره محلا للاشقياء والسعداء من ذريته فأودع فيه ما كان فى قبضتيه، فإنه ـ سبحانه ـ أخبرنا أن فى قبضة يمينه السعداء، وفى قبضة اليد الأخرى الأشقياء. «وكلتا يدى ربى يمين مباركة». وقال: «وهؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».

---

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى: ٢٣٧ ـ ٢/٢٤٨.

وأودع - الله تعالى - الكل طينة آدم، وجمع فيه من الأضداد بحكم المجاورة وأنشأه على الحركة المستقيمة وجعله ذا جهات ست: الفوق: وهو ما يلى الرأس، والتحت: يقابله وهو ما يلى رجليه. واليمين: وهو ما يلى جانبه الأقوى، والشمال يقابله: وهو ما يلى جانبه الأضعف، والأمام: وهو ما يلى الوجه، ويقابله القفا وصوره - سبحانه وعدله - «ثم نفخ فيه من روحه﴾»المضاف إليه فحدث عن هذا النفخ فيه، بسريانه فى أجزائه، أركان الأخلاط التى هى: الصفراء، والسوداء، والدم، والبلغم.

فكانت الصفراء عن الركن النارى، الذى أنشأه الله منه، فى قوله تعالى: ﴿من صلصال كالفخار﴾.. وكانت السوداء عن التراب، وهو قوله تعالى: ﴿خلقه من تراب﴾.. وكان الدم من الهواء، وهو قوله: ﴿مسنون﴾ وكان البلغم من الماء الذى عجن به التراب فصار طينا ثم أحدث «الحق» فيه القوة الجاذبية، التى يجذب بها الحيوان الأغذية ثم القوة الماسكة، بها يمسك ما يتغذى به الحيوان.. ثم القوة الهاضمة، وبها يهضم الغذاء. ثم القوة الدافعة، وبها يدفع الفضلات عن نفسه، من عرق وبخار ورياح وبراز، وأمثال ذلك.

أما سريان الأبخرة وتقسيم الدم فى العروق من الكبد، وما يخلصه كل جزء من الحيوان فبالقوة الجاذبة لا الدافعة، ما تخرجه، كما قلنا، من الفضلات ثم أحدث «الحق» جل سناه فيه القوة الغازية والمنمية، والحسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة وهذا كله فى الإنسان، مما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط.

غير أن هذه القوى الأربعة: قوة الخيال - والوهم - والحفظ - والذكر - هى فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان.

ثم خص «الله تعالى» آدم الذى هو الإنسان بالقوة: المصورة، المفكرة، والعاقلة.. فتميز الإنسان بها عن الحيوان وجعل الحق - جل سناه - هذه القوى كلها فى هذا الجسم، آلات للنفس الناطقة، لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ وهو «طور» الإنسانية فجعله «الحق جل سناه»: دراكاً بهذه القوة، حياً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً، بصيراً، على حد معلوم فى اكتسابه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ثم أنزل الحق آدم، خليفة عنه فى أرضه، إذ كانت الأرض من عالم التغيير والاستحالات بخلاف العالم الأعلى فيحدث فيهم، أى فى سكان العالم الأرضى، من الأحكام بحسب ما يحدث فى العالم الأرضى نفسه من التغيير، فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهية فلذلك كان آدم خليفة فى الأرض دون السماء والجنة، ثم كان من أمره ما كان من علم الأسماء وسجود الملائكة.. وإباء إبليس «نعوذ بالله تعالى منه»[1].. غير أن الله تعالى ابتلاه - أى الإنسان - ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه إما لأن يسعده أو لأن يشقيه - على حسب ما يوفقه إلى استعماله - فكان البلاء الذى ابتلاه الله به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر وجعل هذه القوة خادمة لقوى أخرى تسمى العقل.. وجعل الله العقل مع بداية سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه. ولم يجعل «الله سبحانه» للفكر مجالا إلا فى القوة الخيالية - وجعل سبحانه - القوة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطيها القوة الحساسة.

وجعل له قوة يقال لها: المُصَوِّرَة، فلا يحصل فى القوة الخيالية «شىء» إلا ما أعطاه الحس، أو أعطته القوة المصوِّرة. ومادة الصورة من المحسوسات فتركب صورا لم يوجد لها عين، لكن أجزاءها كلها موجودة حسا. وذلك لأن العقل خلق ساذجا، ليس عنده من العلوم النظرية شىء وقيل للفكر ميز بين الحق والباطل الذى «هو» فى هذه القوة الخيالية. فينظر «الفكر بحسب ما يقع له، فقد يحصل فى شبهة، وقد تحصل فى دليل عن غيرعلم منه بذلك، ولكن فى زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة، وأنه قد كان على علم، ولم ينظر إلى قصور المواد التى استند إليها فى اقتناء العلوم، فيقبلها العقل منه، ويحكم بها: فيكون جهله أكثر من علمه.

ثم إن الله - سبحانه وتعالى - كلف العقل معرفته - سبحانه - ليرجع إليه فيها لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالى ﴿أو لم يتفكروا﴾، ﴿لقوم يتفكرون﴾ واستند إلى الفكر، وجعله إماماً يقتدى به، وغفل عن الحق فى مراده بالتفكير، أنه خاطبه أن يتفكر، فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله،

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى ٢٤٣، ٢٤٧ باختصار.

فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم، إلا عقول خاصة لله، من أنبيائه وأوليائه.

ياليت شعرى هل بأفكارهم «قالوا: بلى» حين أشهدهم «الحق» على أنفسهم فى قبضة الذرية من ظهر آدم، لا، والله بل عناية «من الله» إشهاده إياهم ذلك عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم ولكن لما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة فى معرفة الله، لم يجتمعوا قط على حكم واحد وذهبت كل طائفة إلى مذهب وكثرت القالة فى الجناب الإلهى الأحمى اجترأوا «أى أصحاب الفكر، الآخذين عن أفكارهم لا عن الله» غاية الجرأة على الله. وهذا كله من الابتلاء الذى ذكرناه، من خلقه تعالى الفكر فى الإنسان(١).

وقبل أن ننتقل من كلام ابن عربى حول تكوين هذا الجسم أو الشكل أو الصورة العينية لتلك الصورة الإنسانية النورانية الخالصة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وتأهيلها لما سيستنسخ عنها من صور عينية جاهزة التأهيل،لما يخصها، أى يخص كل صورة عينية مستنسخة من الصورة العينية العامة - الأب - على حدة، وإن تشابه الشكل العام لهذه الصورة العينية الروحانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما سنرى بمشيئة الله تعالى ذلك فى الإشارة التالية لابن عربى - عن وضع رقائق الاستنساخ، وعدمها فى تلك الأشكال أو رقائق الاتصال والارتباط بين هذا الشكل العام وبين ما سخر له من ملائكة وأكوان.. وسنحاول - بإذن الله تعالى وأمره - أن نجزىء هذه الإشارة العمومية أى توضيح كل رقيقة وما يخصها، بعد أن نورد الإشارة التالية لابن عربى حول ما استنسخ من أشكال عينية من الشكل العام - الأب آدم عليه السلام - وحول هذه الإشارة يقول ابن عربى تحت عنوان «الجسوم الإنسانية وأنواعها» ما نأخذ منه ما يأتى.

(١) الفتوحات المكية ٢٥١ - ٢٥٥.

الجسوم الإنسانية وأنواعها:

«فإن هذا الباب مخصوص بابتداء الجسوم الإنسانية وهى أربعة أنواع:

١ ـ جسم آدم.

٢ ـ جسم حواء.

٣ ـ جسم عيسى.

٤ ـ أجسام بنى آدم.

ولكل جسم من هذه الأربعة نشوء يخالف نشوء الجسم الآخر فى السببية، مع الاجتماع فى الصورة الجسمانية والروحانية. وإنما سقنا هذا ونبهنا عليه لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية أو أن الحقائق لا تعطى أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلا عن سبب واحد، يعطى بذاته النشء.

فرد الله ـ تعالى ـ هذه الشبهة بأن أظهر هذا النشء الإنسانى فى آدم بطريق لم يظهر به جسم حواء، وأظهر جسم حواء بطريق لم يظهر به جسم آدم. وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسى ـ عليه السلام.

ويطلق على كل واحد من هؤلاء اسم الإنسان بالجد والحقيقة ذلك ليعلم: أن الله بكل شىء عليم وأنه على كل شىء قدير.

ثم إن الله قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق، فى آية واحدة من القرآن فى سورة الحجرات، فقال عز من قائل: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم﴾.. فهذه الآية من جوامع الكلم وفصل الخطاب.

جسم آدم وجسم حواء:

لما ظهر جسم آدم كما ذكرنا، ولم تكن فيه شهوة نكاح، وكان قد سبق فى علم الله الحق ـ إيجاد التوالد والتناسل والنكاح فى هذه الدار ـ والنكاح فى هذه الدار، إنما هو لبقاء النوع ـ فاستخرج من ضلع آدم القصير حواء فقصرت «المرأة» بذلك

عن درجة الرجل كما قال تعالى «وللرجال عليهن درجة» فما تلحق النساء بهم «أى الرجال» أبدا وكانت حواء من الضلع للانحناء الذى فى الضلوع، لتحنو بذلك على ولدها وزوجها، فحنو الرجل على المرأة، حنوه على نفسه، لأنها جزء منه، وحنو المرأة على الرجل لكونها خلقت من الضلع، والضلع فيه انحناء وانعطاف.

وعمر الله الموضع من آدم الذى خرجت منه حواء بالشهوة إليها إذ لا يبقى فى الوجود خلاء فلما عمره بالهواء حن آدم إليها حنينه إلى نفسه، لأنها جزء منه، وحنت حواء إليه لكونه - أى آدم - موطنها الذى نشأت فيه فحب حواء هو حب الموطن، وحب آدم هو حب نفسه.. ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة، إذا كانت عينه وأعطيت المرأة القوة المعبر عنها بالحياء فى محبة الرجال فقويت على الإخفاء لأن الموطن لا يتحد بها اتحاد آدم بها.

فصور «الحق» فى ذلك الضلع، جميع ما صوره وخلقه فى جسم آدم، فكان ينشىء جسم آدم فى صورته كنشء الفاخورى فيما ينشئه من الطين والطبخ. وكان نشء جسم حواء نشء النجار فيما ينحته من الصور فى الخشب. فلما نحتها فى الضلع وأقام صورتها وسواها، وعدلها. نفخ فيها من روحه، فقامت «حواء» حية «ناطقة» أنثى.. ليجعلها محلا للزراعة والحرث لوجود الإنبات الذى هو التناسل. فسكن آدم إليها، وسكنت إليه وكانت لباسا له، وكان لباساً لها. قال تعالى: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾. وسرت الشهوة منه فى جميع أجزائه فطلبها.

مع الجسم الثالث:

﴿فلما تغشاها﴾ آدم، وألقى فى الرحم، ودار بتلك النطفة من الماء، دم الحيض الذى كتبه الله على النساء تكوّن فى ذلك الجسم، جسم ثالث على غير ما تكون منه جسم آدم وجسم حواء. فهذا هو الجسم الثالث. فتولاه الله بالنشء فى الرحم حالا بعد حال: بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة.. فلما أتم «الله» نشأته الحيوانية، أنشأه خلقا آخر، فنفخ فيه الروح الإنسانى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ولولا التطويل، لبيّنا تكوينه «أى تكوين الإنسان» فى الرحم حالا بعد حال، ومن يتولى ذلك من الملائكة، الموكلين بإنشاء الصور فى الأرحام إلى حين الخروج، ولكن كان الغرض الإعلام، بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة فى الحد والحقيقة والصور الحسية والمعنوية، فإن أسباب تأليفها مختلفة، لئلا يتخيل أن ذلك لذات السبب - تعالى الله - بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء، كيف يشاء من غير تحجير ولا قصور على أمر دون أمر، ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

تكوين جسم عيسى عليه الصلاة والسلام:

ولما قال أهل الطبيعة: إن ماء المرأة لا يتكون منه شىء، وإن الجنين الكائن فى الرحم إنما هو من ماء الرجل، لذلك جعلنا تكوين جسم عيسى عليه الصلاة والسلام تكوينا آخر وإن كان تدبيره فى الرحم تدبير أجسام النبيين.. فإن كان «تكوين جسم عيسى» من ماء المرأة «إذ تمثل لها الروح بشرا سويا» أو كان من نفخ بغير ماء، فعلى كل وجه هو «أعنى جسم عيسى» جسم رابع مغاير فى النشء غيره من أجسام النوع - ولذلك قال تعالى - ﴿إن مثل عيسى﴾ أى صفة نشء عيسى «عند الله كمثل آدم فى خلقه من تراب». الضمير يعود على آدم، ووقع الشبه فى خلقه من غير أب أى صفة نشأة - عيسى - صفة نشء آدم، إلا أن آدم خلقه من تراب، ثم قال له «كن»!!

ثم إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - على ما قيل، لم يلبث فى بطن أمه لبث البنين المعتاد لأنه أسرع إليه التكوين، لما أراد الله تعالى أن يجعله آية «للناس» ويرد على الطبيعيين حيث حكموا على الطبيعة بما أعطتهم من العادة لا بما تقتضيه مما أودع الله فيها من الأسرار والتكوينات العجيبة.

ولقد أنصف بعض حذّاق هذا الشأن الطبيعة فقال: «لا نعلم منها إلا ما أعطتنا خاصة، وفيها مَا لا نعلم..»[1].

هذا مجمل ما أشار به ابن عربى حول إيجاد الجسم أو الشكل لصورة الإنسان

(١) الفتوحات المكية ٢٤٧ - ٢/٢٥١ باختصار وتصرف

الحقيقى، وتسويته وتأهيله بوضع آلاته وأدوات القوى التى سوف تديره وتربطه بكل ما هو حوله ويختص به فى مهمته بعد إهباطه إلى عالم الاستحالات والإنشاء، فى الدنيا.. تأهيله بتلك القوى التى ستحركه، وتجعله قادرا على التحرك والتعامل بكل ما سخر له، ووجد لقيادته - بإذن الله تعالى - أخذاً وعطاء أو تربطه - أى القوى - بأصله فى «أم الكتاب» وقبل ذلك تربطه بخالقه - سبحانه وتعالى.

وقد رأينا ابن عربى قد بدأ إشارته حول هذا التأهيل بقضية وضع القنوات التى تربطه بالملائكة الحفظة الذى ستكون مهمته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهم فيما يعمله فى نفسه ومع نفسه أو مع ما حوله، وخدمتهم له ورعايته، ورعاية جميع ذريته الذين سوف يستتسخون منه أولا أو بعضهم من بعض فيما بعد بأمر الله تعالى وإذنه.. وذلك حينما قال: «إن الله تعالى قد أودع عند كل ملك من الملائكة الموكلين به الخاصين بمهمة هذا الجسم - وديعة لآدم - أى الجسم أو الشكل - وقال لهم: ﴿ إنى خالق بشر من طين﴾ وهذه الودائع التى بأيديكم هى له (فإذا خلقته) فليؤدى إليه كل واحد منكم ما أمنتكم عليه .. ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين..﴾.

من دلالات السجود ومعانيه فى الآية:

وإشارة الودائع هذه تجعلنا نقف عند قوله تعالى: ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ .. يجعلنا نستوحى من ورود السجود بعد التسوية مباشرة معنى ومفهوما لهذا الأمر بالسجود، وخصوصا إذا علمنا أنه قد دار حوله خلاف طويل بين الشراح والمفسرين، فالسجود هنا قد يعنى خدمة أولئك الملائكة لآدم ورعايته، ومتابعته متابعة قوية - له وعليه - والارتباط به لتسهيل كل أمور مهمته الموكلة إليه فى قيادة الأرض وإعمارها حتى تنتهى مهمته تلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك إذا علمنا أن الأمر إليهم بتأدية هذه الودائع إنما كان عند التسوية بينه وبينهم، أى الربط العملى والفعلى بين ما يوضع فيه من رقائق، وما كان قد سبق وأودع فيهم من مثيل تلك الرقائق، فإذا بدأ التشغيل الفعلى لهذا الجسم.

بأمر الله تعالى وإذنه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وذلك بنفخ الروح، والطاقة المحركة له ـ أى الروح ـ والله تعالى أعلم ـ عندها تبدأ المهمة التى هى له عندكم، ولكم عنده، ولذلك قال الله تعالى : ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ ـ وهذا الكلام يستدعينا أن نقف قليلا حول ما قيل وورد عن قضية السجود من حيث اللغة والاصطلاح، وقوفا فى غاية الإيجاز والاختصار، حتى لايطول الموضوع وهو واضح ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ فماذا قيل؟؟

وإذا نحن رجعنا لقواميس اللغة العربية، نجد أن المعنى العام لسجد يدور حول التذلل والخضوع، وإن كانت هناك معان كثيرة تتفرع من هذا المعنى العام، ومن ذلك هذه الدلالة التى أشار إليها الإمام القرطبى فى جامع أحكام القرآن الكريم بقوله:

قال الشاعر:

بجمع تضل البلق فى حجراته ... ترى الأكم فيها سُجداً للحوافر

الأكم الجبال الصغيرة، جعلها سُجداً للحوافر، لقهر الحوافر إياها وأنها لاتمتنع عليها .. والإسجاد : (يعنى إدامة النظر...)(١).

إذن فالقرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ يشير بمعنى آخر للإسجاد والسجود وهو إدامة النظر النظر.. ومن خلال هاتين الدلالتين ـ تتضح لنا ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ إشارة أخرى لدلالة الأمر بالسجود فى الآية القرآنية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهى ـ مثلا ـ أن تلك المجموعة من الملائكة التى أمرت بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ـ أنها لاتمتنع عن أداء ما أوكل إليها من مهمات متابعة هذا المخلوق فى كل ما يخصه ويرتبط بمهمته وخلافته فى الأرض، وعدم الامتناع عليه فى تذليل ما سخر له فى هذا الكون، والتذلل يعنى عدم الامتناع.

أما إذا أخذنا الدلالة الثانية ـ للسجود ـ فهى تؤكد لنا هذه الإشارة وتجليها أكثر ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فالإسجاد يعنى إدامة

---

(١) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ٢٩٠ ـ ١/٢٩٣.

النظر، وهذه الإدامة تعنى المتابعة والتركيز الشديد فى الأمر أو الشىء، والنظر يعنى إما النظر الفكرى - وهذا وارد فى المهمة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين وأما النظر البصرى - وهذا وارد أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أو كلاهما، لأنه لايوجد ما يمنع من ذلك.. فمثلا لو أنا رجعنا إلى بعض مهمات بعض أولئك الملائكة فيما أودع عندهم من ودائع - رقائق - وأوكل إليهم - من مهمات تخصهم بهذا المخلوق، لبان أمر ما ذهبنا إليه، فى هذه القضية - قضية الإسجاد والودائع - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فهذا واحد من أولئك الملائكة عليهم الصلاة والسلام أجمعين - وهو ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - مثلا.. ألم يسبق أن أشرنا أثناء حديثنا حول قضايا الآجال والرقائق، عن مهمة هذا الملك والصورة الإنسانية التى عنده وعملية متابعته لهذا المخلوق، وما قلناه - إن كنا نذكر عن الارتباط الوثيق بين هذا الملك - عليه الصلاة والسلام - وبين أغلى ما يملك هذا المخلوق، وهى روحه التى بها يحيا، وبها يتحرك.. ألم نقل وننقل ما ورد فى الخبر - نوجز منه بعض الإشارات للتذكير فقط - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين قوله ﷺ إن صح - أن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بفصيله .. إذن فهذا الملك - عليه الصلاة والسلام - قد أودعت عنده أمانة - رقيقة - أوكل إليه شأن مهمتها وهى تخص رقيقة أخرى وضعت فى هذا الجسم، فكيف بوضعه ومتابعته، وعنايته فى أمر هذا الوديعة والأمانة الموكل بها؟ ألم يقل تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾[1]؟

إذن فمهمة هذا الملك، وشأن رقيقته، هى توفيه وقبض روحه، عند انتهاء أجلها المحتوم.. وانظر معى إلى هذه اللفظة فى هذه الآية - السابقة - ﴿وكل بكم﴾، وصيغة بنائها الصرفى، وورود التضعيف فيها، وما الذى تعنيه هذه الزيادة فى بنية الكلمة، ألا

(١) سورة السجدة: آية «١١».

توحى لنا بقوة المداومة والمتابعة فى الأمر المسند إلى هذا الملك فى مهمته مع هذا المخلوق عندما يبدأ سريان الحياة فى هذا الشكل والجسم بعد هبوطه إلى الأرض وتحوله إلى طبيعتها، وهنا قد يتضح لنا بعض ما ذهب إليه الشيخ ابن عربى فى أمر هذه الرقائق المزدوجة، بين هذا المخلوق الجسمانى وبين من أوكل إليه أمر رعايته ومتابعته، والارتباط به فى كل مهماته ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ سواء كان ذلك له أو عليه، وأن أمر هذا الارتباط والمتابعة، إنما هو منذ التسوية والخلقة لهذا المخلوق، ولو رجعنا مثلا لما ورد من آيات قرآنية، قبل الآية القرآنية الآنفة الذكر، لربما وضحت لنا الرؤية أكثر ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ قال الله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾[1] إلى أن قال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ .. إذن فالمهمة تبدأ من عند التسوية، كما أشار إلى ذلك هذا الشيخ ، كما فهم ذلك من القرآن الكريم ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن هنا أظن أن أمر دلالة ـ إدامة النظر ـ قد بدأت تتضح بعض ملامحها والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وقد يزيد ذلك توضيحاً بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ نص الخبر النبوى الشريف ـ على صاحبه أفضل الصلاة والسلام السابق فى إشارة قضية الآجال، وما فيه أيضا من أمر هذه الرقائق، وخصوصاً رقيقة هذا الملك ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهى تلك النسخة الكاملة لكل ما فى الدنيا ومنها صورة هذا المخلوق الجسمانى ـ وهذا الخبر، وإن كنا قد أوردناه أكثر من مرة ـ فلا بأس ـ أيضا ـ من إيراد بعض منه أو كله إذا كان إيراده كله قد يوضح ما نرمى إليه ـ بإذن الله تعالى وفضله ـ من توضيح لمثل هذه القضية الخلافية الحساسة ـ وبالله التوفيق (ورد فى خبر الإسراء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، عن النبى ﷺ قال: مررت على

(١) سورة السجدة: الآيات «٧ ـ ٩».

ملك آخر جالس على كرسى، إذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه، وبيده لوح مكتوب ينظر فيه، ولايلتفت عنه يمينا ولا شمالا، فقلت: يا جبريل - عليه الصلاة والسلام - من هذا؟؟ قال: هذا ملك الموت عليه الصلاة والسلام - فقلت ياملك الموت، كيف تقدر على قبض جميع أرواح من فى الأرض، برها وبحرها قال: ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى، وجميع الخلائق بين عينى، ويداى تبلغان المشرق والمغرب.. فإذا نفذ أجل عبد، نظرت إليه، فإذا نظرت إليه عرف أعوانى من الملائكة أنه مقبوض، غدوا فبطشوا به يعالجون روحه، فإذا بلغوا بالروح الحلقوم، علمت ذلك، فلم يخف علىّ شىء من أمره ، مددت يدى فأنزعه من جسده، وآلى قبضه)[1].

هذا بعض من ذلك الخبر السابق الإشارة إليه، وفيه ترى إشارة لمهمة واحد من أولئك الملائكة الموكل أمر متابعة هذا المخلوق إليهم، بما جعل بينه وبينهم من وسائل ربط تربطهم بعضهم إلى بعض، وهى تلك الرقائق التى سبقت الإشارة إليها، فهذا ملك الموت، ترى أن الدنيا كلها وجميع ما فيها قد نسخ فى رقيقة بين ركبتيه، وفى يده لوح آخر وقد وزعت عيناه بين هاتين الرقيقتين، وهو دائم النظر إليهما لايلتفت عنهما يمنة ولا يسرة، بل هو دائم التركيز عليهما، إذن فهنا تتضح لنا دلالة السجود المشار إليها، فقد رأينا أن اللغة تقول لنا أن من أهم دلالات السجود، هما دلالتان، إما الخضوع والتذلل، وإما إدامة النظر، وقد رأينا أن إدامة النظر هى خير ما ينطبق أمر معناها على أمر هذا الارتباط بين هذا الجسم المخلوق وبين من أوكل أمر متابعته إليهم، وإن كانت كلتا الدلالتين للسجود وارد أمر ارتباطهما بذلك.. إذن فمعنى السجود فى الآية السابقة ليس مقصودا به، سجود عبادة - كما هو عند جمهور علماء السلف - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن الأمر فيه باقى معناها اللغوى الذى أُشير إليه بدلالتين من دلالاته، وإن كان هناك فى الآية دلالات ومعان لاندركها نحن الآن وقد يأتى زمنها متى أراد الله - سبحانه وتعالى - ومثل رقيقة مهمة ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - فى متابعة ما

(١) التذكرة للقرطبى: ١/٨٣.

عنده من وديعة رقيقة - وأداء أمانة مهمتها لهذا المخلوق الإنسانى كما أمر الله سبحانه وتعالى .. هذه مهمة رقيقة أخرى من مهام تلك الرقائق وهى مهمة:

مع رقيقة الكرام الكاتبين

الملائكة الكرام الكاتبين، وهم الذين أشير إليهم وإلى مهمتهم فى آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية شريفة - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ ..[3]

وهناك أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة، يشير إلى مهمة هؤلاء وغيرهم، كقوله ﷺ: «يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ».

وأظن أن أمر هذه الرقيقة قد مضى الحديث عنها مُطولاً فى فصل كتاب الأعمال، فليرجع إليه من أراد كثير إيضاح عن هذه الإشارة وغيرها من إشارات الرقائق، والتى هى هذه الودائع - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فلننتقل - بعون الله تعالى وفضله - بالحديث إلى إشارة أخرى وردت فى كلام الشيخ ابن عربى السابق، حول تأهيل هذا الجسم الإنسانى لما يراد منه لمهمته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى إشارة إيجاد عناصر هذا الجسم وتسويتها، تسوية عمومية وخصوصية - كما سبق الإشارة إلى

---

(١) سورة الانفطار: الآيات «١٠ - ١٢».
(٢) سورة ق: الآيات «١٦ - ١٧ - ١٨».
(٣) سورة الرعد: آية «١١».

ذلك - وما يرتبط بأمرها من تسويات متنوعة مختلفة، وتلك الإشارة هى إشارة التخمير والعجن لهذه العناصر - أى طينة هذا الجسم المراد إيجاده، والذى سمى آدم فيما بعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأرى قبل البدء بالحديث عن هذه الإشارة والتنويه عنها ببعض التفصيل، أن نقوم بتبويب وتجزىء ما أجملَهُ الشيخ ابن عربى حول تأهيل هذا الجسم - فى حديثه السابق، وبعد ذلك نحاول أن نتحدث عن بعض ما يستحق الحديث منها وتأييده بما ورد نقلا وعقلا - بإذن الله تعالى وأمره - فمع هذا التبويب.

الفصل السابع
تبويب وتجزىء ما أجمله ابن عربى
فى أمر تأهيل الجسم الإنسانى

(أ) مع نقل وإدخال صور جميع الجنس البشرى فيما يخصها من رقائق فى جسم آدم:

يقول الشيخ ابن عربى ـ رحمه الله تعالى ـ فى هذا الجزء: «فلما خمر ـ الحق سبحانه وتعالى ـ بيديه الشريفتين طينة آدم تغير ريحها (وهو المسنون).. وذلك هو الجزء الهوائى الذى فى النشأة.

فجعل الحق سبحانه وتعالى ـ ظهر ـ هذا الجسم، محلا للسعداء والأشقياء من ذريته فأودع فيه ما كان فى قبضتيه فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ أخبرنا أن فى قبضة يمينه السعداء، وفى قبضة اليد الأخرى الأشقياء ، و(كلتا يدى ربى يمين مباركة) وقال «هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون».

وأودع الله تعالى ـ سبحانه ـ الجميع طينة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة وأنشأه على الحركة المستقيمة، وجعله ذا جهات ست، الفوق وهو ما يلى رأسه، والتحت يقابله، وهو ما يلى رجليه، واليمين وهو ما يلى جنبه الأقوى، والشمال وهو ما يلى جانبه الأضعف، والأمام وهو ما يلى الوجه، ويقابله القفا.. (وصوره سبحانه ـ ونفخ فيه من روحه المضاف إليه ـ تشريفاً).

(ب) إدخال شفرة تفاعل خلط العناصر وامتزاجها إيذانا بتشغيل الحركة الحيوية وسريانها فيها:

فحدث عند هذا النفخ فيه ـ سريانه فيه ـ أى إدخال الروح فيه والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين فى أجزائه، أركان الأخلاط التى هى الصفراء، والسوداء، والدم، والبلغم ـ فكانت الصفراء من الركن النارى ـ الذى أنشأه

الله تعالى فيه فى قوله تعالى ﴿من صلصال كالفخار﴾ وكانت السوداء من التراب وهو قوله تعالى: ﴿خلقه من تراب﴾.. وكان البلغم من الماء الذى عجن به التراب فصار طينا، وكان الدم من الهواء، وهوقوله تعالى ﴿مسنون﴾.

(ج) مع تشغير ضبط القوى التى تنتج نتيجة التفاعل الكيماوى للعناصر وامتزاجها:

ثم ألحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيه:

(١) القوة الجاذبية التى يجذب بها الحيون الأغذية.

(٢) ثم القوة الماسكة: والتى يمسك بها ما يتغذى به الحيوان.

(٣) ثم القوة الهاضمة: والتى بها يهضم الغذاء.

(٤) ثم القوة الدافعة: والتى بها يدفع الفضلات عن نفسه.. من عرق وبخار، ورياح وبراز وأمثال ذلك.. وأما سريان الأبخرة وتقسيم الدم فى العروق من الكبد، وما يخلصه من كل جزء من الحيوان فبالقوة الجاذبة، لا الدافعة فحظ القوى الدافعه ما يخرجه ـ كما قلنا ـ من الفضلات لاغير.

(د) مع تشغير القوى الغريزية فى هذا الجسم:

ثم أحدث الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيه : ١ ـ القوة الغاذية ٢ ـ القوة المنمية، ـ ٣ ـ والحسية، ٤ ـ والخيالية، ٥ ـ والوهمية، ٦ ـ والحافظة، ٧ ـ والذاكرة.

وهذا كله فى الإنسان مما هو حيوان، لا بما هو إنسان فقط.. غير أن هذه القوى الأربعة: قوة الخيال ـ والوهم ـ والحفظ ـ والذكر ـ هى فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان.

(هـ) مع تسوية أماكن القوى الخاصة بالإنسان فى تأهيل الجسم العام:

ثم خص الله تعالى ـ آدم ـ الذى هو الإنسان : ١ ـ بالقوة المصوّرة، ٢ ـ والقوة المفكرة ٣ ـ القوة العاقلة، فتميز بها الإنسان عن الحيوان.. وجعل الحق ـ جل سناه ـ

هذه القوة كلها في هذا الجسم آلات للنفس الناطقة - لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية، (ثم أنشأه خلقا آخر) وهو طور الإنسانية، فجعله - جل سناه - دراكا بهذه القوى: حيا - عالما - قادرا - مريدا - متكلما - بصيرا - على حد معلوم في كتابه: (فتبارك الله أحسن الخالقين).

مع تحليل سريع لما سبق من كلام ابن عربي:

هذا هو مجمل تبويب ما أشار إليه ابن عربي السابق، وقبل أى تحليل يجب أن نلاحظ جميعاً أن كل ما أشار إليه ابن عربي وما هو مثله في كتب بعض التفاسير، حول هذا التأهيل، وكل ذلك الحديث إنما هو حديث عن إيجاد وتأهيل هذا الجسم، إيجادا روحانياً، أى إيجاد عناصر تكوين هذا الجسم، وهى لاتزال في حالة أقرب إلى نورانيتها الخالصة - وإن كانت متجسدة، وقد يتضح لنا ذلك أثناء تحليل بعض ما أشار به ابن عربي، كما ذكرنا. فمع فقرة(أ).

فمع فقرة (أ) . تخمير الطينة ونقل صور جميع الجنس الإنسانى فى جسم ما يسمى آدم: وفى هذه الإشارة سنلاحظ أن ما أشار إليه ابن عربي، وقد يتفق مع أكثر مدلولاته كثير من الآيات القرآنية وأحاديث رسول الله ﷺ.. ولكن أقربها جميعا آية وحديث، وهذه الآية والحديث تجر وتدعو لإيراد الآيات والإشارات التى قد ترتبط دلالاتها بهذه الآية، والحديث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. أما الآية فهى قولة تعالى: فى سورة الأعراف: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم﴾(1) أما الحديث فقوله ﷺ.

«عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ، قال: خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا، ثم قال: اذهب فسلّم على أولئك - من الملائكة، واستمع ما يحيونك، وهى تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن. رواه الشيخان والترمذى(2). ولفظة: لما خلق آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال:

(1) سورة الأعراف: آية «11».

(2) البخارى فى خلق آدم، ومسلم فى نعيم الجنة والترمذى فى آخر التفسير.

الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، فقل السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع رأى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان، اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته.. قال: يارب ما هؤلاء؟! قال : هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان ومكتوب عمره بين عينيه.. إلخ»[1]. هذه هى الآية والحديث ولنبدأ مع الآية، وهذه الآية القرآنية وإن كانت قد سبق إيرادها فى أثناء الحديث عن الخلق التقديرى، والإيجاد فى أم الكتاب، ولكن استدعى المقام هنا إيرادها، فأوردناها، وعند التأمل فى هذه الآية تلاحظ أنها تشير صراحة، لما سبق الإشارة إليه حول قضية الخلق الجماعى لجميع الجنس الإنسانى دفعة واحدة ثم اختير واصطفى واحدا منهم... إلخ كما سبق الإشارة إليه.. ورأينا أن جميع هذا الجنس قد أودع وأدخل فى «أم الكتاب».. وقد سبق والآن سنرى إشارة أخرى تشير إلى نقل جميع صور هذا الجنس وإبداعه فى حيز آخر بصفات وخصائص أخرى تختلف عن خصائصها التى كانت عليها فى «أم الكتاب»، ليجرى استنساخ آخر من هذا الجسم والشكل، وهو أيضا جمعى لهدف وحكمة، ثم إعادة الجميع فى هذا الجسم، ليستنسخ منه استنساخ فردى بنوعية عكسية، وهكذا ـ كما سيأتى تفصيل ذلك بأن الله تعالى ـ فلنمض الآن مع نقل وتصوير صور هذا الجنس الإنسانى فى هذا الجسم، الذى ميز بميزة خاصة من بين جميع المخلوقات، ميزة تجعله أهلا للمهمة التى اختير لتوليها، وهى مهمة الخلافة فيما بعد فى الأرض، لذلك باشر ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه بكلتا يديه ـ سبحان الله عما يصفون ـ فقال: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى). وعند هذا الخلق الخاص التشريفى جرى ما أشار إليه ابن عربى بقوله: «فلما خمر الحق ـ جل سناه ـ بيديه طينة آدم تغير ريحها ـ وهو (المسنون).. إلى أن يقول : «فجعل ظهره محلا للسعداء والأشقياء إلخ.. هناجرى نقل وإدخال جميع تلك الصور النورانية فى رقيقة ظهر هذا الجسم ـ الذى

---

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص» ٤/٣٨، ٢٩٦ ـ ٥/٢٩٧.

سيسمى آدم فيما بعد ، لتبدأ بهذا النقل مرحلة إيجاد آخر - وهى المرحلة الثانية، وهى وإن كانت نورانية، ولكنها، نورانية الذرة الطينية فى حالة عنصرها الأصلى غير المتعنصر - ما يسمى عند علماء الفكر الإسلامى - بالهيولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو الجزء الخاص بمرحلة سكنى الجنة فى وقتها، وعند رحلة الإياب - بعد البعث - بإذنه تعالى - أو يمكن لنا أن نقول: إنها مرحلة أو فترة بدء امتزاج العناصر وتركيبها - عند الزلة فى الجنة - والاستعداد للإهباط إلى الأرض لبدء مهمة النشأة الأولى فى الصورة الدنيوية، وذلك عندما تتحول تلك الذرات وتمتزج، وتتحرك - شفرة - الآلات الخاصة بهذه النشأة الدنيوية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو ما أشار إليه ابن عربى بقوله:(وأودع الله تعالى الجميع طينة آدم، وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة والنشأة).

وهذه الإشارة والتى قبلها، قد ورد ما يؤيدها ويشير إليها نقلاً وعقلاً.. فهذا صاحب كتاب جامع أحكام القرآن الكريم يشير بهذه الإشارة الصريحة الموجزة فيقول: «قيل معنى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ أى: خلقنا الأرواح أولاً: «ثم صورناكم». أى الأشباح آخراً.. وقيل المعنى (خلقناكم) فى ظهر آدم، ثم صورناكم حين أخذنا الميثاق.

عن ابن عباس رضى الله عنهما: «خلقنا آدم.. ثم صورناكم فى ظهره»[1].. هذا ما أشار به القرطبى - رحمه الله تعالى - ومثله قد سبق أن أوردناه عن الشيخ الرازى - رحمه الله تعالى - وكذلك مثله فى الطبرى وفى جميع كتب المفسرين، بدليل إشارة ابن عباس رضى الله عنهما - فمن الطبيعى سوف يرويها أكثر المفسرين وعلى رأسهم شيخهم وهو الإمام الطبرى - رحمه الله تعالى - وفيها ترى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - يعلنها صريحة: أنه سبق أن أوجد آدم عليه الصلاة والسلام، ثم تلى ذلك تصوير جميع الخلق فى ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - هذا ما أشار به حبر

(١) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى ١٦٨ - ٧/١٦٩.

الأمة وترجمان القرآن الكريم فأين ما يؤكد فيه ما أشرتم إليه، أما ما أشار به وهو ينطبق على ذلك، فذلك أن معنى ما أشار به، ويؤكده ما قبله، وهوقولهم إن الله تعالى، خلق الأرواح أولا، والأرواح هى بعينها إشارة صريحة إلى الخلق النورانى الجمعى الذى سبق خلق آدم الجسمانى، وهذا يؤيده ما بعده وهو قولهم: (ثم صورناكم) أى خلقنا الأشباح آخرا، والأشباح هى إشارة إلى الخلق الطينى، فى عناصره الأولى ـ كما سبق والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن هنا تأتى إشارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، فقوله خلقنا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أى الخلق والإيجاد والتكوين الشبحى ثم جرى بعد ذلك نقل وإدخال جميع تلك الصور فى هذا الخلق الشبحى بدليل أنه رضى الله تعالى عنهما ـ سماه باسمه الذى سوف يؤول إليه هو آدم ـ أى سمرة الأرض ولونها وهى الأدمة، ولذلك قال: (ثم صورناكم فى ظهره) يشير إليه ـ عندنا ـ شيئان ويدلان عليه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذان الشيئان هما: الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ السابق الذكر ـ ولفظة أخرى وردت فى آية قرآنية تتحدث عن مرحلة هذه التسوية والتكوين وهى قوله تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون﴾ وقد أشار بها الشيخ ابن عربى ـ رحمه الله تعالى ـ فى حديثه السابق المجمل ـ وهى لفظة (مسنون) وفى هذين النصين الشريفين، نص اللفظة القرآنية (مسنون) ونص الحديث الشريف ـ على صاحبه أزكى الصلاة وأفضل التسليم ـ وفيهما سوف نلاحظ بإذن الله تعالى أن فيهما دلالة قوية على نقل صور جميع هذا الجنس الإنسانى، وهى فى حالتها النورانية العالية ـ والله تعالى أعلم ـ وإدخالها فى هذا الجسم المراد تأهيله وتسميته ـ بآدم عليه الصلاة والسلام ـ وفيهما أيضا ـ دلالة أخرى على كون المادة الطينية ـ المكون منها هذا الشبح ـ الهيولى ـ والجسم، أنها كانت فى تلك الفترة فى حالة نورانية، غير الحالة التى هى عليها الآن فى الدنيا بعد الإهباط ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين، ولنبدأ بلفظة (مسنون) القرآنية، وإيراد بعض دلالاتها اللغوية، وبعض ما ورد عنها فى بعض التفاسير، لعلنا

نستقى وننهل منها بعض الإشارات التى تشير إلى ما قلناه ـ بإذن الله تعالى وفضله ـ فمع لفظة (مسنون).

لفظـة (مسنون واللغـة)

وبالرجوع لبعض كتب ومعاجم اللغة، وأقربها مثلا تاج العروس، تجد أن مادة «سن أو سنن» ذات دلالات ومعان كثيرة، ولكننا سنحاول أن نوجز منها ما يتيسر ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ فماذا قيل: (قالوا يقال سن الطين سناً ـ عمله فخاراً .. أو طين به .. وفى المحكم : سّن الشىء بسنه (أى صوره) نقله الجوهرى.. (وهو مسنون) أى صوره.

والسُنة: بالضم: أى الوجه لصقالته وملاسته.. والسنة: الصورة... ومنه حديث الحث على الصدقة (فقام رجل قبيح السنة) أى الصورة...

وقيل: (مسنون) أى: مصبوب على صورة.. وقيل: (مسنون) أى: طويل محكوك[1].

هذه بعض من دلالات تلك اللفظة (مسنون) لغوياً.. ثم إنا لو نحن رجعنا لأكثر ما أورده المفسرون لهذه اللفظة، فإنا سنجد أن جُلّ ما أورده لايخرج عن أنهم، يأخذون دلالة (حمأ) المضافة إلى (مسنون)، ويدمجونها فى لدلالة (مسنون) ويعبّرون بها عنهما جميعاً، دون أن يشيروا بأى إشارة تفصيلية لدلالة كل لفظة منهما على حدة؛ فمثلا هذا الإمام القرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول مجملا عنهما بقوله: (.. فبّل ـ الله تعالى :ـ التراب حتى عاد طينا لازباً، وهو الذى يلصق بعضه ببعض، ثم ترك حتى أنتن، فذلك حيث يقول: «من حمأ مسنون» قال أنتن..)[2].. هذا ما قاله القرطبى، ومثله فى جل كتب التفسير.. فى حين لو رجعنا للآية نجد أن فيها لفظين هما: (حمأ) و (مسنون).. ولكل لفظ منهما ـ لو رجعنا لكتب اللغة ومتونها ـ عشرات الدلالات ومئات المعانى أضف إلى ذلك أن اللفظين واردان فى كتاب الحى الذى لايموت. إذن

---

(١) تاج العروس: للزبيدى ٣٤٣ ـ ٣٤٤/٩.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ٢٨٥/١.

فنحن أمام آلاف الدلالات - ولست مبالغا فى ذلك - والله - لكن هؤلاء المفسرين تجاهلوا كل ذلك وأدمجوا اللفظين فى لفظ واحد وعبروا عنهما بدلالة واحدة فقالوا (منتن) فيا ترى لأيهما تكون هذه الدلالة؟... أهى لحمأ أم هى لمسنون. وبحسب الرجوع لمتون اللغة، والتدقيق فى أكثر كتب التفاسير وأمهاته - يتضح للقارىء أن دلالة (منتن) هى أقرب ارتباطا بلفظة (حمأ) منها بلفظ (مسنون)، وذلك لأن من أهم دلالات (حمأ) دلالة تغيير ريحة الطين إذا خمر وترك، وكذلك يتغير لونه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن (فمنتن) هى تفسير للفظة (حمأ) لا (مسنون) لأنّا قد رأينا أن من دلالات (مسنون) أنها تأتى - بمعنى صقل الشىء وتحسينه... ومعان كثيرة لاتقرب مما ذكره المفسرون - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل رأينا أن دلالة (الصورة والتصوير) هى أيضاً من أهم دلالات (مسنون)... إذن فدلالة، (منتن) هى تُفسِّر لنا لفظة (حمأ).. وهنا سؤال وهو: ما مناسبة لفظ (حمأ)؟ بلفظة (مسنون) فى الآية بعد هذا التوضيح السابق، هذا الاستفسار قد توضحه لنا الدلالة الأخرى التى أوردناها ضمن دلالات (مسنون) السابقة، وهى قولهم: إنها تعنى (صب الشىء على صورة).. إذن فالمناسبة هى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن التراب بعد أن يبل بالماء ويعجن حتى يصير طيناً، ثم يُخمّر ويترك، حتى إذا صار (حمأ) صُب فى قالب على هيئة وشكل وصورة معينة، فيصبح ذلك الطين هو نفس تلك الهيئة أو الصورة التى صب عليها ذلك (الحمأ) بعد ذلك جرى نقل وإدخال جميع صور الجنس الإنسانى فى ذلك القالب الطينى، الذى أصبح فيما بعد (جسم آدم) - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد رأينا أن ذلك الإدخال لتلك الصورة، قد كان وهى فى حالة نورانيتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ليستنسخ من ذلك الجسم فيما بعد ذرات عناصر جسوم جميع الصور التى أدخلت فى هذا الجسم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بقدرته وعظمته - سبحانه وتعالى - .. أظن أن هذا التوضيح البسيط يُقرّب من إشارة ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - السابقة حول آية التصوير ﴿ ولقد خلقناكم ﴾

أى آدم... ﴿ ثم صورناكم﴾ أى فى ظهر آدم، ولا نستغرب لما أشرنا به لأنا رأينا أن جميع هذه التسوية الطينية الحمئية لهذا القالب الجسم، إنما كانت هى، بيدى الرحمن الشريفتين الطاهرتين ـ جل وتعالى سناه ـ سبحانه ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾(١) .. إذن فهو تكريم إلهى بخلق هذا الجسم بيديه الطاهرتين، وهذا التكريم هو ما كشف لنا إشاراته ومدلولات معانيه، الذى لاينطق عن الهوى ﷺ، فى الحديث الشريف السابق الذى رويناه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وأرضاه.. هذا الحديث الذى كشف لنا ما أجملته الآية الشريفة ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾ وجميع الآيات المرتبطة بهذه المرحلة الخلقية.. كقوله تعالى السابق ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ .. فالآية السابقة تقول: ﴿ خلقت بيدى﴾ وهذه تقول: ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ ورأينا كل ما سبق أن قيل عنهما، وقلناه بفضله تعالى وحمده ، ثم يأتى الحديث الشريف ليجلى لنا تلك الإشارات وكل ما حاولنا أن نلف وندور حول ما فى هذه الآيات ولم نستطع أن نصل إليه، وأنَّى لنا ذلك؟ يأتى الحديث ليقول لنا عن عملية التصوير تلك وكيف تمت؟ وكيف تم نقل وإدخال جميع تلك الصور؟ وتصويرها بداخل هذا الجسم.. جاء ليقول:

فقال له ربه، ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت قال: اخترت يمين ربى، وكلتا يدى ربى يمين مباركة.. ثم بسطها: فإذا فيها آدم وذريته.. فقال: أى ربى ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك ، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا هو رجل أضوؤهم أو من... إلخ الحديث).

هذه أهم إشارات ذلك الحديث الشريف ـ على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ فما الذى تعنيه؟ يقول الشيخ منصور على ناصف ـ أحد علماء الأزهر الشريف ـ حول قوله ﷺ: (ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته..) إلخ... (فلما بسط الله يمينه ـ ظهرت صور لأرواح آدم وبنيه وعمر كل منهم مسطور بين عينيه) ... إذن فما ظهر فى يمين ربى، كان صور جميع الجنس الإنسانى ومن ضمنهم من سمى بعد ـ بآدم عليه الصلاة والسلام .

(١) شرح التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص»: ٣٨ ـ ٤/٣٩.

وهذه الصور هى التى جرى نقلها وإدخالها فى مكانها الخاص بها رقيقتها الخاصة بذلك - فى طينة ذلك القالب الجسمى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - .. ألم يمر بنا قولهم : «سن الشىء: صوره» والله سبحانه وتعالى، خلق آدم (بيديه) من ذلك (الحمأ المسنون).. أى أنه سبحانه وتعالى، سنَّ وسوىَ ذلك الطين الحمئى بيديه الطاهرتين، هذه التسوية هى إدخال ونقل تلك الصور.. ولن نزيد حول ذلك بأكثر من هذا التوضيح لما يكتنف ذلك من مزالق عقدية، نسأله سبحانه وتعالى أن يجنبنا ذلك، إنه على ذلك قدير.. وبهذا التوضيح أيضاً أظن أنه قد وضح لنا - الآن - بعض ما أشار به الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - فى قوله: «فلما خمر الحق تعالى - بيديه - طينة آدم تغير ريحها (وهو المسنون).

إذن فسن ذلك الطين الحمئى، يعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تصوير مثال جميع صور الجنس الإنسانى فى مكانها المخصص لها - أى رقيقتها الخاصة بها - فى ظهر هذا الجسم الطينى - المسمى آدم فيما بعد - بل إن هذه الإشارة تؤكدها إشارة حديث سابق، وهو ما أشار بمعناه الشيخ ابن عربى بقوله: (فأودع الله تعالى - فيه - أى فى جسم آدم عليه الصلاة والسلام - ما كان فى قبضته سبحانه - فإنه سبحانه وتعالى - أخبرنا : أن فى قبضة يمينه السعداء ، وفى قبضة اليد الأخرى الأشقياء، وكلتا يدى ربى يمين مباركة.. إلخ.. ومن هنا يتجلى لنا قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وحقيقة هذا التصوير:

ومن ذلك كله قد يتجلى لنا أيضا - بعض من حقائق هذا التصوير، وحقيقة هذا التصوير بجزءيه، النورانى الخالص - أى الطاقة الخالصة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - النورانى الآخر ، المتجسد - الهيولى - أظن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه هو مقصود الخلق الأول بمرحلتيه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ثم إن هذا التصوير النورانى الجمعى لهذا الجنس الإنسانى بأكمله وما جرى له من نقل من مكانه الذى كان فيه ونورانيته التى كان بها فيه، تم تحويله من طبيعة نورانيته تلك ومكانتها إلى طبيعة نورانية أخرى وإيداعه فى مكان طبيعتها، أى إخراجهم ونقلهم إلى طبيعتها، وهى حالة إيجادية عنصرية فى حالة نورانية محسوسة متجسدة، أو ما يسمونه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بالحالة الهيولية، وهى مرحلة كل ما سبق من حديث حول ما تم من تسوية وتصوير قبل قليل - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ... وبعد أن تمت كل عناصر تسوية مرحلة هذه الحالة الإيجادية، كما سبق، جرى استنساخ جمعى آخر لجميع صور هذا الجنس من خلال هذا الجسم الطينى، ليكون هذا الإخراج - الاستنساخ - الهيولى الخالص - هو نتيجة ذلك الإدخال النورانى الخالص، أى إدخال نورانى بطبيعة وخواص معينة، وإخراج نورانى على طبيعة خواص أخرى، غير ما أدخل وهو على طبيعتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا الإخراج فى هذه المرحلة النورانية المتجسدة قد دلت عليه - أيضا - مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية الصريحة، ومجموعة أحاديث نبوية شريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - ترتبط بها آيات وأحاديث أخرى كثيرة - أيضا ولكن هناك آية من تلك الآيات يمكن لنا أن نبتدىء بها فى حديثنا حول هذه الإشارة (ولنستعن بالله تعالى فهو سبحانه نعم المولى ونعم المصير).

مع مرحلة الاستنساخ والإخراج الجمعى بطبيعة خصائص التسوية الهيولية:

فمع الآية القرآنية وشىء مما قيل عنها قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[1].

(١) سورة الأعراف: آية «١٧٢».

هذه هى الآيـة القرآنية (الأولى فى هذا الفصـل)، وفيها ترى أنها تشـير إلى إشارات كثيرة، ومتنوعة، منها مثلا، أنها تشير إلى دلالة رئيسية وردت فى حديث نبوى شريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وهذا الحديث، وهو المروى حول قبض الطينة التى أخذت من الأرض وكُوّن منها الجسم العام - الذى سمى فيما بعد آدم - وذلك لأن فى هذا الحديث وإن اختلفت رواياته إلا أنّ معناه العام واحد، وهو أن الملك الذى أرسل إلى الأرض ليأخذ منها التراب الذى سوف يكون منه ذلك الجسم، لم يقبض أو يأخذ من مكان واحد من الأرض، بل كما فى الحديث نوع الأخذ، حيث أخذ من تربة حمراء، وبيضاء، وسوداء، ومن كل أنواعها المختلفة، ولذلك - كما فى الحديث - خرج بنو آدم مختلفين[1] أو كما روى عن أبى موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل، والحزن والخبيث والطيب. رواه الترمذى - قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. هذا هو الحديث والدلالة التى تشير إليها الآية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - هى أن تلك القبضة الترابية - الطينية فيما بعد - التى قبضت من الأرض، إنما هى تمثل قبض جميع ذرات جسوم الجنس الإنسانى، مُزجت جميعها وكونت الجسم العام، المسمى آدم - ولذلك رأينا الآية السابقة تقول: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ تشير إلى هذه الدلالة ولكن بخصوصية أخرى، وإن كان الجميع يؤول إلى قضية تكوين وتسوية هذا الجسم الآدمى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين[2]. وذلك أنا قد أوردناه هناك أن الجميع قد صوّر فى هذه الطينة،ومن: ضمن ما قلناه حول إثبات هذه الإشارة،وخصوصا، لفظة (مسنون) وما قالته اللغة عنها، ألم تقل من ضمن ما قالت: أن العرب تقول: (سن الشىء صوره، ومنه (مسنون) أى: مصبوب على صورة..). إذن فجميع الذرات الإنسانية التى مُزجت فى ذرة آدم - عليه الصلاة

(١) بتصرف من جامع الأحكام: للقرطبى ١/٢٨٠.
(٢) الجامع للقرطبى ١/٢٨١.

والسلام، إنما هى كانت عبارة عن قوالب، جسومية قد عُدت وهيئت فى الجسم العام نفسه، والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ثم أُدخلت صور جميع هذا الجنس الإنسانى لتُصَب فى قوالبها الخاصة بكل صورة منها بعد أن هُيئت لتقَبُّل صورتها الخاصة بها، لتستنسخ وتستخرج فيما بعد بطبيعة وخواص أخرى، غير ما أدخلت بها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب ـ وفى هذه الآية نرى أن مقصود الخلق الترابى، إنما هو هذه الذرات المتكونة، وكيف أن أصلها وعنصرها هو نورانى قبل امتزاجه وَتَركُبه، وتشير الآية ـ أيضا إلى الكيفية التى سيكون عليها بعد امتزاجه هناك، وبعد هبوطه إلى الدنيا، وهكذا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهناك إشارات أخرى كثيرة جدا، سوف تتضح لنا بمشيئة الله تعالى وتوفيقه ـ عند التحليل.. بعونه تعالى.

فلو رجعنا إلى ظاهر النص لوجدناه يشير إلى ذلك وإلى الكيفية التى سوف يخرج بها بعضهم عن بعض وإن اختص كل واحد منهم بخواصه وسماته التى لايشترك فيها معه غيره قبل المزج وبعده ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فماذا أورد عنها علماء التفسير من إشارات؟ ولنبدأ مع جامع أحكام القرآن للقرطبى، وقد سبق أن قلنا أنه كتاب جماع رواية ودراية لكل من سبقوه، ومن هنا أكثر الأخذ منه وبالله العون والتوفيق، يقول: (وهذه آية مشكلة، وقد تكلم العلماء فى تأويلها وأحكامها، فنذكر فيضا مما ذكروه.. من ذلك حسب ما وقفنا عليه.

أ ـ فقال قوم (إن معنى الآية: أن الله تعالى، أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض).

ب ـ وقيل: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ (أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه تعالى، جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها).

جـ ـ وفى الحديث، عن النبى ﷺ غير هذين القولين، وأنه أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم ـ عليه وعلى نبينا ﷺ .. كما روى مالك فى موطئه أن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه وأرضاه.. سئل عن هذه الآية - آية الذر - فقال - عمر رضى الله عنه وأرضاه - سمعت رسول الله ﷺ: يسئل عنها، فقال: إن الله تعالى خلق آدم فمسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون - ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقتُ هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون... إلخ الحديث.. قال أبو عمر: هذا حديث منقطع الإسناد لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر.

ولكن معنى الحديث قد صح عن النبى ﷺ من وجوه كثيرة، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم أجمعين.،.. وغيرهم.

وروى عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما وأرضاهما، عن النبى ﷺ أنه قال: أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس.. وجعل الله تعالى لهم عقولا، كنملة سليمان،عليه الصلاة والسلام وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره، فأقرّوا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض.. قال أبى بن كعب: وأشهد عليهم السماوات السبع.. فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد(١).

هذا جل ما أوردناه من إشارة الإمام الطبرى حول آية الذر، وهو أيضا موجز من أقوال أكثر المفسرين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وبالتأمل فيه ترى أنه أشار بكلام غاية فى الإيجاز - إلى مجمل الآراء الثلاثة التى أشرنا بها حول تعدد مراحل الخلق والإيجاد والإنشاء، أو مراحل الخلق الإخراجى المتنوع - إن صح التعبير - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذ كان الخلق التقديرى الأول، ثم الخلق الثانى فى (أم الكتاب).

وهو الخلق النورانى الروحانى الخالص.. ثم كان هناك الإخراج والإيجاد النورانى المتجسد فى أشباح عنصرية نورانية - الإخراج الهيولى - ثم الإيجاد من

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى ٣١٤ - ٧/٣١٦.

الذرية بعضها من بعض وهو إخراج لايدخل فيه آدم عليه الصلاة والسلام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو الذى سوف تكون منه النشأتان - بإذن الله تعالى - والله تعالى أعلم - الدنيوية التناسلية، ثم الفورية عند البعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ولذلك نراه يشير - القرطبى - إلى إشارة الخلق الأول وإيجاده فى (أم الكتاب) بقوله: «وقيل - إنه سبحانه وتعالى، خلق الأرواح قبل خلق الأجساد.. » ... وأشار إلى قضية النشأتين بقوله: «وأن الله تعالى: أخرج من ظهور بنى دم بعضهم من بعض.. وأشار إلى المرحلة الثانية بقوله: (وفى الحديث عن النبى ﷺغير ذلك: وأنه أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام ... هذا ما أشار به .. وقد سبق أن وقفنا قليلا عند مرحلة الإيجاد النورانى الخالص، ثم بدأنا نشير ببعض الإشارات إلى المرحلة الثانية، وهى ما عنوناها بمرحلة - الإيجاد الهيولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى مرحلة بداية تكوين الأجسام والأجساد العنصرية، ولكنها بخصائص ،وسمات تختلف عما ستؤول إليه فيما بعد بالإهباط إلى عالم الاستحالة والتحولات - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى مرحلة المزج والتركيب.. وبالتأمل فى مجمل الأقوال التى أوردها الإمام القرطبى - وغيرها كما سيأتى بعد ذلك نلاحظ أن ذلك الجرم الشبحى الذى عدّ وهيئ - بيدىّ الحق جل سناه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يكون الوعاء الذى سيمتزج فيه عنصر هذا الخلق الإنسانى، تخرج فيما بعد بخصائص وسمات أخرى غير ما كانت عليه قبل هذا الدمج والمزج - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لتأدية مهمات كبيرة أرادتها حكمة الله العظيمة، لما ورد من أن هذا المخلوق الإنسانى، سوف يهبط إلى طبيعة عالم آخر يتولى قيادته، بحكم الخلافة الممنوحة له من خالقه - سبحانه وتعالى - وهذا العالم هو العالم الدنيوى. فمع إشارات المزج والتركيب وحكمه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

من حكم المزج وإشاراته:

سبق أن أوضحت لنا بعض الإشارات، شيئا من الكيفيات التى ثم بها نقل وإدخال صور هذه الذرات إلى داخل هذا الجرم الآدمى وهى فى حالتها النورانية البحتة الخالصة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما أشارت إلى ذلك آية التصوير السابقة وما ارتبط بها.. أما آيات الذر فسنرى من إشاراتها كيفية امتزاج هذه الذرية مع بعضها فى هذا الجرم، واستنساخها منه بعد ذلك وهى على طبيعة أخرى، وإن بقى كل عنصر منها محتفظا بطبيعته الأولى بعد الامتزاج هناك، وعدم تغيّره بعد الإهباط، لكونه سيعود إلى طبيعة هذا المكان بعد أجله المحتوم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سواء كان ذلك فى (أم الكتاب) أو فى مكانه المخصص له فى داخل هذا الجرم (عجب الذنب كما سيأتى بإذن الله تعالى - والله تعالى أعلم - فمع شيء من تلك الحكم للمزج العنصرى.

يقول الشيخ ابن عربى (وجعل الله تعالى - سبحانه - العالم فى الدنيا ممتزجاً - لذلك مزج القبضتين فى العجنة - العجنة الآدمية - ثم فصل الأشخاص منها، فدخل من هذه القبضة فى هذه القبضة - من كل قبضة فى أختها فجهلت الأحوال - لدى الخلق - وغايته التخليص من هذه المزجة، تمييز القبضتين، حتى تنفرد هذه القبضة بعالمها، وهذه القبضة بعالمها كما قال الله تعالى : ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم﴾[1]. وليتحقق فى النهاية - عند العودة بإذن الله تعالى - قول الله تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾[2].

إذن فمزج تلك العناصر فى هذا الجسم الذى تكون من تلك الذرات الترابية التى عجنت بذلك الذى تحولت به تلك العجنة إلى صفة أخرى اسمها الطين، ليمزج

(١) الفتوح المكية: ٢/٢٢٩.
(٢) الفتوح المكية: ٢/٢٤٦.

جميع الأشخاص فى داخل تلك العجنة سواء من كان من قبضة اليمين، أو كان من القبضة الأخرى جميعهم دمج فى بعض ومزج، ولذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ما نشاهده فى دنيانا اليوم، إذ ترى الكافر يخرج من المؤمن والمؤمن من الكافر،وليست قصة عكرمة بن أبى جهل وأبو عبيدة بن الجراح وغيرها كثير بغفلة عنا، وأظهر - والله تعالى أعلم - بهذا التناسل يتفرد كل واحد من هذا الجنس الإنسانى إلى عنصره الذى كان أصله قبل مزجه ودمجه فى تلك العجنة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - والحمد لله رب العالمين - ليتحقق قوله تعالى: ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ وقوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ وقد يكون هذا هدفا من أهداف الحكمهةمن وراء ذلك المزج والدمج فى تلك الطينة، وهى أهداف كثيرة جدا، وقد ندرك بعضها ونجهل بعضها. من ذلك - أيضا - إلى ما سبق - أن عناصر هذه الذرات أو الذرة الترابية هى فى أصل طبيعتها أشياء متنافرة (ولايمكن أن تجتمع أبدا إلا فى الصورة، ولكن على حسب ما تعطيه حقائقها، ولا يوجد منها فى صورة - أبدا - واحد، ولكن يوجد اثنان..)(١) أى بتركيب عنصرين من هذه العناصر يتكون عنصر آخر له صورة محسوسة، وهو ناتج عن ذلك التركيب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فمثلا: (إذا امتزجت الحرارة باليبوسة، تكون النار، وإذا امتزجت الحرارة والرطوبة، يكون الهواء، وإذا امتزجت البرودة والرطوبة يكون الماء، وإذا امتزجت البرودة واليبوسة يكون التراب..).. وإذا سألت لماذا كل ذلك؟ يجيبك هذا الشيخ بقوله: (فانظر فى تكّون الهواء عن الحرارة، والرطوبة، ويكوّن النفس الذى فى الحياة الحسية،وهو كذلك المحّرك لكل شىء بنفسه، وللماء والأرض، والنار.. وبحركته تتحرك الأشياء، إذا كانت الحركة أثر الحياة.

إذن فمن أسرار هذا المزج - إن لم يكن هو من أهمها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - هو أن يكون سر تقوم به حياة هذا الامتزاج، أو

---

(١) الفتوح: ١/٢٤٦.

الجسم الممتزج من كل ذلك، إذا نزل إلى العالم الدنيوى، العالم الذى من طبيعته هذا الامتزاج والاستحالة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ... وأظن أن هذا أمر قد كشفه لنا الحق جل سناه عن طريق العلم الذى منحناه من عند الله - سبحانه وتعالى - بل وقد أشار إليه القرآن الكريم نفسه قبل ابن عربى، إذ قال - جل من قائل:﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كإنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾[1].. هذا الأمر الذى كشف ، أنه لا هواء - أكسجين - خارج الغلاف المحيط بالأرض فإذا خرج الإنسان خارج هذا الغلاف انعدم عنه الأكسجين - وذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن هذا الأكسجين هو سر منحه الله تعالى لحياة هذه الصورة العنصرية داخل هذه الأرض وغلافها، فإذا خرجت هذه الصورة خارج هذا الغلاف الأرضى بدون أن يكون معها شىء مزودة به من أمر هذا السر - الأكسجين - فقدت هذه الصورة حياتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. ثم إن هذا الامتزاج يعطينا إشارة إلى أن كل هذه العناصر فى أصلها هى طاقة نورانية وذلك، لأنه ليس لها أعيان فى حقائقها ، إلا إذا تركبت.

لنخرج من ذلك بحكمة أخرى من أثرهذ الامتزاج، وهى أنه لاصور محسوسة للماهيات - الطاقة - إلا إذا تركبت - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عناصرها .

لا صور محسوسة للأعيان قبل تركيب عناصرها:

لذلك يقول الشيخ ابن عربى، موضحا لنا هذه الإشارة بقوله - رحمه الله تعالى - : إن الحقائق على قسمين:

(أ) حقائق توجد مفردات فى العقل، كالحياة، والعلم، والنطق والحس.

(١) سورة الأنعام: آية «١٢٥».

(ب) وحقائق توجد بوجود التركيب، كالسماء والعالم والحجر.. وقد أراد المختار جل سناه - أن يؤلفها - أى العناصر المتنافرة - الأضداد - لما سبق فى علمه خلق العالم وأنها أصل أكثره، أو أصله إن شئت، فألفها، ولم تكن هذه الأمهات - العناصر المتنافرة - موجودة فى أعيانها - أى أنها صور - ولكن أوجدها مؤلفة ... فأوجد - سبحانه وتعالى - الصورة، التى هى عبارة عن تأليف حقيقتين من هذه الحقائق - فصارت تلك الأمهات وكأنها كانت موجودة متفرقة... وهذه حقيقة أجزاء العناصر - والله تعالى أعلم - ثم ألفت فظهرت للتأليف - عند التأليف - حقيقة لم تكن وقت الافتراق.. فالحقائق تعطى أن هذه الأمهات لم يكن لها وجود فى عينها البتة قبل وجود الصور المركبة عنها.. فلما أوجد الحق - جل سناه - هذه الصور التى هى : الماء - النار - الهواء - الأرض.. جعلها - سبحانه وتعالى - يستحيل بعضها إلى بعض، فيعود النار هواء، والهواء نار، وهكذا..[1].

إذن فمن أسرار هذا المزج والدمج العنصرى فى تكوين هذا الجسم - المسمى فيما بعد آدم - هو إيجاد صور عينية لتلك الحقائق النورانية، أى أعيانا تصبح محسوسة ملموسة، لعدم اتصافها بذلك قبل تركيبها.. وأظن أن هذه الإشارة قد أشار إليها الدين نفسه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ووضحها لنا اليوم العلم التجريبى - والله تعالى أعلم.. ألم يروا عن رسول الله ﷺ فى خبر الإسراء والمعراج عن النهرين اللذين رآهما رسول الله ﷺ، فسأل عنهما جبريل عليه الصلاة والسلام - فقال: (هما النيل والفرات عنصرهما) إذن فما فى الدنيا الآن وقبل الآن من صور أعيان لأى شىء إنما هى صور لما سبق أن ركب ومزج هناك - فى الملأ الأعلى[2] - ولذلك تجد قول جبريل - عليه الصلاة والسلام - النيل والفرات عنصرهما - إذن فما هناك إنما هو أصول وعناصر ما هو موجود هنا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. أما العلم الحديث فهو ما

---

(١) الفتوح: ٢٤٨ - ١/٢٤٩.

(٢) الفتوح: ٢٤٨ - ١/٢٤٩ - والمواهب اللدنية: ٣.

يعبر عنه أهله بقولهم عن هذه الإشارة الدينية، بالمواد العضوية، أو العناصر المركبة أى الصور التى تكون ناتجة من تركب عنصرين من تلك العناصر الكثيرة والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. إذن فمن حكم إيجاد هذا الجسم الآدمى، إنما هو إظهار ماهيات حقائق الصور النورانية البحتة، فى صور نورانية أيضا - هناك - ولكنها - وإن كانت نورانية بطبيعة مكانها التى هى موجودة فيه، إلا أنها متجسدة ومحسوسة، وهى ذات إشارات وإيحاءات كثيرة وفيها تأكيدات كثيرة أيضا، كتأكيد إشارة صور الاستنساخ الجمعى النورانى من (أم الكتاب) - كما أشارت إلى ذلك سورة الأعراف - ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾، وذلك عندما نقلت كل تلك الصور وأودعت فى هذا الجسم ومزجت بداخله، وهنا سنرى، أن جميع تلك الصور التى أدخلت بطبيعة خاصة - طبيعة مكانها الذى كانت فيه - إلى هذا الجسم، سنرى أنها سوف تستنسخ وتخرج منه - الجسم - بطبيعة أخرى وإن كانت نورانية أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو ما أشارت إليه آية الأعراف آية الذر.. وهذه الصور، وهذا النوع من الاستنساخ والإخراج - أظنه - هو ما أشار إليه العلماء بقولهم: (أخرج الأرواح فى أشباح.. كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ورأينا أن هذا الاستنساخ والاستخراج النورانى المتجسد المحسوس، كان له حكم وأهداف سبق بعض منها، ومنها أيضاً - وهو من أهمها - كما سيترتب عليه أمر الاستنساخ والاستخراج الأخير وهو استنساخ النشأتين، نشأة الإهباط إلى عالم التحولات، ونشأة العودة لطبيعة المرحلة الثانية التى نتحدث حولها نحن الآن وهى نشأة البعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا ما أشارت إليه الآية نفسها حينما قالت: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ .. إذن فهو هدف أخذ الميثاق عليهم هناك، بأن الله هو ربهم وخالقهم؛ لأنهم سوف يحولون إلى طبيعة أخرى قود يخالفوانذلك العهد المأخوذ عليهم، ورغم ذلك

وعدهم - سبحانه وتعالى - بأنه سوف يرسل إليهم من يذكرهم ذلك، وهم الأنبياء والرسل.. ولذلك سنرى أنه سبحانه وتعالى بعد هذا الاستنساخ النورانى الشبحى وقبل أخذ الميثاق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه سيعقبه تسوية وتعليم خاص، وبعد ذلك يؤخذ عليهم الميثاق، ثم يعادون إلى ذلك الجرم ويهبط إلى عالم الاستحالة والتحولات، وما سوف يعقب ذلك - بأمر الله تعالى وإذنه - وأظن أن ذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ وأظنه أيضا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة..﴾، وهنا نعود لما سبق أن قلناه آنفا.. فقد قلنا أن آية الذر هذه تشير بإشارات كثيرة، ومنها إشارة الاستنساخ والإيجاد الجمعى للجنس الإنسانى من جسم آدم عليه الصلاة والسلام ، وهى لفتة لما سبق من إدخال جميع هذا الجنس الإنسانى إلى داخل هذا الجسم دفعة واحدة وهو بطبيعة معينة، ونورانية - أخرى - ذات خصائص معينة كذلك، ثم إخراجه منه وهو بطبيعة معينة قد تختلف بعض الشىء فى خصائصها عما أدخلت به، وهذا ما أكده الحديث النبوى الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - السابق المروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما: (أخذوا من ظهر آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس... إلخ). إذن فهم قد أدخلوا جملة وأخرجوا منه - أيضا جملة - .. بل فى هذا الحديث وسابقه المروى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، لفتة أخرى - وهى أن يمين ربى - سبحانه - التى أدخلت قبضته اليمنى - واليد الأخرى التى أدخلت القبضة الأخرى، هما اليدان الطاهرتان الشريفتان المباركتان اللتان أخرجتا هذا الجنس الإنسانى من ذلك الجسم، وهذه اللفتة تعطينا ما نحن نلف وندور حوله فى هذه المرحلة، وهو ما نريد إثباته حول نورانيتها - وإن كانت متجسدة - كما سبق - وكذلك الإيجاد الجمعى، سواء كان ذلك جميعهم معا وآدم معهم، كما هو فى (أم الكتاب) أو إدخالهم جميعاً فى جسم آدم فيما بعد ثم أنّا سوف نلاحظ أن هذا الإخراج الجمعى النورانى المتجسد سوف يعاد ويدخل إلى داخل هذا الجسم مرة أخرى، ليستنسخ منه

استنساخ آخر فردى مغاير فى نوعه لما استنسخ منه - ليستنسخ منهما معا بعد ذلك استنساخات فردية متتالية بعضها من بعض حتى ينفرد كل واحد بطبيعته الخاصة التى أدخل بها أول مرة فى ذلك الجسم العام - الذى سمى آدم عليه السلام - ليتحقق معنى قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾.

من أدلة وبراهين الاستنساخ الجمعى ذو النورانيـــة المتجسدة

وهذا الخلق الجمعى، والاستنساخ الجمعى المتجسد الوارد فى آية الذر السابقة، تشير إليه وتجلى الكثير من خصائصه وأهدافه، ما جاء فى سورة البقرة من حلقة من حلقات خلق هذا الجنس الإنسانى وهو قوله تعالى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة،قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لاتعلمون❖ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين❖قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ❖ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ❖وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين❖وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين❖فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ❖فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ❖ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

هذه بعض آيات قرآنية تشير إلى حلقات مراحل خلق هذا الإنسان جميعه، وهى كما تراها تشير وتؤكد إلى أن هذا الخلق الدنيوى قد سبق بمرحلة خلقية هى سابقة

---

(١) سورة البقرة: الآيات «٣٠ - ٣٨».

عليه، وأنها ذات خصائص وصفات طبيعية،تخصها وأنها قائمة بنفسها ، وأنها غير الخلق الدنيوى، بل إن المرحلة الدنيوية هى قائمة ومترتبة على تلك المرحلة، لأشياء كثيرة أشارت إليها هذه الآيات وما سبق أن أشرنا إليه وكذلك آيات أخرى وأحاديث نبوية شريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. إذ فى هذه المرحلة حصل أخذ العهد والميثاق علينا بألا نعبد إلا الله وحده ولانشرك به، وفيها أيضا حصل تعليم هذا الجنس الإنسانى بالمنهج الذى سوف يسير على نهجه فى رحلته الدنيوية إن أراد أن ينجو من عذاب الله تعالى وغضبه وسخطه، وفيها أيضا حصل بعض التدريب العملى - كما قال بعض العلماء - لهذا المنهج - افعل ولاتفعل - كما حصل فى الجنة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فهى مرحلة خلقية حقيقية واقعة - حركية الحياة - إدراكاً - عقلاً - فهماً - كما أشار إلى ذلك حديث ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما - ألم يرد فيه «وقد أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس وجعل الله تعالى لهم عقولا كنملة سليمان عليه السلام» وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم لا إله غيره، فأقروا بذلك. والتزموه.. إلخ.

إذن فهى مرحلة خلقية فيها كل مقومات الخلق والحياة، ولكنها نورانية. وإن كانت متجسدة - إذ هى موجودة - كما سبق - فى مكان من خصائص طبيعته النورانية والروحانية - فكيف لاتكون هى كذلك؟ كيف لاتكون كذلك وكل من معهم وحولهم فى تلك البيئة هو نورانى.. أما ما سبق أن أوردناه مما قاله الشيخ ابن عربى حول هذه البيئة التى أوجد آدم فيها قبل إهباطه إلى الأرض وطبيعة ذرته وذرة من أوجد معه. هناك من جنسه الإنسانى، ولا بأس من إعادة ما قاله هنا لحاجة الموقف إليه - بل ما قاله هو أيضا كان حول بعض دلالات الآيات التى أوردناها آنفا ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ - يقول الشيخ - رحمه الله تعالى - نوجزه.

(إذ إشارة إلى السرمد الذى هو من الأزل إلى الأبد، والقول هو إلقاء معنى تعلق مشيئة الله تعالى، إيجاد آدم فى الذوات القدسية الجبروتية، التى هى الملائكة المقربون والأرواح المجردة، والملكوتية التى هى النفوس. إذ كل ما يحدث فى عالم الكون

له صورة قبل التكوين فى عالم الروح، الذى هو عالم الفضاء السابق، ثم فى عالم القلب، الذى هو قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.. ثم فى عالم النفس، أى نفس العالم الذى هو لوح المحو والإثبات - المعبر عنه بالسماء الدنيا فى التنزيل. كما قال الله تعالى : ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.. فذلك قوله تعالى للملائكة ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين(١).

هذا موجز ما أشار به ابن عربى حول الآية السابقة. وفيه نلاحظ أن آدم وما استنسخ منه فى هذه المرحلة الإيجادية، كان فى بيئة نورانية عالية جداً، وإن كانت متجسدة الخلق، لأنها بيئة الملائكة المقربين - والملائكة بوجه عام رأينا أنهم عالم خلقه خلق نورانى - طاقة .. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فما بال الأمر إذا كانت تلك البيئة بيئة الملائكة المقربين كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم - عليهم الصلاة والسلام - من ذلك العالم المجرد، ومعلوم أن العالم المجرد هو من عالم الكلمة وهو عالم الأنوار - إذن فهى صورة مستنسخة ذات طبيعة متجسدة فى طبيعة عالم نورانى... وهذه الصورة المتجسدة النورانية تجعلنا نعود قليلا لعالم الصور وتعددها وتنوعها الذى سبق أن أشرنا ببعض الإشارات عنها - ولكن عودتنا لهذا العالم الصورى متنوعة - ستكون بإذن الله تعالى من خلال ما أورده الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - عنها - من خلال ما ستورده لهذا الشيخ - رحمه الله تعالى - ستتضح لنا إشارات كثيرة عن عالم الصور وتنوعه - حتى وإن كانت تلك الصور نورانية فكيف ذلك؟؟

ابن عربى وعالم الصور وتنوعه

وبالرجوع لما كتبه هذا العالم الفذ - رحمه الله تعالى - يتضح لنا أن الصور عنده متنوعة ومتعددة - إذ منها الصور النورانية الساكنة - بدون أرواح - ومنها أيضا - صور

(١) تفسير ابن عربى: ٣٥ ١/٣٦.

عنصرية ساكنة ـ بدون أرواح.. ثم الصور الجسدية الخيالية ـ الشبحية ـ ولذلك يقول (.. ولما أكمل الله تعالى ـ هذه الصور النورانية، بلا أرواح، تكون غيبا لهذه الصور... تجلى ـ سبحانه وتعالى ـ لكل صنف من هذه الصور بحسب ما هى عليه فتكون عن الصور وعن هذا التجلى أرواح الصور فخلق سبحانه وتعالى ـ الأرواح وأمرها بتدبير الصور.. وجعلها .. ذات واحدة.. وميز ـ سبحانه وتعالى .. بعضها عن بعض .. فتميزت.. وليست الصور بأبنيات لهذه الأرواح على الحقيقة، إلا أن هذه الصور لها كالملك فى حق الصور العنصرية ـ وكالمظاهر فى حق الصور كلها ـ ثم أحدث الله تعالى ـ الصور الجسدية الخيالية ـ بتجلٍ آخر بين اللطائف والصور تتجلى فى تلك الصور الجسدية.. والصور النورية والنارية ظاهرة للعين وتتجلى الصور الحسية حاملة للصور المعنوية.. فى هذه الصور الجسدية فى النور وبعد الموت وقبل البعث ـ وهو البرزخ الصورى وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق ـ فإن أعلاه السماء وأسفله الأرض.. وهذه الأجساد الصورية هى التى يظهر فيها الجن والملائكة(١).. ولذلك فالملائكة أرواح منفوخة فى أنوار والجان أرواح منفوخة فى رياح.. والأناسى أرواح منفوخة فى أشباح(٢).

إذن فاستتساخ الجنس الإنسانى من الجرم الآدمى فى هذه المرحلة، إنما هو استنساخ لهذا الخلق الإنسانى فى صور نورانية مجسدة متلائمة مع طبيعة تلك البيئة النورانية الروحانية. بل قد تكون من جنس صور تلك الملائكة، حينما تتجسد، إذ رأينا أن الملائكة ـ لها صور.. ولكنها صور من نور ـ لاترى بالعين الإنسانية الدنيوية إلا إذا تجلت وتجسدت فى صور جسدية، وهى أيضا صور نورانية، ولكنها عنصرية وعناصرها لاتزال فى حالتها الطبيعية ـ الطاقة الخالصة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ كما قال فالملائكة أرواح منفوخة فى أنوار، إذن فالجنس الإنسانى فى هذه المرحلة الخلقية هو المقصود بقوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ إذن فهو استنساخ جمعى وإن كان عن طريق الجرم

(١) الفتوح المكية ابن عربى: ٣٥٢ ـ ١/٢٥٣.
(٢) نفس المرجع: ٢/٢٨١.

الآدمى المتجسد ذى الطبيعة النورانية - وهى إشارة أيضا إلى أن الجميع كانوا مع آدم عليه السلام سواء. وأنه واحد منهم اصطفى ليجعل على طبيعة خاصة - كما سبق - جسدية ليستنسخ منه هذا الجمع مرة أخرى وبنفس الطبيعة الجسدية التى حصل عليها - والأدلة على ذلك كثيرة - عقلا ونقلا - فمع أدلة ذلك وتوضيح بعض ما فيها من إشارات.

الفصل الثامن
حضور جميع الجنس الإنسانى
عرض وحوار التعليم المنهجى فى الملأ الأعلى

التسـوية العموميـة:

فمن أدلة النقل حول ذلك العرض والحوار التعليمى الذى تم فى الملأ الأعلى، بين الحق جل سناه، وملائكته الكرام - نوجز منها ما قد نراه قريباً مما نريد بإذن الله تعالى وتوفيقه - قال الإمام القرطبى - رحمه الله تعالى:

«وقد اختلف المتأولون - أيضاً - حول قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.. فقد اختلفوا هل عرض على الملائكة: أسماء الأشخاص، أو الأسماء دون الأشخاص» - فقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وأرضاه وغيره:

(أ) عرض الأشخاص لقوله تعالى (عرضهم).. وقوله (أنبئونى بأسماء هؤلاء..) لا تقول العرب - عرضت الشىء فأعرض، أى أظهرته فظهر، منه عرضت الشىء للبيع.

(ب) وفى الحديث أنه عرضهم أمثال الذر..

(جـ) وقال ابن عطية:« والذى يظهر: أن الله تعالى: علم آدم الأسماء وعرضهم عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة - وسألهم عن تسميتها التى تعلمها ثم أن آدم قال لهم هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا».

(د) وقال الماوردى: «وكان الأصح توجه العرض إلى المسمين»[1].

هذا ما قاله القرطبى، وترى معى أن العرض كان بالأشخاص والأسماء وأنهم جميعا، حتى الأشياء التى سوف تكون معهم فى الدنيا كانت؛ فى العرض. كما يدل عليه قول ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم

---

(١) القرطبى: ١/٢٨٢.

أجمعين: (أنه علمه ـ سبحانه وتعالى ـ أسماء وجميع الأشياء كلها جلها وحقيرها)[1]. إذن فالأناس جميعهم احضروا مع آدم عليه الصلاة والسلام لهذا العرض.

ويظهر أن التسوية التعليمية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وكل ما يتعلق فيها من تعليم المنهج والتدريب عليه والهداية إليه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وما إلى ذلك تمت فى هذه المرحلة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وذلك لأسباب كثيرة سوف نشير إليها بعد هذا الوجه ـ بمشيئة الله تعالى وتوفيقه ـ ونمضى مع العرض الجمعى أشخاصا وشخوصا.. ولذلك نجد ابن عربى رحمه الله تعالى (يؤكد على قضية هذا العرض.. وما قيل عنه نقلا.. نجده يقول(قال: (عرضهم) أى عرض مسمياتها على الملائكة بشهودهم البنية الإنسانية، ومرافقتهم لآدم فى التنزيل..) إذن فشهودهم العرض التعليمى كان ببنيتهم الإنسانية ـ البنية الإنسانية ـ ولكنها بطبيعة غير الطبيعة التى هى بها فى الدنيا.. ونمضى مع أسباب المنهجة والتدريب العملى فى هذه المرحلة الطينية النورانية، وذلك لكونها مرحلة تتناسب مع طبيعة حقائق الأشياء العلمية وطبيعتها.. يقول ابن عربى: (إن الحقائق على قسمين: حقائق توجد مفردات فى العقل كالحياة والعلم والنطق والحس.. وحقائق توجد بوجود التركيب فى السماء والإنسان.. فقوله حقائق مفردات توجد فى العقل، كأنه يعيدنا إلى ما سبق أن أشار به أثناء حديثه عن التسوية الطينية وخصوصا ما يتعلق منها بالإنسان. عندما قال (إن العقل ساذج) أى أنه لايقبل إلا الحقائق المفردة فى تلك البداية ـ ولكن تلك الحقائق المفردة هى أصول وأساسيات ما يبنى عليها من تركيب فيما بعد ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وقوله أيضا ـ حقائق مفردات توجد فى العقل، أى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ كأنه يشير إلى طبيعة تلك المرحلة بإشارة ضمنية غير مباشرة. أى لأن تلك المرحلة هى مرحلة نورانية والعقل كما هو معروف عنه أنه

(١) القرطبى: ١/٢٨٢

شىء نورانى - لذلك فهو لايفعل إلا الأشياء التى تكون من طبيعته فى كل تعامله.. ونورانية العقل أمر مجمع عليه من كل أهل العلم.وقد أقرته لغة العرب فى دلالاتها وهى لغة القرآن الكريم. فقد ورد فيما نوجز منه (العقل هو جوهر مجرد عن المادة.. وقيل هو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات.. والحق.. أنه نور روحانى يقذف به فى القلب أو فى الدماغ.. به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية[1] والعلم والتعليم والنطق هى أشياء نورانية، إذن فهى من طبيعة العقل النورانى، لذلك كانت التسوية التعليمية هى أنسب بهذه المرحلة، إذ الجميع كله كان من طبيعة تلك البيئة النورانية.. إذن ففترة العرض هذه هى كانت فترة التسوية - وذلك لما يوحى به جو النص للآيات القرآنية - وبديل نصى - قرآنى - آخر قد تكون إشارته أكثر توضيحا لما نريد قوله فيما نحن بصدده - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو - أيضا - يؤكد لنا أن التسوية العقلية كانت فى مرحلة هذا الخلق النورانى - والله تعالى أعلم - وهذا النص هو قوله تعالى.. ﴿ الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾[2].

هذا هو النص - وإذا تأملنا فيه ترى أن سياقه الظاهر يشير إلى أن تعليم القرآن كان قبل خلق الإنسان.. وهنا سؤال: ترى من هو المعنى بتعليم القرآن - والذى أضمرت الإشارة إليه فى تعليم القرآن. إن قلنا هو الإنسان نفسه ترى أن خلق الإنسان فى نظم الآية جاء بعد تعليم القرآن. إذن فهل هناك خلق آخر كان هو المعنى بتعليم القرآن. ثم جاءت الإشارة بعد ذلك لخلق الإنسان. إذ قلنا بذلك نجد أنفسنا بعيدين عن جو النص القرآنى. بل وعن المقصود بالإشارة الحقيقية فى الآية. ولكن.. إذا نحن رجعنا للجو العام للنص فى السورة كلها، فإنا سنجد أن المعنى حقيقة بهذا التعليم - إنما هو الإنسان نفسه - وذلك لأسباب كثيرة جدا من أهمها - إن القرآن الكريم إنما هو منهج مختص بهذا الإنسان وحياته - ولايختص بغيره من الخلق - إلا بما ينظم حياة هذا الإنسان مع غيره من حيث ارتباطهم به وتنظيم علاقاتهم معه

(١) تاج العروس: ٢٥ - ٨/٢٦.

(٢) سورة الرحمن: آية «١ - ٤».

كالملائكة وبقية الكون وتعامله معهم. وإذا قلنا ـ بذلك ـ ترى كيف يكون ذلك ـ أى كيف يكون تعليم القرآن.. للإنسان قبل خلقه ـ إذن فقد كان هناك خلق لهذا الإنسان قبل خلقه فى الدنيا ـ وأظن أن كل ما سبق يشير إلى ذلك الخلق. ومنها خلقه فى هذه المرحلة النورانية الهيولية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وسوف تتضح لنا الرؤية أكثر فأكثر.. وهنا نعود لما نحن بصدده ـ وهو كون تسويته التعليمية كانت فى هذه الفترة النورانية ـ وذلك أن التعليم القرآنى لهذه الفترة هو أكثر ملاءمة من أى فترة تالية لذلك. وذلك نظرا لكون القرآن الكريم نفسه ـ روح ونور ـ كما سماه قائله ومنزله جل سناه بقوله تعالى عنه ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾[2].. إذن فالقرآن الكريم روح ونور ـ والإنسان فى هذه الفترة هو أيضا روح ونور وإن كان متحيزا فى جرم ـ إذ جرمه هذا لايزال فى حالة طبيعية عنصر النورانية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ إذن فالتعليم المنهجى كان فى هذه المرحلة الهيولية النورانية.. وهذه الإشارة التعليمة السابقة هناك يؤكدها شىء آخر فى النص نفسه ـ إذ نرى أن النص قد أورد لفظ خلق الإنسان مرتين: المرة الأولى عندما علمه القرآن فى المرحلة النورانية، ولذلك نجد فى النص إعادة لفظ خلق الإنسان مرة ثانية، ولكن بإشارة توضيحية أخرى تبين ـ أن الخلق الإنسانى الأول غير الخلق الثانى ـ دنيا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لذلك قال سبحانه وتعالى ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ ولذلك يقول الإمام الرازى[3] (لذا نجد أن الله تعالى قال: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ إشارة إلى أن تنزيله كان بعد تعليمه ـ وعلى هذا ففى

---

(١) سورة الشورى: آية «٥٢».

(٢) سورة النحل: آية «٢».

(٣) تفسير الرازى: ٨٥/ ٢٩.

النظم حسن زايد.. فقوله (علم القرآن) إشارة إلى تعليم العلويين.. وقوله تعالى (علمه البيان) إشارة إلى تعليم السفليين) ومن إشارة الرازى هذا نرى أن لفظ إنسان ليس مقصوداً به آدم - عليه الصلاة والسلام وحده - بل المقصود به جميع الجنس الإنسانى وأنه كان جميعا حاضرا تلك العرضة التعليمية مع آدم عليه الصلاة والسلام، بدليل أن هذا التعليم المنهجى لايخص آدم عليه الصلاة والسلام وحده بل يخص جميع الجنس الإنسانى بدون استثناء - كما مر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهنا قد ينشأ سؤال، وهو أن القرآن الكريم كتاب منزل على محمد ﷺ وبه وبأمته يختص - وعلى هذا فمنهجيته تخص أمته ﷺ وحدهم - فلماذا قلت أو أنك أوحيت بما يدل على ذلك - من أن تعليم القرآن الكريم كان شاملا لجميع الجنس الإنسانى؟

وفى الإجابة على ذلك - أنك سترى من خلال ما سنورده - بمشيئته الله تعالى - أن التسوية التعليمية تلك كانت ذات شقين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أدى إليهما الزمن الذى جعله الحق جل سناه مرتبطاً بهما - كما سوف يتضح لنا ذلك - بمشيئة الله تعالى - وذلكما الشقان، هما تسوية تعليمية عمومية - وتسوية تعليمية خصوصية - أما المنهجية التعليمية العمومية فهى حقيقة جلية صريحة تعم جميع الجنس الإنسانى دون تخصيص وهى الالتزام بوحدانية الحق سبحانه وتعالى - كما دل على ذلك أخذ الميثاق كما أشارت إلى ذلك آية الذر السابقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الحقيقة - أشار إليها القرآن الكريم بآيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها..﴾[1]. وفطرة الله تعالى هى التوحيد .. وهى فطرة فطر الله تعالى الناس جميعا عليها وأخذ لذلك عليهم العهد والميثاق وجميعهم ملزم بذلك - ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ لاتبديل لخلق الله﴾.

أى أن هذه الفطرة مترسخة فيهم لاتغيير لها - حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض.. ليقولن الله﴾ ولكن الإيمان الفطرى لايكفى - إذ لابد من تأكيده بالعمل -

(١) سورة الروم: آية «٣٠».

والله تعالى أعلم بالصواب والحقيقة والحمد لله رب العالمين ـ فلا خروج على ذلك إلا لشقى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهناك شئ آخر يؤكد على هذه الحقيقة وهى أن الرسل جميعا عليهم أفضل الصلاة والتسليم جاءوا فيما بعد للدعوة لها بدون استثناء ـ ولذلك نرى أن رسالة النبى محمد ﷺ إنما هى رسالة عامة وليست خاصة ـ تخص هذه الأمة وحدها ـ كما سبق ـ بل هى رسالة عالمية ورسولها كذلك ـ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وجاء أنه أيضا أرسل ﴿ كافة للناس﴾ وعلى ذلك جاء قول الفقهاء والمفسرين ـ أن لفظة (الإنسان) فى قوله تعالى بعد ﴿علم القرآن﴾ ـ ﴿خلق الإنسان﴾ .. (إن المراد منه الجنس.. (وإن قيل) ـ أيضا ـ أن المراد هو محمد ﷺ وقيل أيضاً أن المراد منه آدم عليه السلام. والأول أصح نظراً إلى أن اللفظ فى خلق، يدخل فيه محمد ﷺ وآدم عليه الصلاة والسلام، وغيرهما من الأنبياء[1] إذن فلفظ الإنسان يعنى به الجنس الإنسانى جميعه ـ وهو الذى عُلم المنهج القرآنى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ كما أشارت الآية القرآنية إلى ذلك صراحة (الرحمن ـ علم القرآن ـ خلق الإنسان ـ علمه البيان) وهنا يمدنا النص نفسه بإشارة توكيدية أخرى على هذه التسوية التعليمية العمومية ، وهى فى قوله تعالى (علمه البيان) ـ فلفظة البيان فيها إشارة صريحة إلى تمييز هذا الإنسان بالعلم عن غيره. وهذا العلم ـ يحتاج إلى آلة وأداة يؤدى بها ويفصح بها عنه ـ ولذلك قال بعض المفسرين:

إن (البيان يعنى المنطق ـ فعلمّه ـ سبحانه وتعالى ـ ما ينطق به ويُفهم غيره ما عنده فإن به يمتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات... والبيان هو القرآن الكريم، وأعاده ليفصل ما ذكره إجمالاً بقوله تعالى (علم القرآن).. وعلى هذا فالبيان مصدر أريد به ما فيه المصدر.. وإطلاق البيان على القرآن ـ بمعنى القرآن فى القرآن كثير ـ قال تعالى (هذا بيان للناس).. وقد سمى الله تعالى القرآن، فرقانا وذكرا[2] وعلى هذا فالتعليم للمنهج ـ القرآن ـ كان هو المقصود بالعرض التعليمى فى الآية الكريمة ـ

(١) تفسير الرازى: ١١٩ ـ ٢٥/١٢٠.

(١) تفسير الرازى: ٨٥ ـ ٢٩/٨٦.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ ومن خلال العرض السابق كله ـ قد نقف على إشارة أخرى نخرج بها من هذا العرض.

وقفة مع إشارة:

إن أى إنسان من هذا الجنس البشرى إذا أراد أن يحفظ بعضا من أسطر النثر فإنه قد يلاقى شيئاً من الصعوبة ولكنه إذا همّ أن يحفظ سورة كاملة من القرآن الكريم ـ فإنه لايلاقى تلك الصعوبة التى لاقاها سابقا مع حفظ غير السورة القرآنية ـ وهذه الميزة الإعجازية لهذا المنهج الربانى ـ القرآن الكريم العظيم ـ لاتوجد لأى كتاب غيره، وهذه الميزة الإعجازية ـ أيضا ـ لاتنطبق على أهل اللسان العربى وحدهم على اعتبار أنه نزل بلسانهم. لا، إذ نجد اليوم ـ كشاهد حال ـ أن الصينى الذى لايعرف حروف العربية ـ أو حتى ما هى العربية ـ وكذلك اليابانى والأفريقى والأندونيسى وغيرهم من الذين لاينطقون العربية البتة ـ إذا شرع يقرأ القرآن الكريم ـ لاتستطيع أن تعرف أن هذا المقرىء هو غير عربى ـ بل وهذه حقيقة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ قد تجده يقرأ ويحسن نطق مخارج الحروف العربية خير من كثير من أهل العربية أنفسهم، ولكنه بمجرد سكوته من القراءة وعودته للهجته ولغته، فإنه لايستطيع أن ينطق حتى حرفا أو حركة من حروف اللغة العربية الصحيحة ـ كالضاد والحاء والخاء.. فعلى ماذا يدل ذلك. وعلى أى شىء يشهد؟ ألا يدل على عظمة إعجاز هذا القرآن الكريم.. ونورانيته.. وقوة تحديه لكل شىء؟ ألا يشهد ويؤكد ويوضح حقيقة التعليم المنهجى لهذا الإنسان ـ وهو لايزال نورانياً ـ وإن كان طيناً متجسدا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ألا يشهد بأن تلك التسوية التعليمية قد جرت ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ حتى فى آلات وأدوات النطق التعبيرى والإفصاح البيانى كما أشار إلى ذلك قوله تعالى (علمه البيان)؟ ـ بلى والله ـ وإلا فما الذى يجعل بعض الحبال الصوتية الخاصة بنطق بعض الحروف فى لغة دون لغة

والعكس تحيا - لتنطق بحروف قد ماتت عند صاحبها حينما يقرأ القرآن الكريم ألا يدل هذا على أن القرآن الكريم هو (فطرة الله التى فطر الناس عليها).. وأن هذه الفطرة التعليمية والمنهجية القرآنية قد تمت بفضل الله تعالى وحمده - فى جميع الجنس الإنسانى بأكمله بدون استثناء وأن الإسلام ومنهجه هو منهج الحياة الذى يجب التمسك به (إن الدين عند الله الإسلام).. بل إن هذه التسوية والمنهجة أصيلة فى كل جزئى وما جر منه ليصدق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾. أفلا تبصرهذه الحقيقة، بل الحقائق الكثيرة التى نحن فى غفلة عنها.. هذه الحقيقة وغيرها يؤكدها القرآن الكريم نفسه - حينما يقول الحق جل سناه ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾(١).. ترى ما الذى تشير إليه هذه الآية القرآنية وما الذى تؤكده؟ جاء فى تفسير الإمام القرطبى - حول هذه الآية - ما يمكن لنا أن نلخصه بتصرف.. بعون الله قال.. (ولقد يسرنا القرآن للذكر).. أى سهلنا الحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه.. فهل من طالب لحفظه فيعان عليه.. وقيل يجوز المعنى - ولقد هيأناه للذكر مأخوذ من يسّر ناقته للسفر إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه فقال:

وقمت إليه باللجام فيسر هنالك يجزينى الذى كنت أصنع

وقال سعيد بن جبير ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن الكريم قال غيره ولم يكن هذا الشئ لبنى إسرائيل - ولم يكونوا يقرأون التوراة إلا نظراً - غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعرير صلوات الله عليهم.

فيسّر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذكروا ما فيه - أى يفتعلوا الذكر والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات.. وكالتركيب فيهم.. ﴿فهل من مدكر﴾.. أى قارئ يقرأه.. وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله تعالى ﴿فهل من مدكر﴾.. لأن (هل كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم حجة عليهم.. فاللام من هل للاستعراض - والهاء .. للاستخراج)(٢).

---

(١)سورة القمر: آية «١٧».

(٢) تفسير القرطبى: ١٣٣ - ١٧/١٣٤.

هذه بعض إشارات المفسرين حول الآية السابقة.ورغم إيجازها إلا أنك تراها أنها تعطينا حقائق كثيرة جدا وأبعادا جديدة فيما نحن بصدده - بحمد الله تعالى وتوفيقه - فمن تلك الحقائق مثلاً نجد أن المفسرين يؤكدون بطريق غير مباشر على أن القرآن الكريم قد أشار إلى حقيقة التسوية التعليمية بهذه الآية الكريمة السابقة ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ فهى واضحة فى إشاراتها إن لم تكن صريحة. إن القرآن الكريم يؤكد على أن الإنسان قد جرت فيه تلك التسوية التعليمية - كما سبق فى العرضة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأنها قد جرت فى مرحلة سابقة لهذه المرحلة الدنيوية،وأنه فى هذه المرحلة ما عليه إلا أن يستعيد كل ما جرى فيه سابقا - وبمجرد هذا التذكر والاستذكار فإنه سيستعيد كل ما جرى فيه سابقا، وذلك لأن هذا الشىء الذى نحاول استذكاره واستدعاءه هو موجود فى داخلنا منذ أن خلقنا وهيئنا للنزول إلى هذه البيئة الدنيوية (والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وفى هذه الآية كما أشار المفسرون إشارة أخرى تؤكد أن هذه التسوية التعليمية المنهجية أنها ليست خاصة بهذه الأمة وحدها بل هى تسوية شاملة لجميع الجنس الإنسانى وذلك لأن الله - سبحانه وتعالى - جعل هذه التسوية فى هذا الجنس الإنسانى كالسلاح الذى يحتمى به هذا المخلوق من الأعداء الذين يوجدون حوله ويريدون إضلاله والإيقاع به وإبعاده عن خالقه الذى خلقه لطاعته وعبادته ولاسيما عدوه الأكبر - الشيطان الرجيم .. لذا فهذه التسوية التعليمية لهذا الجنس الإنسانى هى كحماية الصنعة التى يصنعها الصانع لوقايتها من الأضرار والإتلاف.. إذن فهى - التسوية - ليست خاصة بأمة دون أمة وإن كان هناك تفصيل سيتبع بإذن الله تعالى - ليوضح أكثر - لذلك وجدنا هؤلاء المفسرين يؤكدون على أن هذا التعليم المنهجى القرآنى كان قد أدخل وعمل فى كل فرد من هذا الجنس - وذلك حينما تحدثوا عن الآية السابقة ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.. يقولون.. (أى ولقد هيأناه للذكر - مأخوذ من قولهم - يسر ناقته للسفر - إذا رحلها - ويسر فرسه للغزو -

إذا أسرجه وألجمه ..) وهنا نرى أنهم قد بينوا لنا حقيقة كون تلك التسوية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين).. لأن الحق جل سناه ـ أراد أن يرحلنا إلى مهمة هو وحده يعلمها ـ وحكمة يريدها .. وكل راحل .. مسافر .. يحتاج إلى السلاح والزاد فى سفره.. فكيف والسفر طويل جدا وتكتنفه مخاوف شديدة ومخاطر جسيمة. فلابد من السلاح إذن ـ ليدافع به عن نفسه حتى يعود من سفره الطويل لمستقره الأخير ـ الذى أريد له بأن يكون مصيره إليه ـ حسب توقفه واستخدامه لما معه من سلاح فى عمل مهمته ـ لذا نرى أن ذلك السلاح ـ التعليم المنهجى ـ كان ضرورة لكل فرد من أفراد هذا الجنس الإنسانى، لأنه محتاج فى رحلته لحماية نفسه.

وهناك شىء آخر جاء فى النص.. نص الآية القرآنية السابقة.. يؤكد على حقيقة هذه التسوية التعليمية فى جنس الإنسان ـ هذه الحقيقة، هى حقيقة الجزء الخاص بهذه التسوية التعليمية فى الإنسان عموماً.. فقد ورد فى الآية: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ نقول لقد ورد لفظان يجليان تلك الحقيقة، وهما لفظة ﴿للذكر﴾ ولفظة ﴿مدّكر﴾.. والذكر والتذكر معلوم لدينا اليوم ـ مكانهما الخاص بهما هو الذاكرة. إذ هى الرقيقة الخاصة بعملية الحفظ والتعليم والتعلم. كما يقول علماء علم النفس ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فالذكر يعنى الحفظ (.. ومدكر..) أى فطن ومتعلم وعامل بما حفظ ـ وما دام الأمر يرتبط بالذاكرة والتذكر ـ فالعملية عقلية ـ نورانية ـ طاقة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لأن الذاكرة موجودة الآن فينا ونحن فى حالة الخلق الطينى ـ كما تعلم ـ فى الدماغ، ومعلوم أن الدماغ كل عمله وتعامله لايكون إلا فيما هو نورانى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومعلوم ـ أيضاً ـ أن العقل وعملية التعقل مرتبطة به .. إذن فهذه الحقيقة تؤكد ـ بحمد الله تعالى ـ أن هذه التسوية قد تمت عند الخلق الروحانى الطينى فى الملأ الأعلى ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين وأن هذا الشىء النورانى ـ الرقيقة ـ هو فى مكان يخصه قد وضع فيه.

استفسار ذو شقين:

هنا قد يطرأ بعض التساؤل والاستفسار حول ما سبق وما قد يأتى مثل: إذا كانت هذه التسوية التعليمية القرآنية هى موجودة فينا فعلاً، فلم نحاول أن نتحفظه «القرآن الكريم» وذلك لأنه محفوظ فينا فلم نحفظه؟ ولم لا تذكره إلا أن نحفظه؟؟ وهنا استفسارات أخرى قد تنشأ أثناء التحليل فيما بعد ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ والجواب على ذلك ـ بتوفيق الله تعالى وإذنه ـ هو أنا الآن لسنا على نفس الخصائص والصفة التى كنا عليها عند تلك التسوية التعليمية فهناك كنا أرواح ـ نورانية فى أجساد هيولية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أى أنا أقرب إلى جنس ما أدخل فينا ـ والله تعالى أعلم ـ أما الآن فنحن على خصائص وصفة وحالة تختلف، عما كنا عليه عند التسوية التعليمية.. وأظن ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أن التحول الذى حصل لنا بأمر الإهباط، هو الذى جعل مثل هذه الاستفسارات تنشأ.. وذلك أن التعليم هو عملية معنوية أقرب إلى النورانية ـ إن لم تكن كذلك ـ وهى متلائمة مع ما أدخلت فيه ـ أما الآن فالتعليم القرآنى موجود ومندمج ـ أيضا ـ فيما هو من جنسه ، أى فى جزء أقرب إلى نورانيته وإن كان الوعاء الحامل له قد حصل تحول فى طبيعته، فهو مدخل فى ما نسميه الشعور واللاشعور، والوعاء هو الدماغ المادى لا ما يجرى فيه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن هنا جاء لفظا (الذكر والتذكر).. فالذكر ـ الحفظ يستدعى استذكار واستدعاء الأصل الذى هو مدخل ـ موجود ـ فيما هو من جنسه ـ والله تعالى أعلم ـ ولذلك كانت كل البرمجة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ الندائية الاستدعائية الموجودة فى هذا الإنسان الطينى برمجة شعورية انفعالية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وقد أدرك علماؤنا العظام ـ رحمهم الله تعالى ـ هذه الإشارة البرمجية وكل ما أشار إليه الاستفسار السابق، وما طرأ لأجل هذا التحول الخلقى الطينى، فقالوا حول: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾:

(إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أى يسّر حفظه لهذا المنهج القرآنى - ليسهل تذكر ما فيه - أى يفتعلوا الذكر والافتعال .. وهو أن ينجع فيهم ذلك، حتى يصير فيهم كالذات).. إذن فالذى أدى إلى ذلك، إنما هو أسباب كثيرة جدا .. أولها: هو هذا التحول الخلقى التركيبى العنصرى، فكأن الأمر بهذا التذكر والتذكير والذكر، وبمجرد تذكره واستذكاره تستحضره الذاكرة.. وبطريق الافتعال والانفعال الشعورى التذكرى، عندها تتم الاستجابة والتجاوب من اللاشعور فيحضر وكأنه كان موجودا، ويتجاوب معه كل شىء قد تم إدخاله وتهيأت فيه أبدا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكيف لايتجاوب ويجيب عند استدعائه ، وهو مناط الحجة والشهادة لنا أو علينا، وذلك عندما تتضح حقائق الأمور يوم الشهادة والشهود فى يوم: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾[1].

ليعلم من تذكر فاستدعى ومن لم يذكر فلم يستدع، إذ الجميع فيه هذا الذكر والتذكر فمن ذكر نجا وفاز بإذن الله تعالى، ومن لم يتذكر خبا وشقى وغرم - نعوذ بالله تعالى، من ذلك - لذلك قال العلماء[2]. رحمهم الله تعالى - عند قوله تعالى (فهل من مدكر).. قالوا: (.. هل كلمة استفهام، تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها - الله تعالى حجة عليهم .. فاللام من (هل) للاستعراض.. (والهاء)، للاستخراج.

وهنا نقف عند لفظة الاستخراج.. لنرى ما الذى يستخرج،أليس هو استخراج ما سبق تسويته واستيداعه - برمجته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فى تلك الرقيقة الخاصة به فى الذاكرة والشعور واللاشعور.

وهنا قد يطرأ سؤال - أيضاً - وهو: هل كان أهل الكتب السابقة.. عندهم هذه القدرة الاستدعائية التى هى الآن عندنا فى استدعاء ما بداخلنا من قرآنية منهجه،

---

(١) سورة الزمر: آية «٦٩».

(٢) القائل هو سعيد بن جبير رضى الله عنه «القرطبى»: ١٠٧/١٢٤.

إذا استدعيت حضرت فورا، وتظهر فى عملية الحفظ التى نحسرها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولإجابة هذا السؤال سنلاحظ أنها ذات شقين - بمشيئة الله تعالى.

مع إجابة الشق الأول من السؤال:

فإجابة الشق الأول من السؤال، تنطلق من إشارة سابقة وردت للتابعى الجليل سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه وأرضاه - أثناء تعليقه على قوله تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ .. وهى قوله:

(.. وليس من كتب الله تعالى، كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن الكريم..).. هذه هى الإشارة، وترى أنها عند قراءتها قراءة عبادة تؤكد مغزى ما أشار إليه السؤال، وهى أن تعليم القرآن الكريم الأبدى، لم يكن شاملا لبنى الجنس الإنسانى كله، وإنما كان خاصاً بهذه الأمة المحمدية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولكن حقيقة نص الإشارة يقول غير ذلك تماما عند تأمله، وذلك يحتاج إلى بعض التوضيح والتفصيل - بعون الله تعالى وتوفيقه - فكيف ذلك؟ وذلك ينطلق من هذه الحقائق القرآنية العظيمة، هذه الحقائق الصارخة: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[1] ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه..﴾[2].. وهذه الحقيقة: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾[3].

إذن فكل الكتب السابقة، هى قرآن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .. ولكن ما فى كل كتاب منها هو قرآن خاص من القرآن العام، فصحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام هى قرآن، ولكنه جزء خاص بأهل زمانه

(١) سورة آل عمران: آية «١٩».
(٢) نفس السورة: آية «٨٥».
(٣) سورة الشورى: آية «١٣».

ومكانه، ولايرتبط بأى زمان أو مكان قبله ولا بعده، وكذلك الزبور، والتوراة والإنجيل، كل واحد منها هو قرآن خاص بأهله وزمانهم ومكانهم.. فأهل الصحف - مثلا - سوّى ومنهج فيهم نص جزئهم القرآنى الخاص بهم.. وهذا الجزء القرآنى الخاص هو موجود فى القرآن العام، لهذا ترى أتباع الصحف يحفظون هذا الجزء الخاص عن ظهر قلب، والبقية - وأكثرهم - منهم لايحفظون ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وما ذلك إلا لأنه جزء خاص بزمانه ومكانه.. وكذلك بقية الكتب السابقة، فالتوراة - مثلاً - هى مجموعة من الوصايا والمواعظ، إذا رجعت للقرآن الكريم تجدها فيه، وكذلك ما جاء فى الإنجيل وغيره من الكتب، لتصرخ هذه الحقيقة القرآنية قائلة ومؤكدة: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[(١)]... إذن فما أنزل على محمد ﷺ هو مهيمن على كل الكتب وإن كان لكل أمة سبقت شرعها الذى منهجت عليه بقدرة الله تعالى وأمره.. ولذلك يقول ابن جبير رضى الله تعالى عنه وأرضاه، ما معناه .. أن أتباع الأنبياء والسابقين لم يكونوا كلهم يحفظون ما جاء به نبيهم إلا أصحابهم المقربين منهم أما بقية الأتباع فلم يكونوا يحفظون ذلك لينقلوه كما أنزل إلى من بعدهم - لأسباب - أولاً: لأنه خاص بزمانهم ومكانهم كما سبق أن قلنا.. وإما لأن من سينقلونه إليهم قد يكونوا ليسوا أتباعا لهذا النبى، بل قد يكونون أتباعا لمن بعده من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام جميعاً ... وأما لأنهم كانوا يخلطون ما يحفظونه بالكثير من أهوائهم وتحريفاتهم، لذلك نجد من سوّى ومنهج يقول لنبيه ﷺ: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[(٢)].

---

(١) سورة المائدة: آية «٤٨».

(٢) سورة الجاثية: آية «١٨».

بعكس أمة محمد ﷺ فقد كانوا جميعا يحفظون ما أنزل على نبيهم - ﷺ عن ظهر قلب كما أنزل لينقلوه إلى من بعدهم، ومن بعدهم إلى من بعدهم إلى أن تقوم الساعة: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾(1).

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(2).

مع الشق الثانى من إجابة السؤال السابق:

هنا تتضح لنا حقيقة فى غاية الأهمية والدقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى أن كل أمة نبى وأتباعه وأتباعهم، هم يتصفون بما دعا إليه نبيهم، أى بما سووا عليه من قدرات ترتبط بنبيهم، ولايرتبطون بغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. فكيف ذلك؟ تلك هى إجابة الشق الثانى من السؤال السابق وهذه الإجابة تنبثق من إشارة سابقة أشار بها الشيخ الرازى، وبعض علماء الإسلام أثناء حديثهم فى التسوية القرآنية، حيث قال هناك: (ترى ما المراد بالإنسان؟ فقالوا هو الجنس.. وقيل المراد هو محمد ﷺ.. وقيل المرد هو آدم - عليه الصلاة والسلام - والأول أصح نظراً إلى اللفظ فى خلق، ويدخل فيه محمد ﷺ، وآدم عليه الصلاة والسلام - وغيرهما من الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام).

هذا هو موجز ما أشارت به إشارة الشيخ الرازى، وهى أيضا فى جل كتب المفسرين، وفيها تلاحظ أن المفسرين قد اختلفوا فى المقصود بلفظ الإنسان فى الآية السابقة، وأظن أخى القارىء يذكر أننا قد ملنا مع الرأى القائل بأن الإنسان مقصود به الجنس، ولازلنا عند ذلك، والذى على ضوئه قلنا بالتسوية العمومية للمنهج القرآنى، والدليل على تلك العمومية فى المنهجة التعليمية للقرآن الكريم التفصيل السابق و ذلك كان فى الجميع هو هذا القول المروى عن الإمام مجاهد - رواه عنه ابن أبى نجيح حول قوله تعالى: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا﴾(3).. قال:

(1) سورة سبأ: آية «28».

(2) سورة الأنبياء: آية «107».

(3) سورة الإسراء: آية «3».

أى ذرية من حملنا مع نوح.. والمراد بالذرية كل من احتج عليه بالقرآن الكريم، وهم جميع من على الأرض.. ذكره المهدوى[1].

إذن فالجميع كانت فيه تلك التسوية العمومية للقرآن الكريم بدليل أن أخذ العهد والميثاق كان هناك للجميع، فكيف لايكون وضع وتعليم الوسائل المذكرة بذلك العهد والدالة عليه وإليه قد وضعت وعملت هناك، وإن كانت كما قلنا سابقاً، إنها كانت جزئية خصوصية فيمن كان قبل رسالة نبينا محمد ﷺ، وعمومية شمولية فيمن مع محمد ﷺ ومن سيأتى بعده إلى أن تقوم الساعة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. وأظن ـ والله تعالى أعلم ـ أنه من هنا حصل ذلك الخلاف الطويل العريض فيمن سموهم بأهل الفترة، وهم أولئك الذين عاشوا فى الزمن الذى كان بين نبينا محمد ﷺ ونبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فمن العلماء من سكت عنهم ومنهم من رأى أنهم مأخوذون فى كلا الأمرين، أمر أن الفطرة فيهم بهذا الميثاق السابق والتذكير الذى جعل لهم من بعض أتباع نبى الله عيسى عليه السلام، وكان مؤمنا داعيا لتوحيد الله تعالى كقس بن ساعدة الإيادى ـ رحمه الله تعالى ـ وأمر كونهم أتباعا لنبى، وهذا الخلاف جعلنا نعود إلى الخلف قليلا عند الرأيين السابقين فى لفظة (الإنسان) فى آية الرحمن السابقة وقولهم أن المقصود به (محمد ﷺ) أو آدم عليه الصلاة والسلام أو غيرهما من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم جميعا.. فكيف ذلك؟؟

(٢) القرطبى: ١٠/٢١٣

الفصل التاسع
التسوية والمنهجة التعليمية الخاصة

مع آية الأنعام وبعض ما قيل عنها وتحليله:

وجواب هذا السؤال وأمثاله سيجرنا للحديث عن قضية التسوية أو المنهجة التعليمية الخاصة، وهو ما ورد حول بعض دلالات آية الأنعام وما فى معناه.. فما هى آية سورة الأنعام، وماذا قيل وورد عنها؟!

قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجرى المحسنين،وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾[1].

هذه آيات سورة الأنعام وما قيل عنها كثير جدا، نحاول أن نوجز منه ما قد يشير إلى بعض المقصود ولايخل بالمراد.. .. واعلم أنه تعالى ذكر أولا أربعة من الأنبياء، وهم نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء هم: داود وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوطا،والمجموع ثمانية عشر.

فإن قيل: رعاية الترتيب واجبة.. والترتيب، إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة.. وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة، والترتيب بحسب هذين النوعين غير

---

(١) سورة الأنعام: الآيات «٨٤ ـ ٩٠».

معتبر فى هذه الآية فما السبب فيه؟

قلنا: إن حرف الواو لايوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية، فإن حرف الواو حاصل هنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان.

وأقول: عندى فيه وجه من وجوه الترتيب، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق الملك والسلطان والقدرة.

والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً.

المرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله تعالى أيوب عليه الصلاة والسلام بهذه المرتبة والخاصية.

والمرتبة الثالثة: من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير فى أول الأمر ثم وصل إلى الملك فى آخر الأمر.

المرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام وذلك كان فى حق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام.

المرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما فى حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم الصلاة والسلام - ولهذا السبب وصفهم الله تعالى بأنهم من الصالحين[1].

المرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط، فإذا اعتبرنا أن هذا الوجه الذى راعيناه، ظهر أن

(١) تفسير الرازى: ٦٤ - ١٣/٦٥.

الترتيب حاصل فى ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بحسب هذا الوجه الذى شرحناه[1].

هذا موجز ما أشار به بعض المفسرين حول الآيات السابقة وتلاحظ فى هذه الإشارة الموجزة ما يشير إلى ما سبق من أمر التسوية والمنهجة التعليمية العمومية، وهى أن تسوية أتباع كل نبى تكون على قدر ما سوف يدعوهم إليه نبيهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. وبنظرة فاحصة إلى الأنبياء الذين ورد ذكرهم ومسيرتهم فى دعوتهم التى كانوا يدعون إليها فى أمتهم وحياة أتباعهم، سيتجلى صدق تلك الإشارة القرآنية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين... أما كيفية أن المقصود بالإنسان هو آدم عليه الصلاة والسلام وهو القول الثانى، فالإجابة واضحة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو أن الجميع بعد أن سووا التسوية العامة والتسوية الخاصة، وضعوا أو أدخلوا فى جرم آدم - عليه الصلاة والسلام - لكونهم جميعا سوف يستخرجون منه بعد ذلك بنفس خصائص جرمه الذى أدخلوا فيه. والله تعالى أعلم.

أما القول الثالث: وهو أن الإنسان محمد ﷺ: أى كونه ﷺ وحده رمزاً للجنس الإنسانى، فهذا هو ما جعلنا نقول بالتسوية التعليمية القرآنية، وأنها كانت لجميع الجنس الإنسانى وما سبق الإشارة إليه.. وهذا هو ما قاله بعض المفسرين حول قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب، وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾[2].

يقول بعض المفسرين: نوجز منه - أن الله تعالى جعل فى ذرية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - النبوة ، إجابة لدعائه - عليه الصلاة والسلام - والوالد يستحب منه أن يسوى بين ولديه، فكيف صارت النبوة فى أولاد إسحاق - عليه الصلاة

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة العنكبوت: آية «٢٧».

والسلام ـ أكثر من النبوة فى أولاد إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام. نقول : إن الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى يوم القيامة، قسمين، وكذلك الناس أجمعين.

فالقسم الأول: من الزمان،بعث الله تعالى فيه أنبياء فيهم فضائل جمة، جاءوا تترى واحدا بعد واحد ـ ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام.

القسم الثانى: من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر، وهو إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ واحدا جمع فيه ما كان فيهم جميعاً ـ وأرسله إلى كافة الخلق إلى أن تقوم الساعة. وهو محمد ﷺ، وجعله خاتم النبيين ـ عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام ـ وقد دام الخلق على دين أولاد إسحق عليه الصلاة والسلام ـ أكثر من أربعة آلاف سنة، فلايبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثل ذلك المقدار[1].

ومن هذه الإشارة للإمام الرازى ـ رحمه الله تعالى ـ نرى أنها تعطينا إشارة إلى أن رمزية محمد ﷺ للجنس الإنسانى، يعنى أن ذلك باعتبارما سوى فيه من فضائل منهجية ستكون فى أمته ﷺ وأتباعه إلى قيام الساعة، كما وضعت فى نبى الله إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ من فضائل شتى ظهرت بعض منها فى نبى معين فى (زمن ومكان خاصين) به وأتباعه وما فيهما من فضائل خاصة بهم، كما يشير ما سبق.. والكل آت من رمز واحد جمع الجميع فيه ليكون أباً آخر ورمزاً آخر للجنس الإنسانى المرتبط به، كما كان لكل زمن من لدن آدم ـ عليه الصلاة والسلام إلى الأب الثانى الذى بقى بعد الطوفان، وهو فى الأصل آت من الأب الأول ـ آدم ـ وأخذ منه بقية الجنس الإنسانى وهو نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونوح أخذ منه أيضاً ـ ما هو خاص بزمنه إلى أن جاء الأب الثالث بعده، وهو إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهكذا .. إذن فأبوة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأبوة نوح وأبوةإبراهيم ـ عليهما

(١) تفسير الرازى: ٥٦ ـ ٢٥/٥٧

الصلاة والسلام - هى لبيان الجنس الذى يحمل مؤهلاته وما سوّى عليه من صفات خصوصيات وماهيات زمنية ومكانية، وما يتفرع من كل أب مرتبطة بأزمنة وأمكنة خاصة بها.

الأبوة والتبعية الجنسية وما يرتبط بها من قضايا الاصطفاء والاختيار:

وهذه الإشارة - إشارة الأبوة الجنسية - تحمل أشياء كثيرة ومهمة جدا، تستدعى الحديث عنها لارتباطها بما قبلها آنفا.. منها مثلاً - الحديث عن قضية تسوية الأبوة الجنسية العمومية، والمستنسخ بعضها من بعض - آدم - نوح - إبراهيم - آل عمران - عليهم الصلاة والسلام جميعاً - وأظن أن هذه القضية ترتبط بها قضية أخرى مهمة جداً، وهى قضية الاصطفاء وما فيها من قضايا الردود على موضوع الدارونية وما فيها من سموم يتقبلها بعض الغفلة من الناس، وهكذا.

والحديث عن هذه الأبوة الجنسية، والتسوية النوعية تجعلنا نبدأ حديثنا عنها بهذه الإشارة المرتبطة بها، وهى أن جميع المنتسبين إلى اليهودية والمسيحية وذلك بناءً على ما سبقت الإشارة إليه من أن جميع الأمم الموجودة من يوم بعثة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وهو مسوون وممنهجون منهجية قرآنية عمومية، لا تسوية قرآنية جزئية، إذ أن الذين هم مسوون هذه التسوية الجزئية ينتهون بانتهاء زمان ومكان نبيهم الذى هم ينتسبون إليه انتسابا زمانياً ومكانياً، فالنصارى - مثلاً - لهم تسوية منهجية قرآنية جزئية خاصة بزمنهم ومكانهم وما جاء يدعوهم إليه نبيهم ورسولهم عيسى - عليه الصلاة والسلام - وكذلك اليهودية، وكل من كان قبلهم كانوا كذلك مع أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام - بهذه الصفة الخصوصية الزمانية والمكانية، إلى مجىء زمن نبيهم العام الذى جمعت فيه جميع خصائصهم وصفاتهم ومكارمهم وشمائلهم التى أهلوا بها جميعا، أو عموا أزمنتهم جميعاً، لارتباطه بهم جميعاً: (لو أن أخى موسى حياً لتبعنى)(1).

(1) حديث شريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

إذن فالجنسية الزمنية العمومية تربطهم بهم جميعا، بتسوية وهيئة جسمية داخلية عمومية، وإن طرأت هناك تسوية زمنية خصوصية، تستدعيها أمور مكانية وبيئية مرتبطة بخصوصية منهجه دعوة زمن هذه الدعوة وهذا النبى ومكان دعوته، لذلك فزمن نبى الله إسحاق - عليه الصلاة والسلام - ينتهى بانتهاء دعوة نبى الله عيسى - عليه الصلاة وأتم التسليم - .. لتبدأ تسوية جسمية عمومية، ملائمة لعمومية زمانية ومكانية عامة إلى أن تقوم الساعة، وهى تسوية أمة وأتباع محمد ﷺ إلى يوم القيامة، ومن هنا فادعاء أى شخص من يوم بعثة نبينا محمد ﷺ إلى يومنا هذا وما بعده، بانتسابه إلى اليهودية أو إلى المسيحية، إنما هو ادعاء (باطل باطل باطل) بنص القرآن الكريم: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام﴾، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ .. وعقلاً - أيضاً - بالتسوية الجسمية العامة الملائمة لمنهجية قرآنية عامة، مؤكدة بنصوص قرآنية أيضاً، لذلك فيهوديته اليوم - إسلامه الجزئى - هى موجودة فى منهجه العام القرآنى والملائك لتسويته الجسمية العمومية، إذن فيهود ونصارى هذا الزمن ليست صحيحة، لأنهم من أتباع محمد ﷺ وهم مطالبون بما جاء به محمد ﷺ سنة وكتاباً، ومهما حاولوا أن يتنصلوا من ذلك فهم مخطئون، إذ هم لايخرجون من الدائرة المحمدية، لكون أمة محمد ﷺ، هم إما أمة إجابة، وإما هم أمة دعوة، فمن أجاب من هذه الأمة، فقد اتصف بالصفة المحمدية الكاملة، وإن لم يجب فهو لايزال فى محيط الصفة العامة لهذه الأمة وهى صفة أمة الدعوة .. ومن هنا وما سبق نجد أن التسوية النوعية، والأبوة الجنسية وما يرتبط بها يشير إليها القرآن الكريم ويجليها فى كثير من آياته العظيمة، منها ما سبق ومنها كقوله تعالى: ﴿ونفس وما سوَّاها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ .. الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾[3].

---

(١) سورة الشمس: الآيات «٧ - ١٠».

(٢) سورة الأعلى: الآيات «٢ - ٣».

(٣) سورة طه: آية «٥٠».

هذه بعض آيات مما سبق الإشارة إليه.. فماذا ورد عنها مما نحن بصدده؟ يقول الإمام الرازى حول الآية الأولى ما نوجز منه: إن حملنا النفس على الجسد، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح.. وإن حملناها على القوة المدبرة، فتسويتها، إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة، والمفكرة، والمذكورة على ما يشهد به علم النفس... فإن قيل لم نكرت النفس؟

قلنا فيه وجهان:

(أ) **الوجه الأول:** أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس، وهى النفس القدسية النبوية.. وذلك لأن كل كثرة فلابد فيها واحد يكون هو الرئيس.. فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان.. والحيوان جنس تحته أنواع: ورئيسها الإنسان.. والإنسان: أنواع وأصناف: ورئيسه النبى: والأنبياء كانوا كثيرين، فلابد أن يكون هناك واحد يكون الرئيس المطلق.. فقوله تعالى: ﴿ونفس﴾ إشارة إلى تلك النفس التى هى رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات..

(ب) **الوجه الثانى:** أن يريد كل نفس.. ويكون المراد من التذكير، التكثير على الوجه المذكور فى قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾، وذلك لأن الحيوان أنواع لايحصى عددها إلا الله على ما قال بعد ذكر الحيوانات: ﴿ويخلق ما لاتعلمون﴾.. ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالمفضل المقوم لماهيته، والخواص اللازمة لذلك الفضل، فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض - مثلاً - فضلا عن التوغل فى بحار أسرار الله سبحانه وتعالى...)[1].

هذا تلخيص ما جاء عن الشيخ الرازى حول آية الشمس، وإن كان له بقية قد نعود إليها إذا رأينا أن الأمر يحتاج إلى إيراده - بإذن الله تعالى - وترى فى هذا الملخص أن جل حديث الرازى حول كلمتين فقط، وهما - سوى - نفس - ومثل ما قال الشيخ الرازى، قال مثله - تقريبا - جل المفسرين، فهذا مثلا الشيخ القرطبى، وجماع - رواية -

---

(١) تفسير الرازى: ٣١/١٩١.

ودراية.. قال: (.وقيل: المعنى تسويتها.. وقيل المعنى، ومن سواها، هو الله تعالى ـ سبحانه ـ .. وفى النفس قولان: أحدهما: هو آدم ـ والثانى: كل نفس منفوسة.. وسوى بمعنى: هيأ.. قال مجاهد: (سواها): سوى خلقها.. وعدلها..[1].

هذا بعض ما قيل، ونلاحظ أن مجمل ما قيل لايخرج عما قلناه، بل قد يؤكده ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ ويوضحه ويفصله تفصيلا أوضح مما سبق.. فهذا الرازى تراه يؤكد على أن التسوية الجسدية تتم على حقائق سابقة ولاحقة، فهناك، أولا: التسوية النفسية (الروحية) وهى الخاصة بالإنسان الفرد، وهذه التسوية تكون بتسوية القوى المدبرة للنفس، كالسمع والبصر والمخيلة والمفكرة، والتى على ضوء تسويتها تتم التسوية الجسدية الخاصة بكل قوة من هذه القوى: (تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح..) .. وهذه التسوية الجسدية والروحية الفردية تتم بناء على تسوية النفس المختارة والمصطفاة من بين مجموعة النفوس التى ستكون ـ بإذن الله تعالى وأمره ـ لزمن ومكان محددين، كما رأينا ذلك فى الزمن الذى بين نبى الله إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى بداية زمن نبينا محمد ﷺ إلى قيام الساعة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ولذلك رأيناه يقول : (.. أن يراد بالتنكير نفساً خاصة من بين النفوس وهى النفس النبوية.. وذلك لأن كل كثرة.. فلابد فيها واحد يكون هو الرئيس... والإنسان أنواع وأصناف: ورئيسها النبى... والأنبياء كانوا كثيرين، فلابد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق لعالم المركبات رياسة بالذات...).

إذن فهناك نفس ترأس عالم المركبات جميعه رياسة عامة مطلقة، ولايبعد ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أن يكون ذلك هو آدم عليه الصلاة والسلام ـ بدليل أن الشيخ ابن عربى ـ رحمه الله تعالى ـ قال حول قوله تعالى:﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة...﴾[2]... قال: « .. وهى النفس الناطقة الكلية، التى هى قلب العالم، وهو آدم الحقيقى...»[3].

---

(١) القرطبى: ٧٥/٢٠.

(٢) سورة النساء: آية «١».

(٣) تفسير ابن عربى: ٤٧ ـ ١/٤٨.

إذن فآدم - عليه الصلاة والسلام - هو النفس الكلية، والرئيسة الحقيقية لجميع هذا العالم المركب.. ومن كلام الرازى السابق، وكلام ابن عربى، : يتضح لنا أن من تلك النفس العامة تخرج أنفس فيها عمومية خصوصية، أى أن خصوصية عموميتها تأتيها من الناحية الزمنية، إذن فلكل زمان عام نفس عامة تكون رئيسة لهذا الزمن العام، وتكون تسوية ذرات جيل هذا الزمن تبع لتسوية تلك النفس الرئيسة لهذا الزمن، سواء كان ذلك تسوية عضوية - جسدية - أو تسوية روحية - أى تسوية القوى المحركة لتلك التسوية الجسدية - كما سبق الإشارة إليه فى كلام الرازى - قوله:.. (... ولكل نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفضل المقوم لماهيتها والخواص اللازمة لذلك الفضل، فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص البق والبعوض، فضلا عن التوغل فى أسرار الله سبحانه وتعالى..). ومن هنا ندرك بعض إشارات ذلك الخبر المروى عن الرسول ﷺ - بما معناه - (يجعل الله تعالى - بعد كل قرن مجددا يجدد لجيل هذا القرن) أى يجدد لها ما بعدت عنه من خواصها وخواص زمنها ومكانها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - .. وهنا - أيضاً - ندرك بعضا مما أشار إليه تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى. الذى خلق فسوى: والذى قدر فهدى﴾. وقوله تعالى: ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى..﴾.. يقول المفسرون حول إشارات هذه الآيات من سورة الأعلى - وسورة طه، ما منه نوجز الآتى:

١ - (اعلم أن موسى عليه الصلاة والسلام، استدل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله: ﴿ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾، وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾. وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى فهو يهدين﴾[1].. وذلك لنعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية، هى الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، جميعا.

٢ - كما سبق فى الآيات الآنفة الذكر - وذلك لأن الاستدلال بهذه الطريقة فيه

(١) الرازى: ٣١/١٣٩/١٣٨.

الكثير من العجائب والغرائب، ومشاهدة الإنسان لها، واطلاعه عليها أتم، فلا جرم كانت أقوى فى الدلائل.

٣ ـ واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق: عبارة عن تركيب القوالب والأبدان... والهداية: عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة فى تلك الأجسام.. وعلى التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى﴾.. فالتسوية راجعة إلى القالب ونفخ الروح إشارة (إلى إبداع القوى[١].. ولذلك فقوله ﴿خلق فسوى﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة. ويحتمل أن يريد به الحيوان، ويحتمل أن يريد كل شىء خلقه.. فمن حمله على الإنسان، ذكر للتسوية وجوهاً أحدها: أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة، قال تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾. وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه فقال تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

وثانيها: أن كل حيوان مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط وغير مستعد لسائر الأعمال.. أما الإنسان، فإنه خلق بحيث أنه يمكنه أن يأتى بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة، فالتسوية إشارة إلى هذا.

ثالثها: أنه هيأ للتكليف والقيام بأداء العبادات... إلخ. أما قوله: (فهدى) فالمراد أن كل مزاج فإنه مستعد لقوة خاصة، وكل قوة، فإنها لاتصلح إلا لفصل معين، فالتسوية والتقدير: عبارة عن التصرف فى الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله، تستعد لقبول تلك القوى.. وقوله : (فهدى) عبارة ـ أيضاً ـ عن خلق تلك القوى فى تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرا لفعل معين، ويحصل من مجموعتها تمام المصلحة.

وكل هذه الحقائق المشار إليها آنفاً وما سبقها من إشارات تصل وتقرب من إشارة قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم.﴾[٢]. نصل إلى حقيقة أن تلك

(١) الرازى: ٦٤ ـ ٢٢/٦٥.

(٢) سورة آل عمران: آية «٣٣ ـ ٣٤».

النفس الرئيسة ـ المطلقة عند بعض المفسرين ـ والكلية عند ابن عربى ـ رحمهم الله تعالى ـ هى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدليل هذه الآية وغيرها كثير... ورئاسة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما يتضح مما سبق، أنها رئاسة كانت تحمل صفتين: الأولى: العمومية المطلقة ـ الجميع فيها عنها خرجوا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

والثانية: أنها تحمل صفة الخصوصية الزمنية محددة بعد الإهباط، إلى جانب عموميتها.. وهاتان الصفتان، هى ـ أيضا منقولة إلى نفس أخرى موجودة فى آدم ـ عليه الصلاة والسلام نفسه ـ سوف تخرج منه ليخرج منها أمة مخصوصة لزمنية مخصوصة محدودة، إلى جانب الصفة العمومية، والتى ستعطيها أيضا لنفس أخرى بها ما فى سابقتها، وهكذا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .. إذن فآدم عليه الصلاة والسلام ـ هو أب لجميع البشر، ولكن، الأزمنة والأمكنة مختلفة ولكل زمان ومكان وبيئة أمة ذات صفات وخصائص مخصوصة، تلائم منهجها الذى سويت ومنهجت عليه عند خلقها وتعليمها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ والذى سوف تدعى إليه ـ منهجياً ـ بأمر الله تعالى على يد نبيها ورئيسها ـ والله تعالى أعلم ... فآدم سلم نفس المهمة التى كانت معه إلى نفس أخرى رئيسة خرجت منه تحمل ما كان فى آدم عليه الصلاة والسلام من عمومية وخصوصية أخرى لمن بعده، وهذه النفس الرئيسة الثانية، هو نبى الله نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والذى هو بدوره هو أيضا، قام بتسليم المهمة إلى النفس الرئيسة بعده وهو نبى الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو أيضا سلم ذلك إلى من بعده وهكذا، كما أشارت الآية الكريمة، لنجد فى الآية التالية لها ما يؤكد ذلك، وحقائق أخرى ستأتى بمشيئة الله تعالى ـ وهى قوله تعالى: ﴿ذرية بعضها من بعض﴾[1].. ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾[2].. وقوله تعالى: ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[3].. وما سبق بفضل الله تعالى ورحمته وحمده.

---

(١) سورة آل عمران آية «٣٤».

(٢) سورة الإسراء: آية «٣».

(٣) سورة الصافات: آية «٧٧».

ولذلك نجد بعضا من أهل التفسير والفكر الإسلامى يشيرون إلى بعض من أمر هذه التسوية وخصوصيتها ورياستها.. فمع شىء من إشارات أهل النقل:

التسوية والاصطفاء بين النقل والعقل:

أولا: مع شىء من النقل:

يقول الإمام القرطبى - رحمه الله تعالى - حول آية الاصطفاء: (.. يقال: اختار الله سبحانه وتعالى: آدم عليه الصلاة والسلام - بأشياء، أولها أنه خلقه بيديه فى أحسن صورة..

الثانى: أنه علمه الأسماء كلها.

الثالث: أمر الملائكة بأن يسجدوا له.

الرابع: أسكنه الجنة.

الخامس: جعله أبا البشر.

واختار نوح - عليه السلام - بأشياء: أولها: جعله أبا البشر لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته (هم الباقون).. الثانى: أطال عمره وحسن عمله... الثالث: استجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين.. والرابع: أنه حمله فى السفينة.

واختار إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأشياء:

أولها: أنه جعله أبا الأنبياء - يعنى البشر جميعا من ذريتهم سيخرجون لأنه روى أنه أخرج من صلبه ألف نبى فى زمانه إلى زمن محمد ﷺ.

والثانى: أنه اتخذه خليلا.

الثالث: أنه نجاه من النار.

الرابع: أنه جعله إماما للناس.

الخامس: أنه ابتلاه بالكلمات فوفقه حتى أتمهن.. ثم قال: ﴿ وآل عمران).. فإذا كان عمران أبا موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - فإنما اختارهما على

العالمين حيث بعث على قومه المن والسلوى، وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء فى العالم.. وإن كان أبا مريم ، فإنه اصطفى له مريم بولادة عيسى عليه الصلاة والسلام، بغير أب، ولم يكن ذلك لأحد فى العالم[1]. وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: (.. نوح.. هو آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته، على قول قتادة وغيره حسب ما تقدم فى التنزيل: (وجعلنا ذريته هم الباقين)[2].

هذا بعض ما قاله أهل النقل.. ولنرى الآن - أيضاً بعضاً - مما قاله بعض علماء الفكر الإسلامى السابقين، حول الآية السابقة نفسها - الاصطفاء - وربما قد يكون فيه - المنقول عنهم - بعض التوضيح والتفسير لما قاله أهل النقل السابق.. وإن احتجنا لتوضيح بعض النقاط منه حاولنا بمقدار ما يوفقنا إليه رب العزة والجلال - سبحانه - فماذا قالوا؟

مع بعض علماء الفكر الإسلامى حول آية الاصطفاء:

قال الإمام الرازى فى تفسيره الكبير - نوجز منه ما نوفق له بإذن الله تعالى، قال: - ذكر الحليمى فى كتاب المنهاج: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لابد أن يكونوا مخالفين لغيرهم فى القوى:

أ . الجسمانية.

ب . القوى الروحانية.

(أ) أما القوى الجسمانية، فهى إما مدركة.. وإما محركة:١ - القوى المدركة: فهى إما الحواس الظاهرة، وإما الحواس الباطنة.

الظاهرة: هى خمس :

١ - (القوة الباصرة) ولقد كان رسول الله ﷺ، مخصوصا بكمال هذه ويدل عليه وجهان: الأول: قوله ﷺ: (زويت بى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها ...).

---

(١) القرطبى: ٦٣ - ٤/٦٤.

(٢) القرطبى: ٩/٤٨.

والثانى: قوله ﷺ: (أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهرى).. ونظير هذه القوة، ما حصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو قوله تعالى: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات...) وذكروا فى تفسيره أنه تعالى: قوى بصره حتى شاهد جميع الملكوت الأعلى والأسفل.. قال الحليمى: وهذا غير مستبعد، لأن البصراء يتفاوتون، فروى عن زرقاء اليمامة، أنها كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام فلايبعد أن يكون بصر النبى ﷺ أقوى من بصرها.

ويدل عليه وجهان: أحدهما: قوله ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى» فسمع أطيط.

والثانى: أنه سميع دويا وذكر أنه هوت صخرة قذفت فى جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن... ونظير هذه القوة لسليمان عليه الصلاة والسلام فى قصة النمل: ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم..﴾، فالله تعالى أسمع سليمان عليه الصلاة والسلام كلام النمل وأوقفه على معناه، وهذا داخل فى باب تقوية الفهم،وكان ذلك حاصلا لمحمد ﷺ حينما تكلم مع الذئب ومع البعير، ومع الثعبان.. إلخ.

٢ ـ (تقوية قوة الشم): كما فى حق يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾.. فأحس بها من مسيرة أيام.

٣ ـ ﴿تقوية قوة الذوق﴾: كما فى حق رسولنا ﷺ حين قال: إن هذا الذراع يخبرنى أنه مسموم)..

٤ ـ (تقوية القوة اللامسة): كما فى حق الخليل عليه الصلاة والسلام حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً.

أما الحواس الباطنة: فمنها قوة الحفظ، قال الله تعالى: (سنقرئك فلاتنسى).. ومنها قوة الذكاء، قال على رضى الله تعالى عنه وأرضاه: (علمنى رسول الله ﷺ ألف باب من العلم، وأستنبط من كل باب ألف باب).

فإذا كان هذا حال الولى فكيف حال النبى ﷺ ؟

ب. القـوى المحركـة:

(أما القوة الروحانيـة العقلية، فلابد أن تكون فى غـاية الكمال والصفاء.. واعلم أن تمام الكلام فى هذا البـاب أن النفس القدسـيـة النبوية، مخـالفة بمـاهيتهـا لسـائر النفوس ومن لوازم تلك النفس الكمال فى الذكاء، والفطنة.. والحرية.. والاستعلاء.. والترفع عن الجسمانيات والشهوات.. فإذا كانت الروح فى غاية الصفاء، والشرف، وكان البـدن فى غـاية النـقـاء والطهـارة كـانت هذه القوى المحـركة والمدركة فـى غـاية الكمـال، لأنهـا جـارية مـجـرى أنوار فـائضـة من جـوهـر الـروح، واصلة إلى البـدن،ومـتـى كان الفاعل والقابل فى غاية الكمال كانت الآثار فى غـاية القوة والشرف والصـفاء... وإذا عـرفت هـذا فـقـوله تعـالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحـا..﴾ مـعنـاه: أن الله تعـالى اصطفى آدم، إمـا من سكان العـالم السفلى على قـول من يقـول: إن الملك أفـضل من البشـر.. أو من سكان العالم العلوى على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات..

ثم وضع كـمـال القـوة الروحـيـة فى شـعـبـة مـعـينة من أولاد آدم عليـه الصـلاة والسـلام.. وهم: شيث وأولاده إلى إدريس . ثم إلى نوح ـ عليه الصلاة والسلام.

(جـ) ثم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. ثم حصل من إبراهيم عليـه الصلاة والسلام شعبتان هما:

(أ) إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

(ب) إسحاق عليه الصلاة والسلام.

فـجـعل من إسـمـاعيل ـ عليـه الصـلاة والسـلام ـ مـبـدأ لظهـور الروح القـدسـيـة لمحـمـد ﷺ .. وجعل إسحق عليه الصلاة والسلام مبدأ لشعبتين:

(أ) يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(ب) عيصو عليه الصلاة والسلام.

(أ) فجعل النبوة فى نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(ب) ووضع الملك فـى نسل عـيصـو عليـه الصـلاة والسـلام. واسـتـمـر إلى زمـان

محمد ﷺ.. فلما ظهرمحمد ﷺ، نقل نور النبوة ونور الملك إلى محمد ﷺ.. وبقيا - أعنى - الدين والملك - لأتباعه إلى يوم القيامة[1].

مع قضايا التسوية وأشباه البشر:

هذا بعض مما ورد حول آية الاصطفاء السابق، وفى كل ما ورد منقوله ومعقوله ترى أن الإنسان قد خلق مسوى على شكل وهيئة وسمة وصفة معينة منذ مبدئه، وأنه لم يكن فى يوم من الأيام ناقصاً أو زائداً، وأنه لم يؤخذ منه فى الأرض شىء أو يزاد، وأنه لم يكن - أيضاً - حيوانا، قردا أو شمبانزى وترقى وتطور ليصير إنساناً، بل هو إنسان من بداية خلقته، وإن جمعت فيه الإنسانية والحيوانية - كما سبق - فى التسوية العمومية المادية - ولكنه مع ذلك، هو سيد جميع الحيوانات، بل وخلقت لأجله، وله سخرت، كما دل على ذلك القرآن والسنة والعقل - كما سبق فى بحثنا هذا من بدايته إلى نهايته بمشيئة الله تعالى.

.. وأظن أنّا قد فصلنا هذه الناحية تفصيلا كثيرا، فليرجع له - وما قد يظنه البعض أو قد يشتبه عليه ممن لا صلة لهم بكتاب ولا سنة، ويقول ما يقول كدارون وغيره.. أقول ما قد يظنه من تطور أو رقى، إنما هو حاصل من قبل التسوية الخاصة بزمانها ومكانها كما سبق تفصيله، ألم يمر علينا أن لكل زمن تسوية جسدية وتهيئة روحية، تسوية تتبع تسوية نفس رئيسها أو نبيها،، وهذه التسوية الجسدية، أظنها هى التى التبس أمرها على أولئك البعيدين عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما جاء عن تلاميذه ﷺ ومن هنا جاءتنا حكايات قرد الصين وقرد جاوه وغيره.

ولقد رأينا أن الإنسان أنزل بشراً سوياً كاملاً، والحيوان أنزل كاملاً سوياً.. ألم يقل الخالق للإنسان - عز من قائل: ﴿اهبطوا منها جميعا﴾[2]. (اهبطوا) هكذا

---

(١) تفسير الرازى: ٢٠ - ٨/٢٢.

(٢) سورة البقرة: آية «٣٨».

بخطاب لمخاطب يعى ويفهم ما يخاطب به... إذن فهو مخلوق - وهو هناك - كامل لايحتاج إلى ارتقاء أو تطور من حيوان تحكمه غرائزه فقط إلى إنسان ميز وفضل بعقل وقوى روحية خاصة - كما مر بنا بحمد الله وتوفيقه - تفرقه عن درجة الحيوانية، والتى هى أيضاً - أنزلت كاملة الخلقة، ولاترقى إلى غير درجتها .. أفلم يقل الحق - جل سناه - عنها: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾(١).. وقال جل سناه عن هذه الثمانية الأزواج فى سورة أخرى: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾(٢).

إذن فالإنسان أهبط من السماء كاملاً فى تسويته وخلقه وكذلك الحيوان، ونرى أن القرآن الكريم حينما أراد أن يعبر عن نزول الإنسان إلى الأرض لم يستعمل لفظ أنزل بل استعمل لفظ (هبط) بعكس تعبيره عن الحيوان، فقد استعمل معه لفظ (نزل) واللفظان مأخوذان من مادتين مختلفتين صياغة ومادة، وإذا كانا هما مختلفين صياغة ومادة فلابد أن يختلف المقصود الدلالى لإشارتيهما، وإن أدى احياؤهما ظلال الإنزال، وسوف تأتى الإشارة عن موضوع الإهباط وما الذى قد يوحى به - بمشيئة الله تعالى فى مكانه ... إذن فما يقال وما يتردد عن موضوع أشباه البشر، ما هو إلا تخرصات وتهجسات ما أنزل الله بها من سلطان، لأن من خلق يقول:﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾(٣). إذن فالقرد أنزل من السماء قردا ولن يكون فى يوم من الأيام إنسانا، ولن يكون الإنسان قرداً إلا إذا أراد الخالق سبحانه ذلك فإنه سوف يكون وقد حصل - وسوف يأتى الحديث عن ذلك بمشيئة الله تعالى.. وما يستدلون به من حجج لمحاولة إثبات تخرصاتهم فكلها لاتثبت عند التمحيص.

فمثلاً ما يقولونه حول حصول تطورات وارتقاء فى الجمجمة والمخ - والدماغ - وانتصاب القامة بعد أن كانت منحنية وما إلى ذلك فقد رأينا أن فى موضوع التسوية

(١) سورة الزمر: آية «٦».
(٢) سورة الأنعام: آية «١٤٣ - ١٤٤».
(٣) سورة الكهف: آية «٥٠».

وما قيل حولها فيه رد على ما زعموه فى ذلك، فإن كان هناك وجود مفارقات فى الخلق الإنسانى الموجود فى الأرض وجدت فى بعض الحفريات، فذلك يعود إلى موضوع التسوية الخصوصية الجسدية المرتبطة بالتسوية المنهجية الخصوصية المرتبطة بتبعيتها لنفسها الرئيسة (نبيها) التى تتبعها فى زمانها ومكانها، كما سبق الحديث عنها مفصلاً.. أما موضوع أن تلك المفارقات لربما أنه يعود لوجود أوادم كثر كانوا موجودين على الأرض قبل آدم الذى نحن نعود إليه، وقد اختير هو من بينهم، ويعد آدمنا متطورا بالنسبة للأوادم الذين اصطفى واختير من بينهم إلى آخر ما يقولونه وتراهم يستدلون بآية الاصطفاء السابقة.. أما استدلالهم بآية الاصطفاء على ما يريدون إثباته، فقد وهموا فى ذلك، إنهم يجهلون معانى القرآن الكريم ودلالاته وإشاراته، فكيف يفهمون آياته، فقد رأينا بعضاً مما قاله علماء التفسير وأورده عنها، ولم نجد فيه أى إشارة قد تشير أو توحى بما قصده هؤلاء المتخرصون، إذ هم بعيدون كل البعد.. وإن أردنا أن نقف عند قولهم (اختير) فإنا نراهم قد صدقوا لفظاً وكذبوا معنى، فآدم اختير، هذه حقيقة لامراء فيها، ولكن ممن اختير؟ ولم اختير؟ وأين كان الاختيار؟؟ وهل كان لهذه التسمية قبل آدم وجود؟ ولم سمى؟ وهكذا.

فآدم اختير، هذا نعم، ولكنا رأينا أنه اختير من بين أناس كانوا مثله، وكانوا جميعا معاً، وإن ذلك الاختيار كان هناك فى السماوات العلى، عندما كان الجميع فى حالة نورانية - كما رأينا - وقد أختير من بين جميع الجنس الإنسانى الذين هم مثله تماما قبل الآدمية، وكانوا معه، أختير من بينهم ليخلق خلقاً مادياً وليخلق الجميع من خلاله - أيضا - خلقاً ماديا مثله، إذن فالجميع قبل اختيار آدم وخلقه هذا الخلق وإدخالهم فيه لم يكونوا يتسموا باسم الآدمية، لكون الجميع، اتسموا بالآدمية، لخروجهم واستنساخهم من خلاله هو ذو الآدمية لخلقته من ذرتها (الترابية).

إذن فقبل أن يتسمى آدمنا بهذه التسمية لم يكن هناك أى مخلوق قد تسمى بهذه التسمية إلا بعد خروجه من آدم المادى الطينى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد رأينا أن الاختيار كان قد حصل فى العالم

العلوى ـ فى السماوات العلى ـ ولم يكن حصوله فى العالم الأرضى.. إذن فآدم هو واحد ولم يكن هنالك أوادم غيره قبل خلقه ترابيا، ولأنا قد أعلمنا وأخبرنا خالقنا الحق ـ جلت عزته وقدرته ـ أنه لم يكن هناك فى الأرض أوادم قبل آدمنا، حتى (اهبط) من الجنة إلى الأرض آدمنا بدليل آيات القرآن الكريم التى أشارت إلى ذلك كما فى سورة البقرة والأعراف وطه، وكنا جميعاً مدخلين فيه كما سبق وما سيأتى ـ بمشيئة الله تعالى وإذنه ـ ولذلك جاء خطاب أمر الإهباط بصيغة الجمع (قلنا اهبطوا منها جميعا).. وإن كان قد ورد أيضاً، الخطاب بصيغة التثنية والإفراد ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فأول حجة لهم عند عرضها عرضاً سريعاً على دلالات وإشارات ما استشهدوا به من آى القرآن الكريم وأحاديث رسوله الكريم ﷺ لم تثبت.

فماذا قالوا فى حجتهم الثانية ولو إيجازا.

مع الحجة الثانية وأصحاب أشباه البشر

أما حجتهم الثانية فإنهم يقولون تحت عنوان دلالات التشابه بين الإنسان والحيوانات الراقية، ما نوجز منه: (... إن تصنيف الحيوانات والنباتات وتقسيمها إلى مجموعات وفصائل ورتب من المبادىء العلمية الهامة لتسهيل الوصف والدراسة، ورصد العلاقة بين أفراد المجموعات المختلفة، وبذلك تسهل معرفة نشأتها وتتبع تاريخها. ويعتبر العمود الفقارى أساساً جوهرياً فى تصنيف المملكة الحيوانية، فهناك حيوانات فقارية تتمتع بعمود فقارى مثل: الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور، والثدييات، والإنسان، وهناك حيوانات لافقارية.. وقد أدرج الإنسان مع القردة والقردة العليا فى رتبة عضوية واحدة تتميز بصفات متقاربة وسمات متشابهة، وأطلق على هذه الرتبة (الرئيسيات) لوجودها على رأس قائمة رتب الثدييات جميعا، بل رتب المخلوقات كلها لما تميزت به من ارتقاء المخ واكتساب القدرة ـ بنسب متفاوتة ـ على التعلم والمحاكاة)[1].

(١) التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامى لمحمد فوزى جاب الله صـ٩٤.

هذا هو مختصر ما أشاروا به فى حجتهم الثانية، وهى من حجج علماء الأحياء، الذين يجعلون الإنسان حيوانا، ثم تطور وارتقى إلى ما وصل إليه.. هذه الحجة القائلة بحيونة الإنسان ثم تشخيصه ووضعه فى رتبة مع صنف معين من أصناف الحيوانات، سموها بالرئيسيات، ليصلوا بعد ذلك لما أرادوا من جعل الإنسان حيواناً فردياً.

وفى الرد على هذه الحجة بداية أقول لو أن القائلين بها - ولو كانوا من العرب - رجعوا لكتاب الله العزيز وما ورد عنه من تفسيرات وأقوال رسول الله ﷺ وتابعين من أصحاب وتابعين لهم، إضافة إلى ما وصلوا إليه من رقى علمى عالٍ لكانت بحوثهم فى هذا الجانب وغيره - بإذن الله تعالى - لها شأن وأى شأن، ولكن لله حكمته.. وحتى لانطيل.. نرى أن مجمل ما قالوه، خصوصا قضية الرئيسيات وقضية حيونة الإنسان وشطوح مقالاتهم فيها، ترى أن علماء الإسلام من مفسرى القرآن الكريم، وشراح أحاديث الرسول الكريم ﷺ، قد تحدثوا فى هذه القضايا ولكن من خلال منظورهم القرآنى وتصوراتهم المنبثقة من خلال ما جاء به دينهم الإسلامى الحنيف، فهذا الشيخ ابن عربى وقد رأيناه يشير إلى الجانب الحيوانى فى الإنسان عند تسويته الجسدية عند خلق الجرم الآدمى الذى سيوضع فيه جميع الجنس الإنسانى كما رأينا ذلك كما سبق فيما أوردناه لابن عربى عندما أشار لقضية الخلق والخلق الترابى، وكيفية أن ذلك كان من مبدأ التسوية، وأنه على ذلك وجد من البداية، ولم يكن هناك ارتقاء من حيوان إلى إنسان فى الأرض، بل نزل إنساناً كاملاً.. ولايضيق أخى القارىء بإعادة هذا الجزء السابق وروده.. لكن المقام يتطلبه، وليعلم مثل هؤلاء المتخرصين، أن ما يقولونه إنما هو أمر غيبى، يستفتى فيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأهل الذكر الإسلامى،(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون).

يقول الشيخ ابن عربى: (ولما استوت المملكة وتهيأت، وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها أى جنس يكون هذا الخليفة الذى مهد الله تعالى هذه المملكة لوجوده، فلما وصل الوقت المعين فى علمه لإيجاد هذا الخليفة الذى مهد الله تعالى هذه المملكة لوجوده، أمر الله تعالى بعض ملائكته، أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة

الأرض، فأتاه بها بعض من ملائكته) فأخذها سبحانه ـ وخمرها بيديه ـ فهذا قوله تعالى: (لما خلقت بيدى).

وقد كان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكروا .. وديعة لآدم وقال لهم: (إنى خالقٌ بشرا من طين).. وهذه الودائع التى بأيديكم هى له: (فإذا خلقته) فليؤد كل واحد منكم ما عنده مما ائتمنتكم عليه: (ثم سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين). فلما خمر الحق ـ تعالى ـ بيديه طينة آدم حتى تغير ريحها ـ وهو المسنون ـ وذلك هو الجزء الهوائى فى النشأة، وجعل ظهره محلاً للأشقياء والسعداء من ذريته، فأودع فيه ما كان فى قبضته، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ أخبرنا أن فى قبضة يمينه السعداء ، وفى قبضة اليد الأخرى الأشقياء، وكلتا يدى ربى يمين مباركة، وقال هؤلاء للجنة... إلخ.

وأودع الله تعالى ـ الكل طينة آدم، وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة، وأنشأه على الحركة ـ وصوره سبحانه وعدله وسواه، ثم نفخ فيه من روحه المضاف إليه ـ فحدث عند هذا النفخ فيه بسريانه فى أجزائه أركان الأخلاط.. ثم أحدث الحق فيه القوة الجاذبية التى بها يجذب الحيوان الأغذية، ثم القوة الماسكة.

ثم أحدث الحق فيه القوة الغاذية، والمنمية، والحسية، والخيالية، والوهمية، والحافظة، والذاكرة.

وهذا كله فى الإنسان وهو حيوان لا بما هو إنسان فقط، غير أن هذه القوى الأربعة الخيال والوهم والحفظ والذاكرة، هى فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان.

ثم خص الله تعالى آدم ـ الذى هو الإنسان ـ بالقوة المصورة، والمفكرة والعاقلة، فتميز بها الإنسان عن الحيوان وجعل الحق هذه القوى كلها فى هذا الجسم، آلات للنفس الناطقة لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية (ثم أنشأناه خلقاً آخر).. وهو طور الإنسانية، فجعله الحق إدراكا حيا بهذه، عالماً ، قادراً، ومريداً، متكلماً، سميعا، بصيراً على حد اكتسابه: (فتبارك الله أحسن الخالقين)(١).

---

(١) الفتوحات المكية: ٢٤٣ ـ ٢/٢٤٧.

هذا مختصر مما سبق إيراده لابن عربى حول التسوية الجسدية، ومن خلاله تلاحظ أن نشأة الجسد الطينى الآدمى - المادى - لخلق الصورة الدنيوية لآدم - عليه الصلاة والسلام - وتسوية هذا الجسد، هو تسوية مشتركة لكل كائن توجد فيه صفات الحياة، ولذلك تلاحظ أن هذا العالم حينما تكلم عن نشأة هذا الجسد وتسويته استرسل فى حديثه إلى أن قال: (.. وهذا كله فى الإنسان وهو حيوان، لا بما هو إنسان فقط..) وذلك، لأن الإنسان والحيوان يشتركان فى أن كلا منهما له جسد، وفى كل جسد منهما ما فى الآخر من قوى جاذبية وغاذية ، وغيرها من قلب وكبد وأمعاء ومخ وأعصاب وشرايين وقوى حسية وخيالية ووهمية،وحافظة وذاكرة، غير أن القوى الأخيرة - كما يقول - هى فى الجسد المختص بالإنسان أقوى منها فى الجسد المختص بالحيوان.. إذن فالصفة العمومية للبنية الجسدية وآلات قواه المحركة له تكاد تكون مشتركة، غير أن البنية الإنسانية أنشئت من بدايتها نشأة مستقيمة، ومسواة معدلة، لأن هكذا كانت بيئتها، وكذلك نجد فى بعض القوى الروحانية أن صفة الاشتراك موجودة كالقوى الحسية والحافظة والذاكرة والخيال والوهم، لكن وجودها فى الإنسان تجده أقوى، إذن فالقرد، والقردة العليا، تحس وكل الحيوانات كذلك، لكن إحساس الإنسان يختلف، لأنه إحساس يمده بسنده إدراك الحيوان - وخصوصا القردة - يحفظ ويتذكر ويتخيل، لكن حفظ الإنسان وتخيله مبنى على تصور وتفكر، وعقل وتدبر يميز به بين البدائل، ومن هنا فالحيوان يحفظ، لكن حفظه وتذكره ترديد وتقليد، إذن فله دماغ ومخ، لكنه محدود البنية والمهمة، وسيبقى هكذا إلى أن يموت كل جنسه ويرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ولن يرقى فى يوم من الأيام أو يتطور ليكون إنسانا، لأن الحق جل سناه، أنشأ الإنسان من البداية داركا عالماً، متكلماً: (فتبارك الله أحسن الخالقين).

دارون وابن عربى:

الحقيقة التى تبدو لمن يقرأ ما أورده الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - قد لا تخلو من بعدين، يمكن أن يخرج بها هذا القارىء، وهذان البعدان لايمكن أن يتحدد

منهما أى بعد إلا من خلال القارئ نفسه، فإن كان هذا القارئ دارساً لكتاب الله تعالى، وأحاديث رسوله الكريم ﷺ، وعالماً - أو حتى عارفاً - بالثقافة الإسلامية، استطاع أن يعرف - ولو أكثرها - مقاصد دلالات هذا الشيخ - ابن عربى - الإسلامية ، والتى لاتخرج - فى أكثرها - عن دلالات الثقافة الإسلامية ومعانيها .. وكذلك العكس.. والذى يبدو أن ما قاله ابن عربى الآنف الذكر لا يبعد كما أراه أن يكون الشريحة الأساسية الأولى التى يبنى عليها دارون نظريته المنتشرة فى أكثر الأوساط العلمية وهى نظرية النشوء والارتقاء.. ولا نستغرب فابن عربى رجل علم مشهور ومعروف لدى العلماء الغربيين معرفة كبيرة ولاسيما الأوساط العلمية حتى أنهم يطلقون عليه شيخ العلماء، وذلك أن ابن عربى - رحمه الله - رأينا أنه يقول وبصراحة فى نصه السابق وهذا كله فى الإنسان بما هو حيوان لاسيما هو إنسان فقط.. إلخ. وعند التأمل فى كلام ابن عربى السابق ترى أن مقصده يظهر ويتضح بدون أى غموض ولكن بشرط أن تربطه بأوله وآخره، عندها ترى دلالات معانيه هى غير ما رمى إليه أهل العلوم المادية فقط، فأنت ترى أنه يبدأ حديثه، بأن الذى خلق وسوى هذا الإنسان هو الله سبحانه وتعالى .. وإذا كان الذى خلق هذا الإنسان، يقول: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.. والخليفة - بداهة - لايكون إلا عالما، عاقلا مفكرا، إلخ.. وليس هذا فقط، بل الذى خلق هذا الإنسان يقول: ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾.. ويختم حديثه بكلام الذى خلق هذا الإنسان، وقال عنه أيضا: ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾.. إذن فالعيب ليس فى ابن عربى ، بل فيمن لم يفهم كلام ابن عربى ولا مدلولات معانيه، ولعدم فهم كلام هذا العالم - ابن عربى - وجدنا أن جل ما بنى عليه كان خاطئا، وهذا أمر طبيعى، لأن ما بنى على فاسد لابد أن يكون فاسداً وبشهادة أبناء قومه من العلماء الغربيين. ولكننا إذا رجعنا إلى عالم كان ينهل من نفس النبع الذى كان ينهل منه ابن عربى، فإننا لانجد فى كلامه الذى بنى مفاهيمه على مثل ما ورد عن ابن عربى وغيره أى خلل أو فساد، بل سنجده كما فسره لنا الشيخ الرازى، حينما فسر إشارات هذه التسوية الإنسانية، والحيوانية، وبعض ما ظنه علماء الأحياء من مفارقات فى البنية الجسدية الإنسانية

عبر الأزمنة المختلفة، إنها تشهد لهم فيما ادعوه من ارتقاءات وتطورات تنقل منها الحيوان حتى أصبح إنساناً كما فى حجتهم السابقة، حجة عالم الرئيسيات وما إلى ذلك، فقد رأيناه يقول ـ نوجز منه بعضه، لأنه قد سبق: (.. ونفس وما سواها.. إن حملنا النفس على الجسد فتسويتها هو تعديل أعضائها ، على ما يشهد به علم التشريح،وإن حملناها على القوة المدبرة، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة، كالقوة السامعة، والباصرة، والمخيلة، والمفكرة، المذكورة على ما يشهد به علم النفس.. فإن قيل لم نكرت النفس؟ قلنا فيها وجهان: الوجه الأول: أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس، وهى النفس القدسية النبوية، وذلك لأن كل كثرة لابد فيها واحد يكون هو الرئيس.. فالمركبات جميعها جنس تحته أنواع، ورئيسها هو الحيوان.. والحيوان جنس تحته أنواع، ورئيسها هو الإنسان، والإنسان أنواع وأصناف، ورئيسها هو النبى.. والأنبياء كانوا كثيرين، فلابد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق.. فقوله تعالى: ﴿ونفس...﴾ إشارة إلى تلك النفس، التى هى رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات..).

هذا بعض ما أشار به هذا العالم الإسلامى ـ الرازى ـ وفيه تلمح أن الفوارق فى الصنعة المبدعة موجودة منذ بداية الخلقة، فالنفس هى واحدة لجميع جنس الخلق المركب، ومنها وجد الأدنى فالأدنى، والإنسان، هو سيد جميع تلك الأجناس المركبة، وذلك لما أوجده الله تعالى فيه منذ البداية، وقبل الإنزال إلى الأرض، وليس فى الأرض حدث ذلك الرقى والتطور... فإذا كان الحيوان جنساً عاماً، وتحت هذا الجنس أنواع، ورئيس هذه الأنواع جميعها هو الإنسان، فإن الإنسان أيضا عام وتحته أنواع وأصناف، جميعها ترتبط برئيس عام يتسيدها، وهذا الرئيس هو النبى، والأنبياء هم كثيرون، إذن فلأن تختلف هذه الأصناف بحسب اختلاف سيدها ورئيسها وهو ذلك النبى، واختلاف أنفس رؤساء تلك الأصناف والأنواع، لو سألت كيف حصل، ومن أين جاء، لوجدت أنه جاء من قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ وتسويتها أحدث الاختلاف الحاصل فى ناحيتين لكل نفس من نفوس أولئك الرؤساء.

الجانب الأول: اختلاف الحاصل فى تسوية أجسادها من حيث تعديل أعضاء كل نفس بما يخصها، كما ينهض على ذلك علم التشريح.

والجانب الثانى: الاختلاف الحاصل فى تسوية قواها المدبرة للجسد من سمع وبصر وفكر وعقل وما إلى ذلك.. ومن هنا ندرك أن الاختلافات التى وجدها لاتشير فى حقيقتها إلى ما ظنوه رقياً وتطورا حصل للإنسان، وإنما هو يعود إلى أنواع الجنس الحيوانى بعمومه، لا إلى الأنفس الرئيسة وما تفرع منها، وأن الاختلافات الحاصلة فى أصناف الجنس الإنسانى نفسه إنما يعود إلى طبيعة الاختلافات التى حصلت فى أجساد وقوى الأنفس الرؤساء،وذلك نظراً لما أهّلت له فى زمانها ومكانها، إذن فلاتطور ولا ارتقاء وإنما هو تسويات عمومية وخصوصية تابعة لأزمنة وأمكنة هى مرتبطة بها كما سبق ومن هنا ندرك - أيضاً - الإشارة الأولى عند الشيخ ابن عربى، والتى لم يدركها دارون ومن تابعه من علماء الأحياء وغيرهم، وهى قوله: (فلما خمر الحق - سبحانه وتعالى - طينة آدم حتى تغير ريحها ، وهو المسنون، وذلك هو الجنس الهوائى.. إلخ)، وجعل ظهره محلا للأشقياء والسعداء من ذريته فأودع ما كان فى قبضتيه... إلخ).

أى أن ظهر النفس الرئيسة المطلقة لجميع الأنفس الرؤساء وما حملته لكل نفس منها، مدخول فيه - أى فى ظهرها - خلق مسوى معدل ملائم لطبيعة مكانه وما يتطلبه زمانه، خلق جاهز يستدعى ويطلب إذا حان وقته وزمانه، فلايخرج إلا فيه، لأن تسويته، لاتصلح الإله، لا لما قبله من زمان ومكان ولا لما بعده.. إذ قد رأينا أن لكل مرحلة زمنية ومكانية سماتها وصفاتها فى التسوية الخاصة - كما سبق - وهذا ما رمى إليه الشيخ الرازى وأمثاله من العلماء حينما قالوا: (والإنسان أصناف وأنواع ورئيسها النبى والأنبياء كثيرون).

إذن فالإنسان أهبط من الجنة إلى الأرض وهو كامل الأعضاء، وليس كاملاً فى بعض الأعضاء، والبعض الآخر يحتاج لأن يرقى ويتطور، ليتحول من حيوانية إلى الإنسانية كما قالوا.. وبديهى أن يكون الرئيس فيه صفات قد لاتوجد فيمن هو دونه

ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وكما أنزل آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو رئيس الجنس الإنسانى جميعه، وفيه مدخول جميع ذريته الذين سيخرجون منه، كذلك نزل رئيس الجنس الحيوانى الأدنى من آدم وهو على مثل ذلك من الصفات والسمات ليس غير، فالقردة والقردة العليا لاتزال هى القردة، ولن ترقى فى يوم من الأيام لأن تكون إنساناً، ولايمكن أن تكون إلا أن يشاء الله الخالق، لأنه هو وحده القادر على أن يغير السنن والقوانين، ولكنه سبحانه وتعالى، قد أخبرنا أنه كرم المخلوق الإنسانى ورفعه على ما حوله، وميزه بعقل وعلم وفهم منذ أن خلقه وأخبرنا سبحانه ـ أيضاً ـ أنه لايرفع من دونه لمصافه ودرجته، وأخبرنا أيضاً أنه ـ سبحانه ـ قادر على أن ينزل العاصى المتمرد الطاغى المنحرف إلى الجنس الذى دونه، وقد حصل كما أخبرنا ـ سبحانه ـ أنه قد أنزل عقوبة هذا التغير فى بنى إسرائيل، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد طبق معهم نفس القانون الذى أوجدت به تسوية النفس الرئيسة العامة ـ آدم عليه الصلاة والسلام ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ الرئيس الأعلى ـ وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكا لا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين. وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾(٢).

إذن فالحق الخالق ـ سبحانه ـ يعلمنا أنه قد أنزل بفئة من الجنس الإنسانى المنحرف إلى الدرجة الأدنى من الأدنى، لكونه لا يستحق الدرجة والمكانة التى كان عليها، وهى أمة من بنى إسرائيل ـ اليهود ـ وعلى هذا ـ كما نرى ـ فما جعله أولئك

(١) سورة البقرة: الأيتان «٦٥ ـ ٦٦».

(٢) سورة الأعراف: الآيات «١٦٦ ـ ١٦٨»

العلماء - علماء الأحياء وغيرهم - أشباها للبشر، هو من بقايا الفئة المنحرفة المنقرضة، فهم وإن كانوا - كما وجدوهم - قردة، فليسوا هم قردة فى أصلها، وإنما هم أصلا كانوا بشرا نزل بهم درجة عن بشريتهم، عقوبة لهم على ما كانوا عليه من عصيان وتمرد، فإذا كانوا - العلماء - حقاً قد وجدوها فى حفرياتهم المزعومة، فهم لايخرجون عن ذلك، وليسوا حلقة فى تطور الجنس الإنسانى الراقى - كما يزعمون - الموجود اليوم، بل هم خلق منتكس عن إنسانيته، ومنقرض وغير متناسل ومقطوع، جعله الحق - سبحانه وتعالى - عبرة لزمنهم ولكل الأزمنة التالية لهم، كما أخبرتنا بذلك آيات القرآن السابقة، وأحاديث رسول الله ﷺ، وبعض ما ورد حول ذلك من إشارات تفسيرية من بعض الصحابة والتابعين - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - ولقد أوردناها سابقا فى مكانها فليرجع إليها، ولا بأس من أن نشير ببعض ذلك تذكيراً أو ربطاً لمناسبة المكان وطلبه ذلك.

فمن ذلك نوجز بعضاً مما قاله القرطبى حول قوم من بنى إسرائيل لم يمتثلوا لما أمروا به من أكل الحيتان فى يوم السبت فعوقبوا بأن مسخوا قردة وخنازير، يقول: (.. روى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطاً ويضع فيه وهقه[1] وألقاها فى نب الحوت، وفى الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع لايبتلى، حتى كثر صيد الحوت ومشى به فى الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده. فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهى واعتزلت. ويقال: إن الناهين قالوا: لانساكنكم، فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا، فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى، فيقول لم ننهكم، فتقول برأسها نعم - تهزه - قال قتادة: صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

(١) جامع القرطبى: ١/٤٤٠.

وقد اختلف العلماء فى المنسوخ هل يَنّسل، على قولين:

(أ) قال الزجاج: قال قوم يجوز أن تكون هذه القردة منهم. واختاره القاضى أبو بكر بن العربى .

(ب) وقال الجمهور: الممسوخ لاينسل، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل، لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه، لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل.. قال ابن عطية: وروى عن النبى ﷺ، وثبت أن الممسوخ لاينسل ولايأكل ولايشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام..) قلت: وهو الصحيح من القولين..[1].

هذا بعض مما ورد عن تلك الفئة من البشر الممسوخة بسبب عصيانهم لخالقهم، وفيه رأينا أنهم قد تحولوا إلى قردة وخنازير.. وقد سبق أن أوردنا الخلاف الذى دار بين بعض العلماء حول: هل هم فعلاً تحولت صور أجسادهم إلى قردة وخنازير أو لا، وخصوصا ما قاله الإمام مجاهد رضى الله تعالى عنه، وبما رد الشيخ الرازى فى تفسيره الكبير حول ذلك، وكون ذلك فعلاً قد حصل ما حل بهم من مسخ فى أجسادهم، وفى الكلام الآنف الذكر ما يؤكد حقيقة تحولهم ذاك، ولربما أن تكون تلك البقايا العظمية التى وجدوها واشتبه على هؤلاء العلماء - علماء الأحياء المعاصرين - أمرها، أن تكون من بقايا أولئك الممسوخين، ولاسيما أنه قد جاء فى الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ، أن أولئك الممسوخين قد تفرقوا وانتشروا فى أرجاء الأرض، كما روى عنه ﷺ: (فقدت أمة من بنى إسرائيل لايدرى ما فعلت إلخ..)[2].

.. إذن فقرد جاوة وقرد الصين والقرد الجنوبى المشبوهة، لايعدو - عندى - أن يكونوا هم البقايا العظمية لهؤلاء الممسوخين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين... وقد يثار سؤال، وقد ثار قديماً.. وهو أن يقال: أنه بعد أن

(١) المرجع السابق.

(٢) جامع القرطبى: ١/٤٤١.

يصار الإنسان قرداً لايبقى له فهم ولا عقل ولا علم، فلا يعلم ما نزل به منه من العذاب، ومجرد القردية غير مؤلم بدليل أن القرود حال سلامتها غير متألمة، فمن أين يحصل العذاب بسببه، وقد أجاب الشيخ الرازى عن هذا السؤال وأمثاله بقوله: (ولم لا يجوز أن يقال إن الأمر الذى به يكون الإنسان إنساناً عاقلاً فاهمًا، كان باقياً، إلا أنه لما تغيرت الخلقة والصورة لا جرم أنها ما كانت تقدر على النطق والأفعال الإنسانية، إلاّ أنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب شؤم المعصية وكانت فى نهاية الخوف والخجالة، فربما كانت متألمة بسبب تغير تلك الأعضاء ولا يلزم من عدم تألم القرود الأصلية بتلك الصورة وعدم تألم الإنسان بتلك الصورة الغريبة العرضية[1].. إذن فلا يبعد بعد هذا كله أن تكون هذه الحفريات العظمية هم من تلك الأمة الإسرائيلية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولانستبعد من بنى إسرائيل وعلمائهم على وجه الخصوص، أن يوحوا بمثل هذه المغالطات، وأن يجعلوا له دراسات وأصولا ليلهوا الناس عما أصاب أجدادهم، وعن أصل حقيقة ما فيهم قد غرس من العتو والفساد والطغيان.. وعلى هذا يبقى الإنسان كما خلقه الله - تعالى - إنساناً والقرد كما خلقه الله - تعالى - قرداً.. أما علماء الأحياء هؤلاء، فتراهم لايثبتون عند أى نظرة يدعونها، فهم دائماً ما يصدمون بالحقائق التى يكتشفونها ويجدون أنها قد تهدم ما قالوه، تراهم ينحرفون قليلا قليلا ليغيروا ما قالوه! ألم يقولوا بإدراج الإنسان مع القردة والقرود العليا فى رتبة واحدة عند تصنيفهم السابق، لكنهم عندما وجدوا أن الإنسان لايمكن أن يرقى إلى درجته العقلية والإدراكية والذهنية أى مخلوق حيوانى، فروا عما قالوه وبادروا ليقولوا: (.. وقد أثبتت التجارب أن أقصى ما يمكن للشمبانزى البالغ أن يتعلمه لايتعدى مستوى طفل بشرى عمره أربع سنوات ، بما يدل على أن القدرة الذهنية عند القردة العليا هى قدرة محدودة جداً وعاجزة عن الانطلاق، ولكن تلك الإمكانيات العقلية المبتورة تعتبر متقدمة جداً عند باقى

(١) تفسير الرازى: ١١١ - ٣/١١٢.

الشدييات.. ولو كان تصنيف الحيوانات بناء على القدرات الذهنية فقط لكان الإنسان نسيجا وحده.. ولكان فى رتبة خاصة يتميز بها ولا يشاركه فيها أحد.

ولكن التصنيف السائد حاليا معياره التشابه فى الصفات التشريحية والفسيولوجية شاملاً مكونات سوائل الجسم، ولهذا وضع الإنسان مع القردة العليا فى رتبة واحدة، وهو تصنيف تفضيلى اشتقاقى[1].

هذا بعض مما قالوه ولو أنا تأملنا قليلاً فيه، فما الذى سيتضح ياترى؟

أفلم يقولوا أن الشمبانزى تقصر قدراتها العقلية عن الإنسان لكونها محدودة مهما رقت وتطورت لأنهم يجهلون حقائق الأديان التى رأينا ما قاله علماؤها حول مثل هذه النقطة بالذات وأمثالها أو حتى غيرها، ألم يقولوا: (.. إن قوة الحفظ والخيال والتذكر والوهم، هى فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان، ذلك لأنهم علموا أن الله تعالى، لما خلق هذا الخلق الحيوانى جعله - كما سبق - أصنافا وأنواعا، وجعل لكل صنف نفسا عامة ترأسه، وزودها بما تحتاجه هى وصنفها ونوعها الأدنى منها فى حياتها، فالشمبانزى نرى مثلا هو رئيس جنسه، وهو الأدنى من الإنسان وقد يكون يليه فى الدرجة، وقد زود من هذه القوى والتى زود منها الإنسان أيضاً، ولكن بقدر محدود لايتجاوز حاجته، ولايمكن أن يصل للقدر الإنسانى من هذه القوى، ولايمكن أن يتغير أو يتبدل ذلك كله، لأنه قد وضع هكذا منذ أن سوّى هناك قبل إهباطه - أى الإنسان - أو إنزاله - أى الحيوان - ولهذا كان هذا الإنسان فى رتبة لايشاركه فيها أحد.. وما الإنسان إلا هذه القوى وغيرها الخاصة به، المميزة له عن غيره، وإلاّ فجسده جعل لحفظ هذه القوى، والحياة فيه، ما هى إلا لتحرك هذه القوى... فالشمبانزى - مثلاً - فى جسده يدان، فهل كل ما فى هاتين اليدين من مهمات متساوية مع يدى الإنسان، أظن أن ذلك غير صحيح .. نعم هما - الإنسان والشمبانزى - بهما يأكلان، ولكنها فى الإنسان.. وسيلة المخ الإنسانى الذى لايمكن أن يتساوى مع مخ الشمبانزى وغيره فى قدرة الإبداع والعمل والإبداع والتفكير وصنع

(١) التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامى صـ٩٥، ٩٦.

ما لا يستطيعه هذا الشمبانزى.. هى فى الإنسان آلة لخياله وقدراته التى لايمكن أن يرقى إليها خيال الشمبانزى أو غيره من الحيوانات، وكذلك الأمر فى بقية أعضائه وأجزاء بدنه...).. إذن فالإنسان ليس هذا الجسم، لتضيق جمجمته أو تتسع لتتفق مع هذا الحيوان أو غيره، وإلا تساوى مع غيره من الحيوانات التى خلقت لأجله، وسخرت له، أى لخدمة هذا الجسم والبدن التى هى من جنسه... إذن فما هو الإنسان مناط هذا التكريم، ثم التكليف والمسئولية؟ أو هذا الجسم أو شىء غيره؟ وهذا ما قد يتضح لنا بعضه مما يلى من صفحات بإذن الله تعالى.

الفصل العاشر
نورانيــــة المرحلة الثانيــــة وقضيـــة التركيب

قلنا - كما سبق - أن كل هذه التسويات جرت عندما كان الإنسان فى طبيعة غير الطبيعة التى هو عليها الآن.. وهى طبيعة المكان الذى كان فيه فى الملأ الأعلى، عالم الروحانية، وقد قلنا الكثير - بحمد الله تعالى وتوفيقه - من الصفات والسمات عن بعض طبيعة تلك المرحلة.. وقد يمكن لنا بناء على هذا الكثير أو القليل الذى قلناه يمكن لنا أن نقول عن طبيعة تلك المرحلة - أيضاً - أنها مرحلة الطاقة المجهولة العناصر والتعنصر، وإن كان ما نعرفه من أمر الطاعة وعناصرها - اليوم - من أنه قد يكون من جنسها وبعد تعنصره وتحوله، إلا أننا رغم ذلك كله لازلنا نجهل أمر طبيعة تلك الطاقة حقيقة.

شىء من طبيعة الروح وماهيتها:

أما أمر تشخيصنا لها ووصفها بالطاقة، فذلك اعتمادا على ما سبق من بعض الإشارات السابق إيرادها، ومن ذلك ما قاله الإمام الرازى فى تفسيره لقضية الروح وكيفية نفخها فى الأجساد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قال: (.. فاعلم أن الأقرب، أن جوهر النفس، عبارة عن أجسام شفافة نورانية علوية العنصر، قدسية الجوهر، وهى تسرى فى البدن سريان الضوء فى الهواء، وسريان النار فى الفحم، فهذا القدر معلوم .. أما ذلك النفخ فما يعلمه إلا الله تعالى[1].

هذا بعض مما قيل عن الروح - أو النفس - وفيه ترى أنه شىء نورانى، علوى العنصر، أى أنه غير العناصر الأرضية، وإن كانت من عالمه المتحول، أى أن جزيئات

---

(١) تفسير الرازى: ٢٢٨/٢٦.

ذراته من عالم الأمر المجرد، عالم الملكوت الأعلى، والملائكة المقربين، أى أن الجنس الإنسانى فى تلك المرحلة كان طاقة مجردة ـ نورانية ـ فيها حياة مجردة، لايعلم كنهها إلا الله تعالى.. ولرب سائل قد يسأل هنا ويقول: إذا كانت هذه الأرواح، هى عبارة عن جسيمات شفافة نورانية، إذن فهى من عالم هذا الضوء، وإذا كانت كذلك فلربما يأتى وقت لنا أن نتعرف فيه على بعض الحقائق عن هذه الأرواح؟ وهنا نقول لهذا السائل أن التعرف على عالم الروح فى هذه المرحلة الدنيوية أمر غير ممكن، لكون خالق الروح قد فصل فى الأمر مبكرا حيث قال عز من قائل: ﴿ يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى..﴾ إذن فالحق قد أجاب: أنها من عالم الأمر الذى هو عالم الأرواح المجردة، وعالم هذه الأرواح لايظهر لنا، أى لايستطيع رؤيته على حقيقته إلا عندما يتحول هو إلى صورة جسدية، لحكمة يريدها بذلك خالقها، كما حصل مع سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام. وإن كانت هى حقا من عالم هذه الأضواء ولكنها لم تزل على هيئتها التى خلقت عليها لم تتحول.. حتى عالم هذه الأضواء التى ندرسها اليوم نحن لانراها حقيقة، بل نرى آثارها إذا هى تحيزت فى أى جسم ما، لأن الضوء نفسه لايرى بل ترى به الأشياء، فكيف نراه، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة..﴾، وإذا كان الروح هو من طبيعة هذه العوالم فكيف نبصره، به نحن نحيا ونبصر ـ بإذن الله تعالى .. والذى أراه أن هذه المرحلة ذات التسوية التعليمية، هى فى طبيعتها أقرب إلى مرحلة الظل ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهى التى استنسخ منها ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ مرحلة الجنة، لكون طبيعتها هى أقرب إليها (وظل ممدود).. كما قال عز من قال ذلك عنها، ولكنها نسخة روحانية متجسدة نورانية محسوسة، ويقانون إحساس غير القانون الحسى الذى نعهده فى دنيانا، وإن كان هذا من ذاك ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب ـ ولكن طبيعة صفته الآن غير تلك ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهنا قد يطرأ سؤال وهو لماذا لايبقى الإنسان عند عودته إلى عالمه الأول كما كان عند تعليمه، طاقة مجردة.. ومن الطبيعى أن تكون الإجابة على ذلك نفياً، لأسباب كثيرة جدا قد ندرك بعضها ونجهل

الكثير الكثير منها .. فما قد ندركه، أنه سيعود إلى طبيعة مرحلة قد وجد عليها قبل إهباطه إلى الأرض، وهذه المرحلة هى مرحلة وسطية بين مرحلة التسوية والمنهجة، وبين المرحلة الجسمية الكثيفة الدنيوية، لذا فهى تجمع بين صفات المرحلتين مع التفاوت بين ذلك، فهى مثلاً تأخذ من الأولى النورانية الروحانية .. ومن الأخيرة - الدنيوية - الجسمية - ولكن نورانيتها وروحانيتها الأولى.. والجسمية، هى ليست الجسمية الخالصة، بل هى أقرب إلى الجسدية مع التفاوت بعض الشىء، وذلك لتحقق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قانون الجزاء ثواباً وعقاباً المترتب على ذلك.. فتحول الجسمية إلى الشبحية - الهيولية - ليبقى الجسد الذى كان فى الدنيا جسما، ليذوق نتيجة هذا القانون ثواباً وعقاباً، لأنه هو الذى كان فى الدنيا المتصرف فيه الروح، وعدم بقائه، جسماً خالصاً كما كان فى دنياه ليتلاءم مع طبيعة المكان، النورانية الروحانية، فهى بذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تأخذ من الأولى التجرد ولكنه وسطى - والله تعالى أعلم بالحقيقة - ومن الدنيا التركيب، لكنه بصفات وسمات تختلف ، لذلك: (فالملائكة أرواح منفوخة فى أنوار، والجان أرواح منفوخة فى رياح، والأناسى أرواح منفوخة فى أشباح[1] .. وهنا يتضح لنا - بحمد الله تعالى وتوفيقه - بعض ما حاولنا أن نلف وندور حوله فى أن جميع الخلق بجميع أنواعه تبقى صفة التركيب لازمة لهم.. ولكن هذه الصفة تختلف فى جنس من غيره، فالعالم القدسى ذو الملائكة المقربين، هو مركب، ولكن تركيبه يكون فى طبيعة من جنسه، ولما كان هذا الجنس الملائكى نورانى الطبيعة كان تركيبه لابد أن يكون فى طبيعة نورانية - طاقة - إذ هو مركب فى أنوار - وذلك ليتحقق قانون الخلق والإحداث كما أراده الحق جل سناه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو لاظهور للأعيان إلا بوجود التركيب، ولكن لكل تركيب عالمه وقانونه وصفاته وخصائصه. ولذلك فالجنس الإنسانى عند العرضة والتسوية التعليمية، فى ذلك العالم المجرد الروحانى كان مركباً، وتركيبه من

---

(١) الفتوحات المكية: ٢/٢٨١.

جنس هذا العالم النورانى، ولما أرادت الحكمة الإلهية ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أن يكون لهذا المخلوق الإنسانى عوالم تتردد بينها خلقته لحكم يريدها هو سبحانه وتعالى، اقتضت الحكمة والمشيئة والإرادة الإلهية أن يكون لكل عالم من هذه العوالم تركيبه وسماته وخصائصه التى تلائمه، فكان لذلك، هذا التركيب الوسطى والأدنى منه، لأسباب، منها ما سبق أن ذكرناه، وما سيأتى بمشيئة الله تعالى وإذنه، ومن تلك الحكم ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ اقتضت إرادة الله تعالى ومشيئته أن يكون التركيبان الأخيران من عنصر واحد رئيسى، مع حمله لخاصية رئيسية تربط بينهما وهى خاصية التحولات، وإن كان الجميع من عنصر واحد،وهو ذو الخاصية التركيبية التحولية من الأعلى إلى الأدنى، إلى الأدنى منه، مع خاصية العودة فى نفس الطريق، وإن استقر الأمر ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ عند العودة عند الاستنساخ والتحول الأوسط، لما سبق أن قلناه وما سيأتى بعد ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ لذلك ـ مثلاً لا مطابقة فى الأمر ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لذلك ترى علماء الفيزياء يقولون إن الذرة الصغيرة تتكون بنيتها ـ من مجموعة جسيمات، وإن هذه الجسيمات هى أصغر أجزاء الذرة ومكوناتها ولكن اتضح أخيرا: (أن التجارب التى تصدم فيها البروتونات مع بروتونات أو الكترونات أخرى بسرعات عالية دلت فى الواقع على أن هذه الجسيمات مؤلفة من جسيمات أصغر حجما، وسميت هذه الجسيمات الدقيقة (كوارك)[1].

إذن حتى أجزاء الذرة الصغيرة تتجزأ إلى أجزاء أصغر وهكذا إلى ما لايعلمه إلا الله سبحانه تعالى ... ومن هنا فكل جزيىء وإن دق أو صغر فهو لايخرج عن قانون التركيب.. وهنا تبرز لنا مجموعة حقائق منها أن العنصر النورانى الذى كانت فيه مركبة أرواح الجنس الإنسانى عند العرضة التعليمية، هو الذى طرأ عليه أمر التحول

(١) موجز تاريخ الزمن صـ٨٥ ـ ٨٦.

مع بقاء الروح على ما هى عليه، وهو العنصر الذى أسماه الحق جل سناه بالتراب: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[1].. وهذا العنصر الترابى يتحول إلى الطين الذى كون منه جسم آدم عليه الصلاة والسلام، ومنه ذريته، ولفظة الذرة توضح لنا حقيقة أن هذا العنصر الترابى كان نورانياً ـ طاقة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لأسباب كثيرة منها ما سبق، وأيضاً أن الأرض منفتقة أصلاً من السماء كما قال الله تعالى: (كانتا رتقا ففتقناهما).. ثم إن عالم الملكوت هو عالم نورانى، فحتماً أن يكون هذا التركيب أقرب إلى هذه الطبيعة النورانية، لذلك نجد أن من أهم صفات هذا العنصر الترابى، هى صفة وخاصية التحول، التى يقول عنها علماء الفيزياء نظرياً، وكانوا لايزالون جادين فى محاولاتهم تلك لإثبات ذلك عمليا ـ إن وفقهم الله تعالى ـ هكذا قالوا[2].. ثم إن هذا العنصر الترابى الذى اختاره الحق ـ جل سناه ـ لتكون كل ذرة منه جسداً وجسماً لكل واحد من بنى آدم، ليس هو نفسه المقصود،بل عناصره، وإن كان ذلك منه فيما بعد، لذلك يقول علماء الكيمياء: (.. وكلمة التراب) كما جاءت فى القرآن الكريم لاتعنى بالضرورة (التراب) الذى ندوس عليه بأقدامنا، ولكن ربما كان المقصود به: عناصر الأرض الجافة من كربون وكالسيوم، وحديد، وصوديوم، وبوتاسيوم، وفوسفور، وكبريت، وغير ذلك[3].. إذن فمقصود كلمة تراب، هى قد تكون عنصرا من مجموعة من العناصر المكونة لكلمة تراب،ومعلوم أن ذرة واحدة تكون عنصراً من هذه العناصر، والذى هو بدوره قد يحمل فى ذرته بعض هذه العناصر.

عودة لإشارة من آية قرآنية سابقة:

ومن هنا تظهر لنا حقيقة أخرى من الحقائق، وخاصية أخرى من خاصيات التراب، وهى أن كل واحد من هذا الجنس الإنسانى، هو عبارة عن جسيم إن لم يكن

(١) سورة الروم: آية «٢٠».

(٢) موجز تاريخ الزمن صـ٩٤.

(٣) التطور واصل الإنسان من منظور إسلامى صـ١٢١.

كوارك من جسيم من ذرة من هذا التراب، تجمعت جميعها فى ذرة آدم - عليه الصلاة والسلام - (فتبارك الله أحسن الخالقين).. لتتجلى لنا إشارة من إشارات قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم..﴾. لتستنسخ منه خلقاً آخر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.. لذلك قال بعض المفسرين عن قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾[1] أى إنشاء ذرات هوياتكم فى الأزل عند أخذ الميثاق[2].. إذن فلكل واحد من هذا الجنس الإنسانى ذرته التى تشكل هويته واستقلاليته عن ذرة غيره، ثم إن هذه الذرة هى المتحولة طيناً بإذن الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿ هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾[3].. قال بعض المفسرين عن كلمة طين هذه: (.. هى المادة الهيولانية[4]. فماذا تعنى هذه الكلمة فى اللغة والاصطلاح، وماذا قال العلم المعاصر عنها أيضا. ولنبدأ ببعض ما قالته اللغة، تقول اللغة: (هاله هولا: أفزعه.. والتهاويل الألوان المختلفة، وزينة التصاوير والنقوش والحلى، والهالة دارة القمر.. وهال عليه التراب يهيل هيلا،والهيل والهيال كسحاب، والهيلان: ما انهال من الرمل. والهيلمان بالفتح وتضم لامه، أى الكثير والرمل والريح.. والهيول كصبور، الهباء المنبث، وما تراه فى البيت من ضوء الشمس، معرية.. والهيولى: وتشدد الياء مضمومة عن ابن القطاع: القطن وشبه الأوائل طينة العالم به[5].

هذا بعض مما أشارت به لغة العرب حول مادة هال، وهى كما ترى واوية الوسط ويائية، وترى أن المادة لاتبعد عن قضايا النورانية - الطاقة ... فهى إن كانت واوية، لاتخلو من ذلك، فالتهاويل: هى الألوان، وهنا قد تقول لنا: لادخل لهذه اللفظة بأمور الطاقة، ولكننا نقول لك، لا، بل الدلالة تشير إلى ذلك لإشارات كثيرة، إذ هى

(١) سورة الأنعام: آية «٩٤».
(٢) تفسير ابن عربى.
(٣) سورة الأنعام: آية «٢».
(٤) تفسير ابن عربى: ١/٣٨٩.
(٥) القاموس المحيط: ٧١ - ٤/٧٢.

تفسير للفظة التهاويل، وهذا يعطيها دلالة ما تراه الآن من ألوان صاخبة تظهر بين الحين والآخر فى أفق السماء وتتحدث عنها وكالات الأنباء وفيها من الإشارات التى تشير إلى ذلك الكثير.. وربما تقول: ولم لا يكون - أيضا - مقصودا بها الألوان المستخدمة فى التشكيل والرسوم، ونحن نقول لك أيضا، لا نفياً - لأن صاحب القاموس كان مدركاً لذلك، وهو لذلك أردف بعدها لفظتين تشيران إلى ما قصدت أنت، وتبعد عن الأولى ما توهمت.. وهى قوله: (زينة التصاوير والنقوش والحلى..).. إذن فقوله: التهاويل: الألوان.. مقصود بها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ألوان الطيف، أى الألوان الفيزيائية فى عرفنا اليوم، وهناك ما يؤكد هذه الإشارة - والله تعالى أعلم - وذلك كون أن المادة واوية ويائية دلت وأشارت بدلالة أخرى أكدت ذلك وهى قوله: (والهالة هى دارة القمر..) ومعلوم - كما يقول أهل العلم اليوم - أن لكل شىء هالة.. والهالة: هى ما يشعه أى جسم من الأجسام حوله من طاقة، وهذا معروف ومتداول عند أهل العلم الفيزيائى - وقد تكون لنا عودة مطولة مع موضوع الألوان، فيما بعد بإذن الله تعالى - ثم إن المادة اليائية قد أشارت بلفظتين أخريين تؤكد ارتباط المادة بقضايا الطاقة وهما لفظتا الريح، وهذه واضحة لاتحتاج إلى محاورة أو ربط.. ثم لفظة سحاب والسحاب وتركيب عناصره وذراته بقضايا الطاقة وعناصرها بل إن المادة اللغوية ذاتها أكدت على هذا الارتباط بالطاقة وعناصرها . بل إن المادة اللغوية ذاتها أكدت على هذا الارتباط بالطاقة وعناصرها بحقائق لاتدعو لأى شك فى أمر ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالمادة اليائية - هيل - قد أشارت بهذه الدلائل الجلية إذ قالت: (الهيلان: هو ما انهال من حبات الرمل.. والهيول بدون ياء النسب، كصبور: الهباء، أو ذرات ضوء الشمس.. والهيولى بتشديد الياء هو القطن وبه شبه الأوائل طينة العالم..).

إذن فاللغة تقول: الهيول، هو الهباء وذرات الشمس، وهنا نسأل، ماهى أهم مصادر الطاقة اليوم فى عالمنا وقبل اليوم، أليست الشمس، وذرات الشمس هذه أليس منها الهيول والهباء، ألم يمر بنا أنه كما ورد صورة خلقية من صور الخلق وهو

لايزال فى حالة الطاقة.. ولذلك نرى اللغة تتعطف لتؤكد لك هذه الحقيقة حينما قالت لك: والهيولى بياء مشددة هو القطن وبه شبه الأوائل طينة العالم.. وقد رأينا أن طينة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى من هذا الهيولى ـ كما سبق فى إشارات المفسرين السابقين والتى دعتنا لهذا الحديث عن الهيولى ـ إذن فعنصر طينة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى شىء نورانى ـ والله تعالى أعلم.

مع الإشارة اللونية وطينة آدم:

ومن هنا رأينا اللغة نفسها تؤكد ذلك ـ وسوف يأتى الحديث عن ذلك مفصلا ومطولاً بمشيئة الله تعالى ـ حينما قالت: والهيلان: هو ما انهال من حبات الرمل ـ وحبات الرمل هذه هى جزيئات ذرات الهباء التى كانت منها مكونات طينة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذريته، وهذا ـ أيضا ـ هو ما يؤكده القرآن الكريم نفسه بكثير من آياته التى أشار بها إلى بعض الحقائق التى تكون عند بداية النشأة الثانية، والتى هى نفسها مرحلة الخلق الثانية ـ كما سبق أن أشير إلى ذلك. وهناك ـ أيضا ـ بعض الأحاديث الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم من تلك الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ إذا رجت الأرض رجاً. وبست الجبال بساً. فكانت هباء منبثاً﴾(٢).. وقوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾(٤). هذه بعض الآيات القرآنية.. أما الأحاديث فهى كثيرة جدا، منها مثلا هذا الحديث نورده كإشارة إلى ما نريد قوله.. فقد ورد فى أمهات الحديث بما معناه عن رسول الله ﷺ: (يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة، غرلا بهما).

---

(١) سورة فاطر: آية «٢٧».

(٢) سورة الواقعة: الآيات «٤:٦».

(٣) سورة المعارج: الآيتان «٨ ـ ٩».

(٤) سورة القارعة: الآيتان «٤ ـ ٥».

هذه بعض الآيات القرآنية وحديث رسول الله ﷺ، فما الرابط بينها وبين طينة آدم عليه الصلاة والسلام - والعالم - فى هذه المرحلة الثانية.

رأينا قبل قليل أن مادة - هال - اللغوية، قد أشارت فى دلالاتها، بدلالة الألوان، وقد أشرنا عنها بإشارة مقتضبة، وهنا يأتى الحديث عنها بمناسبة هذه الآيات والحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وذلك أنا رأينا أن الطينة التى خلق منها آدم - عليه الصلاة والسلام - وبنيه، هى أيضاً طينة مكونات هذا العالم الأرضى كله، كما أشار العلماء حينما تحدثوا عن آية التوحيد، وقالوا: (إن الإنسان هو العالم الصغير، إذ كل ما فى العالم وتكوينه، هو جزء من هذا الإنسان وموجود فيه مثله.. فهذه الجبال مثلا هى جزء من هذا العالم الكبير، فما هى إشارة اللونية التى تربط بينها وبين الإنسان لتتأكد لنا حقيقة وحدة هذه الطينة.. وأيضا أن الآية القرآنية الأولى وما بعدها تشير إلى ذلك، فكيف ذلك، من خلال ما قيل وورد عنها من تفسير وشرح، فالآية تقول: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألونها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾)[1].

إذن فاللونية قاسم مشترك فى تكوين مادة هذا الكون بما فيه وإن اختلفت تحولاتها من بيئة إلى أخرى بحسب القانون الذى يجعله الله - سبحانه وتعالى - لهذه البيئة أو تلك.. فهذه الثمرات والجبال والدواب والأنعام والإنسان تجمعهم جميعا هذه الطبيعة اللونية.. فماذا قال عنها بعض المفسرين، يقول الشيخ الرازى:(مختلف ألوانها.. الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون، أى بيض مختلف ألوانها .وحمر مختلف ألوانها.. ثم قال: - ومن الناس والدواب والأنعام..).. استدلال آخر على قدرته وإرادته.. وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه، وهو عالم المركبات. قسمين: حيوان وغير حيوان.. وغير الحيوان: إما نبات، وإما معدن..

---

(١) سورة فاطر: الآيتان «٢٧ - ٢٨».

والنبات أشرف... وأشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فأخرجنا به ثمرات ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله تعالى: ﴿ ومن الجبال..﴾. ثم ذكر الحيوان وبدأ بأشرف منها وهو الإنسان.. وقوله: ﴿ مختلف ألوانها ﴾. القول فيه كما أنها فى نفسها دلائل ، كذلك فى اختلافها دلائل(١).

هذا بعض موجز عن الآية الأولى.. وفيه نلاحظ أن المفسر أوضح أن جميع عالم المركبات، هو مخلوق من مادة واحدة، وكيف نوّعتها يد القدر.. وأنها مختلف ألوانها،لأن طبيعتها نورانية.. ومما يؤكد هذه الإشارة ذلك الحديث المروى عن حبر الأمة - عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما : (يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما..) وإذا أردنا أن نقف عند هذا الحديث فلنقف عند لفظة (بهما).. فقد ورد عنها: أنها (جمع بهيم: وهو فى الأصل اللون الأسود الذى لايخالطه لون سواه).. يعنى ليس فيهم شىء من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا كالعمى والعور والعرج وغير ذلك(٢).

إذن فخاصية اللونية أمر أساسى فى مادة الطينة الأرضية،وهى مزيج ممتزج من الألوان، مزجت جميعا لتؤدى حكماً وأهدافاً كثيرة، أى أن كل لون منها ذو وعرض وغرض، يؤديه، فهناك صبغية الجين وهى ذات موروث العمى، وهناك صبغية الجين ذات موروث العرج، والقلب والسكر، و ، و ، و ليؤدى الجميع إلى هدم هذه البنية الجسدية ليأخذها الموت عن طريق جنده هؤلاء، وهم هذه الصبغيات اللونية، بل هناك حكم وأهداف كثيرة أيضا لايعلمها إلا الله وحده - سبحانه وتعالى - وإن انكشف لنا بعض منها .. لذا فهو سيعود عند العودة الأخيرة إلى خلقة المرحلة الثانية - النشأة الثانية - مرحلة التركيب الروحى الهيولى - الطينى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سيعود إلى لونه الأصلى الانفرادى قبل الاختلاط والامتزاج الجماعى فى الجرم الآدمى - عليه الصلاة والسلام .. إذن

(١) تفسير الرازى: ٢٦/٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى: ٧/٤٣.

فاللونية فى هذه الطينة ـ الهيولية ـ دليل النورانية ـ الطاقة ـ فى تلك المرحلة، وهذا ما يقوله أهل الفيزياء مثلا: (أما الفئة الرابعة فهى القوة النووية الشديدة التى تمسك بالكواركات مجتمعة داخل البروتون والنيوترون، كما تمسك بالبروتونات والنيوترونات داخل نواة الذرة ، ويعتقد أن هذه القوة يحملها جسيم آخر ذو تدويم(١) يدعى غلوون، يتفاعل مع نفسه، ومع الكواركات فقط، وللقوة النووية الشديدة خاصية غريبة تدعى الحصر، بمعنى التحديد أو الاقتصار، فهى أبداً تربط الجسيمات معاً فى مجموعات مؤلفة لا لون لها. ولايمكن الحصول على كوارك واحد منفرد بذاته، ولا يكون له لون (أحمر أو أخضر أو أزرق).

وبدلاً من ذلك لابد من وصل كوارك أحمر ، بكوارك أخضر وآخر أزرق، عن طريق (سلك) من الفلوونات. و(أحمر + أخضر + أزرق = أبيض) ومثل هذا الثالوث يشكل بروتوناً، أو نيوتروناً، وثم احتمال آخر، هو زوج مؤلف من كوارك، ومن كوارك مضاد، أحمر + أحمر مضاد، أخضر + أخضر مضاد ، أو أزرق + أزرق مضاد = أبيض.. مثل هذه المجموعات المؤتلفة تشكل الجسيمات المعروفة باسم (ميزوفات) وغير مستقرة، لأن الكواركات المضادة تلغى بعضها بعضا مما يولد الكترونات وجسيمات أخرى.. وعلى هذا المثال، فإن الحصر ، يحول دون الحصول على غلوون منفرد بذاته، لأن للفلوونات كذلك،ألوان.. فبدلا من ذلك يجب أن يكون لدينا مجموعة من الفلوونات، تتجمع ألوانها لتؤلف الأبيض. ومثل هذه المجموعة تشكل جسيماً غير مستقر يدعى الكرة الصمغية[١].

هذه بعض عناصر الطاقة المكونة لعالمنا، وإنى لأرجو أن نتأمل جميعاً فى هذا الجزء الذى نقلناه من هذه الإشارات العلمية ثم نحاول أن نتذكر جميعا ما سبق قبله وما سيأتى بعده بإذن الله تعالى وبدون أن نتدخل لشرح هذه الإشارات العلمية، إلا ببعض الإشارات إن تيسرت ـ بتوفيق الله ـ ولننظر ـ مثلا ـ كيف أن جزء الذرة يتكون من أجزاء، وأن الأجزاء ـ أيضاً تتكون من مثلها، وكيف أن ارتباط تكوينها بعالم الألوان،

---

(١) موجز تاريخ الزمن ص٩٤.

الذى جعله الله تعالى طريقاً لظهور هذه الجزيئات المكونة لهذا العالم على السطح المرئى وغير المرئى بحسب ما تقتضيه الحكمة الخلاقة، وكيف أن بتآلفها يظهر عنها ومنها جزء آخر يحمل لونيات عالمه الآخر هو، وكيف أن هذا التوالد والتداخل والتآلف العجيب البديع المتقن يجلى لنا حقيقة إعجاز هذا القول الموجز المجمل البليغ المنقول عمن لا ينطق عن الهوى، حديث رسول الله ﷺ، والذى يرويه عنه حبر الأمة رضى الله تعالى عنهما، حينما سئل بهذا السؤال، مم خلق الإنسان يابن عباس؟ أجاب بكل سرعة بديهية،وبكل سهولة لفظ: من ألوان هكذا من ألوان.

.. والنيوترون مم يخلق يا ترى؟ والبروتون مم يوجد؟ ألم يقل علماء الطاقة أنفسهم - كما رأينا آنفا - أنه: لايمكن الحصول على كوارك واحد منفرد بذاته، وإلا يكون له لون (أحمر وأخضر وأزرق) وبدلاً من ذلك لابد من وصل كوارك أحمر بكوارك أخضر وآخر أزرق عن طريق (سلك) من الفلوونات: (أحمر + أخضر + أزرق = أبيض) ومثل هذا الثالوث يشكل بروتونا أو نيوترونا .. وهذا البروتون والنيوترون أليس كل واحد منهم هو جزء من أجزاء الذرة التى هى عالم كامل لوحدها .. إذن فكل جزىء لابد أن يتكون من ألوان لأنه سيأتى - أيضا - أن الكوارك يتكون من نكهات - كذلك الإنسان الذرة، تكون وخلق من ألوان، وهذا الثالوث الذى اجتمع فكون بروتونا أو نيوترونا .. ترى ماذا قال عنه تلاميذ مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ حينما سئلوا عن كيفية تجمع تلك الألوان، الألوان التى تكون الذرة الإنسانية، لأى إنسان.. قالوا - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - عن قوله تعالى: ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه...﴾ (وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.. قال: الأمشاج: هى الحمرة فى البياض، والبياض فى الحمرة.. وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة.. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - أيضا .. وهو أن يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ، بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فهو من ماء المرأة.. وقد روى هذا القول مرفوعا، وذكره البزار.. وروى عن ابن مسعود رضى

الله تعالى عنه: أمشاجها: عروق المضغة، وعنه أيضا - ماء الرجل وماء المرأة لونان.. وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وصفراء.. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: خلق من ألوان، من تراب، قال ابن السكيت: الأمشاج: الأخلاط، لأنها ممتزجة من أنواع - ألوان - والله تعالى أعلم - لذلك خلق الإنسان منها ذو طبائع مختلفة..)[1].

إذن فالإنسان متجمع من ألوان.. ولم هذا التجمع اللونى يا ترى.. لأن هناك حكماً كثيرة جدا من ورائه.. لا نعلمها.. أقلها هذه الحكمة التى قالها تلاميذ تلك المدرسة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم: (لذلك خلق الإنسان منها ذو طبائع مختلفة[2]..) وكما أن لكل بروتون أو نيوترون وحداته وقدراته المختلفة كذلك الإنسان.. كذلك الجبال - كما رأينا ... بل كل شىء وكل جزىء فى هذا الكون من ألوان، وليس الإنسان فحسب، بل كل شىء فى عالمنا هذا، فاللونية قائمة فى تكوينه وتركيبه، إذا الكل طاقة، ولكنها متحولة حسب قوانين أماكنها وبيئاتها.. وقد تقول كيف ذلك.. أظن أنا قد أجبنا بأشياء كثيرة ولكننا سوف نزيد ما نوفق لكتابته بإذن الله تعالى... فقد سبق أن قلنا أن كل شىء خلق من ماء - كما ورد - ومعلوم أن الماء عنصر مركب من ذرة أكسجين وذرتى هيدروجين، وهذا أمر معروف فى قضايا الطاقة، إذن فاللونية هى شىء قائم فيه.. ولنرى هذه الإشارة فى هذه الآية القرآنية، قال الله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماءماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفاً الوانه ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب.﴾[3].

قالوا عنها: (اعلم أنه تعالى.. لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها .. وذلك أنه أنزل

(١) جامع احكام القرآن للقرطبى: ١١٨ - ١٢١/١٩.

(٢) جامع احكام القرآن للقرطبى: ١١٨ - ١٢١/١٩.

(٣) سورة الزمر: آية «٢١».

من السماء ماء، وهو المطر، وقيل كل ما كان فى الأرض فهو من السماء.. ثم إنه تعالى.. ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الأرض عيوناً ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجسام، ثم يخرجه زرعاً مختلفاً ألوانه، من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك.. أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم، ثم يهيج، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه، فتلك الأجزاء كأنها هاجت، لأن تتفرق ثم يصير حطاما يابسا: (إن فى ذلك لذكرى).. يعنى أن من شاهد هذه الأحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك، وأنه وإن طال عمره فلابد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون متحطم الأعضاء والأجزاء، ثم تكون عاقبته الموت..(١).

هذا بعض ما أشار به الشيخ الرازى حول الآية السابقة.. وفيه ترى إشارات كثيرة ترتبط تقريبا بما سبق فى نص موجز تاريخ الزمن وإن لم تكن واضحة.. فالماء النازل من السماء يتنزل وبه جزيئات من ذرات ما سوف يخلق ـ بإذن الله تعالى ـ منه على الأرض، إذ كل ما على الأرض هو آت من السماء كما سبق ذلك فى آية الحجر: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.. إذن فهذه الجزيئات النازلة من السماء هى التى بتجميعها يكون تكوّن هذا النبات، وغيره فكواركات، خضر وحمر وزرق تكوّن بروتون ومثلها نيوترون، فتكون ذرة ـ من ذلك ـ يعنى تكون بنية معينة ذات صنف معين، شعير، برسيم، وهكذا ـ بأمر الله تعالى وإذنه ـ .. ثم إنه فى الآية إشارة مهمة جدا جدا جدا، وهى قد تجلى لنا أمرا فى غاية الأهمية فى كيفية تكون هذه الأشياء وعلى رأسها تكون الإنسان.. وهذا الأمر هو قضية التحولات وقانونها فى قضايا الطاقة والمادة والعكس وهكذا.. فالماء ينزل ـ وإن كان سيأتى تفصيل أكثر لهذا الموضوع فى فصل مستقل بإذن الله تعالى ـ من السماء إلى الأرض، ولكن ليس كل الأرض ـ بل إلى مسالك وينابيع ومجارى خاصة بهذا الأمر ـ التحولات ـ هذه المسالك والينابيع تقوم بهذه العملية، لما أودعه فيها الخالق سبحانه وتعالى ـ من

(١) تفسير الرازى: ٣٦/٢٦٤.

قدرات قانونية تتولى أمر هذا التحويل - بإذن الله تعالى - وهذا نأخذه من كلمة (يجعله) الواردة فى الآية السابقة.. إذ هى فى هذا الموطن بمعنى صير، وصير تعنى تحول ، لكونها من أخوات (ظن) وهى تنصب مفعولين، كما يقول أهل اللغة فى ذلك.. إذن فقانون التحولات هو أمر ذو أهمية بالغة فى هذه القضايا والتى جميعها تهيىء وتشير إلى أمر البعث والنشور. ونمضى مع أمر اللونية القاسم المشترك فى أمر الطينة التى خلق منها جميع هذا العالم الأرضى وكل ما ارتبط به من نبات وزرع وجبال وغير ذلك، وجميعها يؤكد على أصالتها النورانية، وأنها كانت هى طبيعتها التى كانت عليها عندما كوّن منها جرم آدم - عليه الصلاة والسلام - وبنيه فيما بعد، ثم إنها تحولت فى الدنيا إلى طبيعة الكثافة كما يقتضيه قانونها.. وقد رأينا أهل التفسير وما قالوه حول قوله تعالى: ﴿خلقكم من طين﴾.. وأن هذه المرحلة الطينية مرحلة الهيولى.. ورأينا الكثيرمما قيل عنها.. والآن نمضى مع إشارة أخرى من إشارات اللونية، مع لفظة الهباء، وما تشير به من دلالات مشتركة مع ما سبق، وقد رأينا أن دلالة الهباء هذه، أنها من دلالات لفظة الهيولى - الأساسية بل هى جسيمات ضوئية كما يؤخذ مما أورده أهل اللغة من دلالات معنوية حولها - ولا أستبعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن دلالة الهباء هذه قد تؤكد نورانية جسيم آدم - عليه الصلاة والسلام - عندما وجد فى السماء، وهى الصفة التى سوف يعود إليها - بإذن الله تعالى وقدرته - بدنه عند النشأة الثانية - فهذه الجبال المخلوقة من ذرة تلك الطينة المخلوق منها الجسم الإنسانى، يخبرنا من خلقها عن كيفيتها التى ستتحول إليها عند العودة لما كانت عليه من صفة قبل إنشائها فى الدنيا ، يقول من خلق وهو اللطيف الخبير : ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾[(1)] . ويقول: ﴿وبست الجبال بساً. فكانت هباء منبثاً﴾[(2)] ويقول: ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن﴾[(3)] ويقول: ﴿ وكانت الجبال

---

(١) سورة القارعة: الآيتان «٤ - ٥».

(٢) سورة الواقعة: الآيتان «٥ - ٦».

(٣) سورة المعارج: آية «٩».

كثيبا مهيلاً﴾[1] ويقول: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب﴾[2] ويقول: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾[3].

هذه بعض الآيات السابقة عن الجبال أعدناها مرة أخرى لنرى بعضاً مما قيل عنها من إشارات قد تؤكد لنا بعضا مما قيل حول طينة الجرم الآدمى والعالم الذى خلق معه منها.. وكيف كان أمر هذه الطينة عندما خلق منها هذا الجرم الآدمى.. وكيف كان شأنها فى عالم الاستحالات.. وكيفية أمر عودتها إلى طبيعتها الأولى عند الخلقة والإيجاد الأول بعد العرضة والتسوية التعليمية.. وعند أخذ الميثاق.. وسكن الجنة قبل الإهباط. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. فماذا قيل إجمالاً من إشارات حول هذه الآيات.. لعلنا قد نقف عنده ننهل منه بإذن الله تعالى .. قالوا: ﴿ وبست الجبال بساً﴾ الفاء للترتيب الزمانى، لأن الأرض ما لم تتحرك والجبال ما لم تبس، لاتكون هباء منبثا، والبس: التقليب، والهباء: هو الهواء المختلط بأجزاء أرضية تظهر فى خيال الشمس إذا وقع شعاعها فى كوة[4] ﴿وتكون الجبال كالعهن ﴾، العهن فى اللغة: الصوف المصبوغ ألوانا.. وإنما وقع التشبيه به لأن الجبال (جدد بيض وحمر مختلف ألوانها، وغرابيب سود.. فإذا بست وطيّرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.. والنفش فى الصوف. العهن: هو فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض واعلم أن الله تعالى .. أخبر أن الجبال مختلفة الألوان.. ثم إنه سبحانه وتعالى يفرق أجزاءه، ويزيل عنها التأليف والتركيب فصيّر ذلك مشابهة للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً.

وهنا مسائل:

الأولى: إنما ضم بين حال الناس، وحال الجبال، كأنه تعالى.. نبه على أن تأثير تلك القرعة - القارعة - فى الجبال، هو أنها صارت كالعهن المنفوش.. فكيف يكون

(١) سورة المزمل: آية «١٤».
(٢) سورة النمل: آية «٨٨».
(٣) سورة النبأ: آية «٢٠».
(٤) تفسير الرازى: ٢٩/١٤٢.

حال الناس عند سماعها.. (كالفراش المبثوث): المفرّق.. ثم تصير - الجبال - كالعهن المنفوش،. وهى أجزاء كالذر[1]واعلم أن الله تعالى، ذكر فى مواضع كثيرة من كتابه أحوال الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله.. وهو أن أول أحوالها الاندكاك، وهو قوله تعالى: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾.

الحالة الثانية: أن تصير (كالعهن) و(كالعهن المنفوش).

الحالة الثالثة: أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله تعالى: ﴿إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بساً. فكانت هباء منبثاً﴾.

الحالة الرابعة: أن تنبس، لأنها مع الأحوال المتقدمة تارة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فقل ينسفها ربى نسفا﴾.

الحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيّرها شعاعاً فى الهواء كأنها غبار.. فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساما جامدة، وهى فى الحقيقة مارة، إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح صيرّها مندكة متفتتة، وهى قوله تعالى: ﴿تمر مرّ السحاب﴾.. ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره .

الحالة السادسة: أن تصير - الجبال - سراباً، بمعنى لا شىء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بعد، إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجد شيئا - والله تعالى أعلم[2].

هذا ما استطعنا أن نوجزه مما ورد عن بعض الآيات القرآنية السابقة وفيه كانت الإشارات عن جزء من أجزاء هذا العالم المركب، وهو الجبال، التى تشترك مع الجرم الإنسانى (جرم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام) فى مادته الطينية .. وقد رأينا فى الاستعراض الموجز - الآنف ذكره - إشارات كثيرة، توضح لنا ماهية هذه الطينة

---

(١) تفسير الرازى: ٧١ - ٣٢/٧٢.

(٢) تفسير الرازى: ١١ - ٣١/١٢.

وعنصرها عندما تنعدم وتتحول إلى طبيعتها التى تحولت عنها، فالجبال تنقلب ذرات وجسيمات ضوئية، ثم تنعدم سرابا، لا تقع منه ولا فيه ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وكذلك الإنسان تعود طينته إلى طبيعتها، ولكن ليس كالجبال لا هدف من ورائه، بل وراءه حساب وجزاء، ولذلك نجد هذا المفسر ربط بين الإنسان والجبال فى أن كلا منهما يعود إلى هذه الحالة، وذلك لأن الآية القرآنية هى التى ربطت أصلاً بينهما: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ .. وذلك ما أشار إليه فى الحالة الأولى السابقة،.. وكما أن الجبال أجزاء مركبة تفككت وعادت إلى حالتها الأولى السابقة.. وكما أن الجبال أجزاء مركبة تفككت وعادت إلى حالتها الأولى.. كذلك الإنسان هو فى أصله وطبيعته أجزاء من ذرة مركبة وبالموت تفككت وتعود طينته إلى أصل طبيعتها وحالتها النورانية الأولى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ ..أى كما قالوا: (تعودون إلى ذرات أصولكم عند الإيجاد الطينى): ﴿ذرية بعضها من بعض﴾.. إذن خلقتنا الطينية الأولى كانت نورانية متعنصرة، لذلك قالوا عنها(المرحلة الهيولية).. ورأينا فى كل ما سبق فى هذا الفصل، قضية الهيولية، وما الذى تعنيه.. ولو عدنا قليلا لما قاله المفسر السابق عن قوله تعالى: (كالعهن المنفوش): العهن فى اللغة: هو الصوف المنفوش ذو الألوان المختلفة، والنفش فى الصوف: هو فكه حتى ينتفش بعضه عن بعض ثم يتقطع ويصير أجزاء صغيرة تطير شعاعا فى الهواء، وهو الهباء.. إلخ.. وهذا الشأن فى أمر هذه الطينة الآدمية وعالمها وما أشير به عنها فى كتب التفسير نجد العلم الحديث فى أيامنا يشير بمثل ذلك عن أمر هذه الطينة ولا يبعد عن مفاهيمها اللهم إلا فى اختلاف الألفاظ وصياغة تركيبها.. فماذا قال هذا العلم عن هذه الطينة .

يقول علماء العلم الحديث عن ذلك : (إن كلمة (الطين) لا تعنى بالضرورة، ذلك الطين الذى نشاهده على ضفاف الأنهار والقنوات، ولكن ربما كان القصد منه، المادة العضوية التى اتخذت من ذرات الكربون هيكلا لها ثم أضيفت إليه ذرات عناصر أخرى فتنقلب إلى جزيئات غروية الشكل هائمة فى الماء، وهى ما أطلق عليها العلماء تعبير: (الحساء العضوى).

وهذه الجزيئات العضوية الغروية الطينية الشكل كانت أساس مادة (البروتوبلازم) الذى يصنع بنيان الخلايا الحسية.

وكما هو معروف عن مادة البروتوبلازم أنها إذا تفككت فإن جزيئاتها تظل معلقة فى الماء، ولكل جزىء منها شحنته الكهربية.. وبسبب تلك الشحنات يمكن لتلك الجزيئات أن تتلاصق أو تتنافر بعيداً عن بعضها

وهذه الخاصية الغروية للمادة الطينية العضوية هى تفسير لوصف القرآن الكريم للطين بأنه (طين لازب) وهذا الطين اللازب باستقباله لدفعة الحياة التى انبثقت عن تفتح الروح فيها، تحول إلى الخلايا الحية.. بداية جميع الكائنات النباتية والحيوانية، والإنسانية)[1].

هذا بعض مما قاله العلم الحديث من بعض صفات تلك الطينة، وفيه ترى أنها وإن كانت طيناً إلا أنها جعل لها الخالق سبحانه وتعالى.. صفة ذات طابع خاص وإن منها كان جميع هذا الكون النباتى والحيوانى والإنسانى، والجماد.. ونلاحظ أن تركيز النص على قضية الذرة والجزيئات، وما تحمله لفظة الذرة من قضايا الطاقة وخصائصها.. لهذا ندرك أن كل إنسان له عالمه وخصائصه، لتتجلى لنا عظمة القدرة الإلهية الخالقة التى قالت لنا: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ إذن فالذرة هى شىء أساسى فينا ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ ومن هنا يتضح أنا حينما كنا فى الجنة مع أبينا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو هو وحده ونحن مدخلون ـ مدمجون ـ فى صلبه ، كنا نورانيين ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وإن كنا أرواحا فى أشباح، عندما استنسخنا منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الملأ الأعلى، على الوجه الثانى فى تفسير الآية.. فالروح وكونها نورانية أمر منته.

أما هذه الأشباح ـ الأجساد ـ فبناءً على بعض ما سقناه فى أمر الطينة فهو يؤكد لنا ماهية هذه الأشباح.. ورأينا أنها شىء نورانى غير كثيف.. ومما يدل على

---

(١) الإنسان وتطور العلم صـ١٢١.

أمر هذه النورانية لتلك الأشباح، أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما كان في الجنة كان نورانيا، ولما وسوس له إبليس ـ نعوذ بالله تعالى منه ـ لأن يأكل من تلك الشجرة المنهى عن أكلها: ﴿بدت لهما سوءاتهما﴾، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: (.. تقلص عنهما النور الذى كان لباسهما فصار أظفارا فى الأيدى والأرجل.. أى كان عليهما نور، لا ترى عوراتهما فزال ذلك النور عنهما)[1].

وهنا تتضح لنا بعض إشارات الآية السابقة التى تحدثنا عنها فى المرحلة الأولى وهى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ أى أن جزيئات ذراتنا تم إيداعها فى ذرة أبينا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفى داخل تلك الذرة التى جعلت فيما بعد ـ معملا تم فيه تجميع نبضات كل الذرات الإنسانية لتشكل كل ذرة داخل قالبها المختص داخل المعمل الآخر الموجود داخل المعمل الأول، والذى سوف يستنسخ ويستخرج فيما بعد ـ وهو الجرم الحوائى ـ أمنا حواء ـ عليها الصلاة والسلام ـ لتصبح ذرة من جنس الذرة التى تكون منها هذا المعمل الكمبيوترى، لتتضح لنا إشارة قوله تعالى: ﴿هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً﴾[2].. إذن فجرم آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ جعل من ذرة هذا العنصر الترابى ليتم بداخله تحويل نبضات صورنا النورانية البحتة إلى طبيعة هذا العنصر الهيولى القابل للتحولات المتعاكسة، وقد أشرنا إلى العملية التى كان وضع صورنا النورانية فى ذرة هذا الجرم الطينى الآدمى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما تحدثنا عن ذلك فى المرحلة الأولى ـ إن كنا نذكر ذلك ـ عندما أوردنا الحديث الذى رواه أبو هريرة ـ والذى منه حينما قبض الحق جل سناه يديه وقال لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختر ، فاختار آدم ـ عليه السلام ـ يمين ربى وكلتا يديه يمين ، فرأى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيها صورته وجميع صور بنيه، إلخ.. وقد قلنا أن الحق جل سناه حينما جيء إليه بذرات أجرام بنى آدم الترابية ـ عجنها بيديه ـ كما فى الحديث... إلخ.

(١) تفسير جامع أحكام القرآن للقرطبى: ١٧٨ ـ ٧/١٨٠.
(٢) سورة الأنعام: آية «٢».

ليتضح لنا من حكم هذا العجن والتشريف لهذا المخلوق - العملية التى تم بها وضع هذه الصور فى هذه المزجة الطينية.. وأظن أن هذا هو ما يشير إليه ما ورد من أحاديث وأقوال لبعض الصحابة والتابعين لهم - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - فمن ذلك رأينا أنهم قالوا: (.. إن المعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين «ولقد خلقناكم» أى خلقنا الأرواح أولا، ثم صورنا الأشباح آخرا..).. وليرجع إليه من أراد فى مكانه.. ثم إنه بعد هذا التجميع داخل المعمل الآدمى، تم الاستنساخ الذى أشارت إليه آية الذر صراحة : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ فقد قالوا إن الله تعالى: أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم... وروى عن الإمام الترمذى أنه قال: (لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة)[1] .. إذن فـالأرواح مع الأشباح تكون الأنفس، ولذلك قال المفسرون عن قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ أى أنها - الأنفس - قرنت بأجسادها وبالتأمل فيما ورد حول آية الذر نلاحظ أنها قد تجمل فى ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: (أنه سبحانه وتعالى - أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد - وأنه تعالى جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به - سبحانه وتعالى عما يصفون).وقلنا إن هذا الوجه يتضح منه أنه كان هو المقصود به الاستنساخ الأول من (أم الكتاب).. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .

الوجه الثانى: أنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .. وأن هذا الوجه ، هو الوجه النورانى المتعنصر الذى أسكن الجنة.. إلخ.

الوجه الثالث: وهو ما أشاروا إليه بقولهم أنه تعالى: (أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض.. وهذا الوجه هو ما نرى أنه هو النسخة المقصودة للطبيعة الدنيوية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد نعود لتوضيح هذا الوجه بعد إتمام إشارة الوجه الثانى - بمشيئة الله تعالى - أما الوجه

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ٣١٤ - ٧/٣١٧.

الأول فقد مضت إشاراته عند الحديث عن مرحلة الخلق والاستنساخ النورانى الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهذه الوجوه الاستنساخية نجد أنها تؤكد لنا كثيرا من حقائق أمر مراحل الخلق لهذا الجنس الإنسانى حسب ما سبق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وتؤكد لنا أيضا أن الاستنساخ الأول كان من (أم الكتاب) .

وقفة أخرى مع آية الذر
وشىء من خلاف ما جرى حولها:

أما الوجهان الآخران، فقد كان الثانى من آدم نفسه - عليه الصلاة والسلام - والآخر يشير إلى أنه كان من بينه بعضهم من بعض، وهو ما سيكونون عليه فى الدنيا بعد تحولهم - بالإهباط - إلى طبيعتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل يشير إلى أن كل ذرة من تلك الذرات - ذرات الجنس الإنسانى - قد عمل بها ما عمل بآدم نفسه، ولكن بصورة خاصة،أى أنه صور وأدخل فى ذرة ما سيكون إخراجه من خلاله، وهكذا إلى نهاية الأمر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بمعنى أن كلا منها هو صورة كمبيوترية مصغرة لأبينا آدم - عليه الصلاة والسلام - ولكنها خاصة به هو وذريته الذين سوف يخرجون بعضهم من بعض ليصدق قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾.. إلخ. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهنا تحتل أول نقطة خلافية من نقاط الخلاف التى جرت بين العلماء حول هذه الآية.. ثم إن استنساخ الوجهين الآخرين فى وجه واحد يعطينا دلالات كثيرة وعظيمة.. منها قضية ما أشار إليه ﷺ فى قوله : (عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يعاد تركيبه..) إذ أنه يشير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إلى أنه الذرة التى جرى استنساخها أولاً من أبينا آدم عليه الصلاة والسلام - هى نفسها عجب الذنب، وهى الذرة التى بها شفرة جزيئى النشأتين الأخيرتين، النشأة الدنيوية والنشأة الأخروية.. ثم إن آية الذر هذه قد وقف عندها

العلماء طويلا ودار حولها كثير من النقاش والاستفهامات، وذلك حينما حاول بعض أولئك العلماء أن يحكموا العقل الإنسانى المحدود الأفق عند بعض الإشارات التى وردت حولها.. ومعلوم أن تحكيم العقل الإنسانى المخلوق القاصر فى نصوص القرآن والأحاديث النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم - يكون تحكيماً خطأ إن لم يكن العقل مستندا إلى ما يؤيد أحكامه، إلى نصوص أخرى تفتح له الخطوط التى قد توصله إلى حقائق بعض ما يقوله، أو أنه يترك ذلك للزمن الذى قد يبلج الله تعالى فيه سر بعض ما انغلق عليه فى تلك الفترة لكونه ليس مختصا بها، بل هو مختص بزمن ومكان ما جعله لانبلاج سر إعجاز ما حار حوله عقله ومن ذلك ما سوف نعرفه مما دار بين أولئك العلماء وكيف أن فى زمننا قد يكون انبلج بعض أسرار تلك المغاليق والبقية تبقى لأزمانها التى أرادها الله سبحانه وتعالى فى وقتها - بعونه تعالى - فمن ذلك أنهم قالوا: إن قوله تعالى: ﴿من بنى آدم من ظهورهم..﴾ لا شك أن قوله ﴿ من ظهورهم﴾ بدل من قوله (من بنى آدم) فيكون المعنى: (وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم) وعلى هذا التقدير، فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئا.. وأنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئا من الذرية لما قال (من ظهورهم.. بل كان يجب أن يقول: من ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد)، وكذلك قوله (ذريتهم) لو كان آدم لقال (ذريته).

٢ - أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا : ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ وهذا الكلام يليق بأولاد آدم لأنه عليه الصلاة والسلام ما كان مشركا.

٣ - أن أخذ الميثاق لايمكن إلا من عاقل فلو أخذ الله تعالى الميثاق من أولئك لكانوا عقلاء، ولو كانوا عقلاء وأعطوا ذلك الميثاق حال عقلهم لوجب أن يتذكروا فى هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم فى هذا العالم، لأن الإنسان إذا وقعت له وقعة عظيمة مهيبة، فإنه لايجوز مع كونه عاقلاً أن ينساها نسياناً كلياً لايتذكر منه شيئاً، لا بالقليل، ولا بالكثير.

وبهذا الدليل يظل القول بالتناسخ، فإنا نقول: لو كانت أرواحنا قد حصلت قبل هذه الأجساد فى أجساد أخرى لوجب أن نتذكر الآن أنا كنا قبل هذا الجسد فى

جسد آخر وحيث إننا لم نتذكر ذلك كان القول بالتناسخ باطلاً، فإذا كان اعتمادنا فى إبطال التناسخ إلا على هذا الدليل - وهذاالدليل بعينه قائم فى هذه المسألة - وجب القول بمقتضاه، فلو جاز أن يقال أنا فى وقت الميثاق أعطينا العهد والميثاق.. مع أنّا فى هذا الوقت لا نتذكر شيئا منه.. فلم لايجوز أن يقال إنا كنا قبل هذا البدن فى بدن آخر مع أنا فى هذا البدن لانتذكر شيئا من تلك الأحوال.

٤ - أن جميع الخلق الذين خلقهم الله تعالى من أولاد آدم عدد عظيم وكثير، فالمجموع الحاصل من تلك الذرات يبلغ مبلغاً عظيماً، فى الحجمية والمقدار.. وصلب آدم على صغره لا يبعد أن يتسع لذلك المجموع.

٥ - إن البنية شرط لحصول الحياة والعقل والفهم، إذ لو لم يكن كذلك، لم يبعد فى كل ذرة من ذرات الهباء أن يكون عاقلاً فاهماً مصنفاً للتصانيف الكثيرة فى العلوم الدقيقة، وفتح هذا الباب يفضى إلى التزام الجهالات.. وإذا ثبت أن البنية شرط لحصول الحياة، فكل واحد من تلك الذرات لايمكن أن يكون عالماً عاقلاً فاهماً، إلا إذا حصلت له قدرة من البنية واللحمية والدمية وإذا كان كذلك فمجموع أولئك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى آخر قيام القيامة لاتحويهم عرصة الدنيا فكيف يمكن أن يقال أنهم بأسرهم حصلوا دفعة واحدة فى صلب آدم - عليه الصلاة والسلام .. قالوا إن هذا الميثاق إما أن يكون قد أخذه الله تعالى منهم فى ذلك الوقت، أو ليصير حجة عليهم عند دخولهم فى دار الدنيا. والأول باطل، لانعقاد الإجماع على أن بسبب ذلك القدر من الميثاق لايصيرون مستحقين للثواب والعقاب، والمدح والذم.. ولايجوز أن يكون المطلوب منه أن يصير ذلك حجة عليهم عند دخولهم فى دار الدنيا، لأنهم لما لم يذكروا ذلك فى الدنيا، فكيف يصير ذلك حجة عليهم فى التمسك بالإيمان.

٦ - إن أولئك الذر فى ذلك إما أن يكونوا كاملى العقول والقدر، أو ما كانوا ذلك.. فإن كان الأول: كانوا مكلفين لا محالة، وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال، ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم فى ذلك الوقت عن أحوالهم فى هذه الحياة فى

الدنيا.. فلو افتقر التكليف فى الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف فى وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر، ولزم التسلسل، وهو محال.. وأما الثانى وهو أن يقال أنهم فى وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملى العقول ولا كاملى القدر، فحينئذ يمتنع، فوجب الخطاب والتكليف.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق﴾.. فلو كانت تلك الذرات عقلاء فاهمين كاملين، لكانوا موجودين قبل هذا الماء الدافق، ولا معنى للإنسان إلا ذلك الشىء، فحينئذ لايكون الإنسان مخلوقا من الماء الدافق وذلك رداً لنص القرآن.. فإن قالوا: لم لايجوز أن يقال أنه تعالى خلقه كامل العقل والفهم والقدرة عند الميثاق، ثم أزال عنه عقله وفهمه وقدرته.. ثم إنه خلقه مرة أخرى فى رحم الأم وأخرجه إلى هذه الحياة.. قلنا: هذا باطل لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان خلقه من نطفة خلقا على سبيل الابتداء.. بل يجب أن يكون خلقاً على سبيل الإعادة وأجمع المسلمون على أن خلقه من نطفة هو الخلق المبتدأ فدل هذا على أن ما ذكرتموه باطل.

٨ ـ ثم إن تلك الذرات أن يقال: هى عين هؤلاء الناس أو غيرهم.. والقول الثانى باطل بالإجماع.. بقى القول الأول فنقول: إما أن يقال أنهم بقوا فهماء عقلاء قادرين حال ما كانوا نطفة، علقة، مضغة.. أو ما بقوا كذلك، والأول باطل ببديهة العقل.. والثانى: يقتضى أن يقال: الإنسان حصل له الحياة أربع مرات. أولها وقت الميثاق.. وثانيها فى الدنيا.. وثالثها فى القبر.. ورابعها فى القيامة.. وأنه حصل له الموت ثلاث مرات: موت بعد الحياة الحاصلة فى الميثاق الأول.. وموت فى الدنيا.. وموت فى القبر.. وهذا العدد مخالف للعدد المذكور فى قوله تعالى: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ .. فلو كان القول بهذا الذر صحيحاً لكان ذلك الذر هو الإنسان، لأنه هو المكلف المخاطب المثاب المعاقب، وذلك باطل، لأن ذلك الذر غير مخلوق من النطفة، والعلقة، والمضغة، ونص

الكتاب دليل على أن الإنسان مخلوق من النطفة والعلقة والمضغة، وهوقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾.. وقوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره، من أى شىء خلقه، من نطفة خلقه فقدره﴾.. هذه جملة من الوجوه المذكورة فى بيان أن هذا القول ضعيف.. أى تفسير آية الذر بما قاله المفسرون وأهل الحديث[1].

هذه بعض من الوجوه اعتبرت أن ما قاله أهل التفسير إنما هى تفسيرات ضعيفة، ولا يمكن القول بها أو الرجوع إليها.. وإذا نحن ركزنا على مجمل ما استطعنا أن نأخذه من أقوالهم تلك، فإننا سنلاحظ أنها كلها ترتكز على ثلاثة محاور، والبقية هى تفسير وتوضيح لهذه المحاور.. فمثلا:

المحور الأول: يركز على نفى أن يكون لآدم صلة بهذه الآية، وإنما المقصود بنية فقط، لأن الآية لم تقل من ظهره، وإنما قالت: (من ظهور بنى آدم).. ليصلوا من خلال هذه المقدمة الصغيرة لنفى واستبعاد قضايا ترتبط بذلك.. منها نفى قضية الاستنساخ، إذ بإثبات الأخذ من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - يثبت ذلك.. لذلك بادروا لنفى تفسير الذرة بهذا المفهوم عند أهل التفسير والحديث، من أجل ذلك استعظموا أن يكون الجميع قد وضعوا فى ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - من هنا كان تركيزهم على قضية نفى الذرة لتكون هى:

المحور الثانى: الذى حاولوا استبعاده ببعض النقاط التى أشاروا بها - كما رأينا - ليصلوا من نفى هذا المحور للمحور الرئيسى لهذه المحاور جميعاً، وهو نفى واستبعاد قضية الميثاق والعهد الذى أشارت إليه الآية الكريمة نفسها.

ونمضى معهم فيما قالوا نقطة نقطة.. وإن كان جل ما سبق قوله من أول هذا البحث، إلى هنا وما بعده، كله يرد على أقوالهم هذه، ولكن لايضر إن نحن استعرضنا بعض الأشياء فى الرد على ما قالوا.

ولنبدأ من محور الذرة، إذ هو نقطة ارتكاز فى الحوار.

---

(١) تفسير الرازى: ٤٧ - ١٥/٥٠.

أولاً : أن الخطأ وقع من مفهوم انطلاقهم فى كل ما قالوا .. وذلك أنهم ـ كما قلنا ـ جعلوا العقل حكماً فى أخذهم وردهم فى قضايا نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ـ على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ فهم قد جعلوا إعجاز القرآن والحديث محدود الزمن والمكان، لذلك كان علاجهم لهذا الموضوع وغيره قاصرا .. فالذرة وإن كانوا لديهم علم وإلمام كبير بعلمها فى زمنهم، إلا أنهم أخطأوا حينما اعتبروا علمهم بها هو غاية علومها، فلو أنهم عاشوا لزمننا هذا ـ مثلاً ـ لسفهوا أحلامهم بما قالوا فى زمنهم عنها .. فقد رأينا ـ اليوم أن العلم يقول: إن الجسم هو من أجزاء الذرة، ويحوى بداخله أجزاء، وإن جزيئات من هذا الجزىء، يمكن أن يكون بنيان ذرة جديدة إذا انفصلت عن أجزاء هذا الجسيم، كما رأينا ذلك فيما قاله علماء الفيزياء ـ سابقاً ـ إذن فالذرة هى لوحدها عالم يحوى بداخله عوالم.. وعوالم.. فالعلم اليوم يقول أن بالإمكان أن يدخل ويبرمج فى داخل جزىء من أجزاء هذه الذرة فقط كل علوم الكرة الأرضية من يوم ما وجدت إلى يومنا هذا وبعده، كما سبق أن رأينا ما نقلناه حول ذلك من مجلة الشرق الأوسط ـ إن ما وصل إليه العلم التجريبى فى أيامنا قد يفوق كل الخيال.. فكيف يستبعد أن يدخل جميع ذرات الجنس الإنسانى فى ذرة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا علمنا أن المدخل ـ بكسر الخاء ـ هو الإله الخالق المبدع جلت قدرته ـ سبحانه .. إذا كان المخلوق لهذا الإله ـ سبحانه ـ يقول عن إدخال ما سبق قوله.. فكيف بالخالق سبحانه وتعالى.. إذن فاستعظامهم لأن يكون الجميع قد وجد فى ظهر آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان استعظاما ساذجا وضعيفا .. لأنهم أخطأوا حقائق علم هذه الذرة... وليس لأنهم لم يكونوا ذوى علم بها .. لا .. فالذرة كانت ذات شأن علمى كبير فى زمنهم.. ولكن إقحام العقل فى كل شىء قد يعمى صاحبه عن حقائق الحق وهى أمامه.. ولذلك نجد من بعض حكماء الإسلام الذين يستخدمون العقل فى حدوده التى منحه الله تعالى، إياها .. ومن خلال ما وصل إليه علم الذرة فى زمنهم.. يردون على أولئك العقلانيين فيما استعظموه بقولهم.. إن مجموع الذرات ـ التى قلتم ـ يمتنع حصولها بأسرها فى ظهر آدم ـ عليه الصلاة والسلام ... قلنا : عندنا البنية ليست شرطاً لحصول الحياة فالجوهر.. قابل للحياة والعقل.. فإذا جعلنا كل

واحد من تلك الذرات جوهرا فردا .. ما الذى يمنعه من الحياة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فلم قلتم إن ظهر آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لايتسع لمجموعها... إذن فقضية الاستنساخ ـ لا التناسخ ـ جائز الحصول ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وشىء تشير إليه الآية الكريمة ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة ـ وتؤكده الأحاديث الشريفة ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .. لذلك رأينا المفسرين وأهل الحديث، يرون ثلاثة أوجه لهذا الأخذ ـ الاستنساخ من آدم عليه الصلاة والسلام ـ وقد سبق إيرادها .. إذن فالاستنساخ لم يكن مرة واحدة من آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل كان كما يقولون أمره فى الجنة، كما هو الحديث المروى عن الإمام على رضى الله تعالى عنه وأرضاه ـ أرواح فى أشباح ـ أى بعد الخلق الطينى هناك الهيولى ـ والمرة الثانية، وهو ما أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم..﴾ وهو ما قالوا عنه إنه كان عند الإهباط من السماء الدنيا إلى الأرض.. وقبل ذلك عندما كانوا أرواحاً ـ خلق الله تعالى الأرواح قبل خلق الأجساد بألفى عام. ومن هنا جاءت الأقوال الكثيرة عن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ـ وكذلك عن التابعين رضى الله تعالى عنهم ـ عن تعدد أخذ مرات الميثاق، واختلافهم حوله.. وهذا الاستنساخ لا يرفضه العقل ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ أو يأباه، بل إن ما جد من علوم الذرة وحقائقها يفسر لنا ذلك ويوضحه.. فالعلم اليوم يقول ذلك، وهو معلوم فى عالم البرمجة وقضايا الرقائق والديسكات فى عالم الكمبيوترات، وكلها أساسها عالم الذرة وجزيئاتها.. أما قضية إدخال ذلك فى صلب آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأمره بناء على ما علمنا، فى عالمنا المادى أنه شىء واقع.. فما بالك إذا كان أمر ذلك كله يرتبط بالخالق جلت قدرته.

الاستنساخ والشريط الوراثى وعالم المضغة

وبناء على ما جاءت به الأخبار التى أوردناها سابقاً، فالعقل لا يرفض ذلك، فقد رأينا أن الأرواح هى شىء نورانى.. ولما خلق آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد

اصطفائه من بين تلك الأرواح طينا أدخلت فيه تلك الأرواح وقد رأينا أن طينيته - عليه الصلاة والسلام - ما حقيقتها عندما تكوّن منها جرمه؟ من أنها فى الأصل كانت ذرة نورانية - طاقة، إذن فعقليا، عملية إدخال تلك الأرواح فى صلبه - عليه الصلاة والسلام - أمرها هين، فكيف إذا كان ذلك كله من قبل الصانع القادر - سبحانه وتعالى - وإذا كنا نؤمن فى أيامنا هذه بتحويل كل شىء إلى نبضات كهربائية - كما يقولون - وإدخالها فى جزىء من جزىء من ذرة من ذرات السيليكون ،أفلا يدلنا ذلك على عظمة الصانع القادر فيما أخبرنا به من إدخال فى صلب أبينا آدم من ذرية - عليه الصلاة والسلام - أما ما الذى أدخل فى هذا الصلب، فأظن أنه هو الأجساد، بعد أن تم تحويلها - بإذن الله تعالى وأمره - إلى طبيعة تتلاءم وأمر هذا الإدخال والاستنساخ، وهو كما سبق أن علمنا أن الأرواح فى تلك الفترة - بعد التسوية وأخذ الميثاق والعرضة التعليمية - كانت منفوخة فى أجساد هيولية، والهيولية رأينا أن طبيعتها نورانية، إذن فأجساد الأرواح النورانية - الهيولية - هى التى تم إدخالها فى ذرة أبينا آدم النورانية.. وهذا الأمر الذى سبق ليس غريباً فى عالمنا الدنيوى المشاهد، بل نجد أن علماء هذا العالم المشاهد يقولون لنا ما يوضحون به حقيقة هذا الإدخال فى صلب آدم - عليه الصلاة والسلام - حقيقة حصوله بأمر الله تعالى - يقول الدكتور مصطفى محمود حول ذلك ما نحاول أن نلخص منه التالى.. يقول: «ومن الحاجات العجيبة - أيضاً - فى استقرائنا للكون وعجائبه، وللإنسان والظواهر الغريبة فيه.. مسألة الوراثة.. والوراثة كيف يرث الابن شيئا من أبيه وأمه وعرفنا فى الفترة الأخيرة أن هناك شيئاً اسمه «الشريط الوراثى».. وهذا الشريط الوراثى هو كتاب يحتوى على خمسة ملايين صفحة، ملىء بلغة شفرية بدل الحروف: ألف، باء، جيم، تبقى فيه جزيئات أربعة جزيئات، فتعمل لها تباديل وتوافيق[1]. مثل ما أقول - مثلا «رجع» ممكن تبقى «جرع»، وتبقى «عرج» نفس الحروف بالتباديل والتوافيق، تعطينى نفس المعانى، أو «علم» يمكن أن تكون «عمل»، وتكون «لمع».. ونفس

---

(١) هو ما يسمى فى عالم اللغة العربية بباب «دوران المادة حول نفسها».

الحكاية «كتب».. وهذا الكتاب الشفرى من أربعة حروف، تتبدل فى مجموعات متعددة، لدرجة أنه لدينا ثلاثة آلاف مليون جزىء بالشكل، وبالتبادل والتوافق تعطينا مليارات من المعلومات فى هذا الشريط الوراثى، الكتاب الذى هو عبارة عن كتاب من خمسة ملايين صفحة، وهذه المعلومات الموجودة فى هذا الشريط الوراثى فيها تفاصيل عن المولود، لون عينيه، شعره طويل أم قصير، نحيل أم سمين، الأمراض التى يتعرض لها وما هى مقاومته. وما هى نقاط الضعف عنده.. كل التفاصيل الخاصة به.، معلومات تفصيلية من دماء هذا الكائن، بناء الفطيم، والبروتونات والكبد، عبارة عن لوح محفوظ صغير لا نراه بالعين المجردة وبالميكروسكوبات يمكن أن ترى.. ولما يوجد الكتاب، لابد من وجود كاتب.. فما بالك فى هذا الكتاب الذى يحتوى على خمسة ملايين صفحة، وملىء بالحكمة والتاريخ لهذا النبى آدم بتفاصيله، ولون عينيه وطوله وعرضه، وصحته ومرضه لدرجة أننا نفهم أنه سيموت بماذا، كل هذا فى الكتاب الصغير الشفرى الموجود فى حاجة اسمها الشريط الوراثى الذى لا يرى بالعين.. والذى لو جمعت كل الأشرطة الوراثية لكل البشر من أول آدم - عليه الصلاة والسلام - حتى الآن لا يملأ الفنجان الصغير.. نحن أمام اللوح المحفوظ الشريط الوراثى هو إحدى الشهادات العصرية بعظمة الخالق، وبإعجازه، وبحكمته، لأن الله - سبحانه وتعالى - هو قدر، وكتاب القدر اسمه - اليوم - الشريط الوراثى وهو كله خاص بالبدن وهو شريط خاص بالتفاصيل، بدمائك وتركيبك(١).

هذا بعض مما يقوله العلم اليوم، وفيه ترى مدى تقبل العقل البشرى السليم لما قاله القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، عن الإنسان فى تلك الآية عن الاستنساخ - الإدخال والإخراج - وكونه أمرا حقيقيا فهذا الشريط الوراثى يثبت ذلك، وعلمياً من أن الجميع قد أدخل فى صلب أبينا آدم - عليه الصلاة والسلام - كيف لا، وها هو العلم اليوم يقول: إنا لو جمعنا كل الأشرطة الوراثية البشرية منذ آدم - عليه الصلاة

(١) مقتطفات من محاضرة جرت فى نادى مكة الأدبى، مقالاً من مجلة «اليقظة» عدد ١٣٥٢ تاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٩٥م صـ٦٨ - ٦٩.

والسلام - إلى يومنا هذا لما ملأت فنجانا.. ثم إن هذا الشريط الوراثى، هو كله خاص بأمر البدن - البنية التى يقولون عنها - ومادة تركيبه - إذن فهذا البدن الذى أنا فيه اليوم هو ذلك البدن الذى كنت فيه عندما استنسخت من صلب آدم - عليه الصلاة والسلام - وأخذ منى الميثاق، وهو البدن الذى سيعاد وضعه فى الأرض وإخراجه منها «تارة أخرى» بصفة أخرى عند البعث - بأمر الله تعالى وإذنه - كما سيأتى تفصيل ذلك - بإذن الله تعالى - وهو البدن الذى كنت فيه قبل أن أهبط إلى الأرض. وهذه الحقيقة القرآنية هى ما أشار إليها حديث رسول الله ﷺ إشارة صريحة جلية واضحة، لا تحتاج إلى أى جدل أو مراء، وسوف نلاحظ أن هذا يشير إلى كل ما جاء فى قضية هذا الشريط الوراثى، وسنجد فيه - أيضا - بإذن الله تعالى - الإشارة الصريحة إلى قضية الاستنساخ، لنرى قضية ما قالوه عن أمر البنية وكونه شرطاً للحياة.. إنه أمر موجود لهذا الإنسان عند أخذ الميثاق، وإشارات أخرى كثيرة وعظيمة فى هذا الحديث، وإن تعددت رواياته، فتعددها كان لأمر عظيم، فقد تشير رواية بإشارة لم ترد فى الرواية السابقة لها وهكذا.. فماذا قال الحديث.. جاء فى كتب التفاسير وكتب الحديث أنه قد روى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «إذا استقرت النطفة فى الرحم بعث الله تعالى - سبحانه - ملكا أخذها بكفه، وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة.. فإن قال: غير مخلقة.. لم تكن نسمة ومجتها الأرحام دما.. وإن قال: مخلقة. قال: يا رب فما صفتها. أى رب أذكر أم أنثى؟ أى رب شقى أم سعيد؟ ما الأجل ما الأثر؟ ما الرزق؟ وبأى أرض تموت؟ فيقول الله سبحانه وتعالى: انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النسخة، فينطلق الملك فينسخها، فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها»[1]. وفى رواية أخرى تذكر نفس الحديث وتزيد: «.. فيذهب فيجد النطفة فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول الله. من رازقك؟ فتقول الله. فتخلق، فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها.. فإذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك المكان.. ويأخذ التراب الذى يدفن فى بقعته ويعجن به نطفته» أخرجه الترمذى الحكيم، وأبوعبد الله فى نوادر الأصول[2].

(١) تفسير الرازى: ٢٤/٨.

(٢) التذكرة للقرطبى: ١/١٠٧.

هاتان روايتان من روايات الحديث المتعددة وفيهما ترى كامل قضية الشريط الوراثى، وقضية الاستنساخ. وفيه - أيضاً - أن الملك الموكل ينسخ هذا الشريط الوراثى من «أم الكتاب».. وهنا قد يسأل سائل ويقول: إن نص الحديث يشير إلى أن هذا الاستنساخ كان من «أم الكتاب» ولم يقل من آدم - عليه الصلاة والسلام - فكيف توفق بين ما فى الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وبين ما أشرت إليه من أن الاستنساخ لهذا الشريط الوراثى كان من آدم عليه الصلاة والسلام - وفى الرد نقول بعون الله تعالى: إن ما فى هذا السؤال إنما هو حجة لنا لا علينا.. فهذا الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - يوضح لنا إجابة ما جاء السؤال لمثله، وإن رأينا أن ذلك يحتاج إلى توضيح آخر، وضحنا بما يوفقنا الله تعالى له.. رأينا الشيخ يقول سابقا عن آية سورة الأنعام (٥٩) ﴿وعنده مفاتيح الغيب إلا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾، يقول: «اعلم أن الغيب مراتب أولها: غيب الغيوب، وهو علم الله تعالى المسمى بالعناية الأولى.. ثم غيب عالم الأرواح، وهو انتقاش صورة كل ما وجد، وما سيوجد من الأزل والأبد من العالم العقلى، والذى هو روح العالم المسمى بـ «أم الكتاب»، على وجه كلى. وهو القضاء السابق ثم غيب عالم القلوب.. وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلا تفصيلا علمياً كلياً وجزئياً، فى عالم النفس الكلية التى هى قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.. ثم غيب عالم الخيال، وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة فى أجرامها معينة مشخصة مقارنة لأوقاتها، على ما يقع بعينيه، وذلك العالم هو المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا، إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة.. ولوح القدر الإلهى الذى هو تفصيل قضائه، وعلم الله تعالى هو العناية الأولى وإحاطته بكل شىء سبحانه وتعالى عما يصفون..»[1].

هذا موجر ما أشار به ابن عربى - رحمه الله تعالى - حول الآية السابقة، فيه ترى أنه مستنبط من كل ما ورد عن لفظة «الغيب» «أم الكتاب» وكل ما يرتبط به،

---

(١) تفسير ابن عربى: ١/٣٧٤.

وترى أنه يشير إلى أكثر من كتاب وهو بهذا يؤكد حقيقة الاستنساخ، وأنها ليست خاصة بآدم مثلا، بل إن «أم الكتاب» نفسه، هو ماخط فيه القلم الإلهى - بأمره تعالى - علم الله تعالى ثم إنه استنسخ من هذا الكتاب مجموعة كتب مستنسخة عامة أو خاصة، ومن هذه الكتب الخاصة المستنسخة: الكتاب الخاص بعالم القلوب، وهذا الكتاب وضع فيه كل ما يخص القلوب كليا وجزئيا مفصلاً تفصيلاً علمياً.

مع قضية النفس الكلية وقلب العالم:

وهنا نقف عند كلمة «علميا» الواردة مع هذا الكتاب.. واللفظة التى وردت مع الكتاب الأم «وهى لفظة العقلى» والذى هو روح العالم إذن فـ «أم الكتاب» هو عقلى روحى، وكتاب عالم القلوب علمى، أى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه نسخة من هذا الكتاب الروحى، ولكنه بدرجة أقل روحانية - والله تعالى أعلم - ولكنه لايزال إلى العقلية الروحانية أقرب، لذلك قال: «مفصلاً تفصيلاً علمياً».. وترى أن هذا الكتاب هو كتاب خاص بعالم القلوب، الذى هو عالم النفس الكلية.. إذن فكل القلوب وما يختص بها، هى مودعة مدخلة فى هذا الكتاب، الذى هو عالم النفس الكلية وهذه النفس الكلية هى قلب العالم المسمى «باللوح المحفوظ» وهنا نقف قليلا، فكتاب عالم القلوب، هو النفس الكلية، وهى قلب العالم، وهو المسمى بـ «اللوح المحفوظ».. وبعد هذه الوقفة ننطلق مع هذا الشيخ، فى موضع آخر ومع آية أخرى، فسنراه يشير بإشارة أخرى إلى من هى هذه النفس الكلية، وقلب العالم؟ يقول هذا الشيخ حول قوله تعالى: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء،واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾[1].

يقول: ﴿الذى خلقكم من نفس واحدة..﴾ هى النفس الناطقة الكلية، التى هى قلب العالم، وهو آدم الحقيقى.

---

(١) سورة النساء: آية «١».

إذن فالنفس الكلية، قلب العالم ـ عالم القلوب ـ هو آدم، ولكن أى آدم، يجيب أنه آدم الحقيقى. وهنا قد يلتبس الأمر على الكثير منا، إذ كيف يكون هذا الكتاب، هو آدم الحقيقى وقد أشار أنه هو «اللوح المحفوظ»، ولكننا نجد الشيخ يوضح هذه الإشارة بإشارة أخرى فى حديث له حول آية أخرى، وهى قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة..﴾(١).

يقول الشيخ: «.. زوجته هى النفس، وسميت حواء لملازمتها الجسم الظلمائى، إذ الحياة هى اللون الذى يغلب عليه السواد.. كما أن القلب سمى آدم لتعلقه بالجسم دون الملازمة بالإطباع، إذ الأدمة هى السمرة، أى اللون الذى يضرب إلى السواد، ولولا تعلقه لما سمى آدم..»(٢).

إذن فالقلب هو آدم، وآدم هنا هو آدم الطينى الهيولى، وهنا بدأت الرؤية تتضح، فكتاب غيب عالم القلوب، هو النفس الكلية ـ المسمى باللوح المحفوظ ـ وقلب العالم هو آدم الحقيقى الجرم الأول الذى أدمج فيه جميع الجنس الإنسانى قبل الإهباط فى حالته النورانية الهيولية، ولذلك قال عنه «مفصلاً تفصيلاً علمياً..» إذن فآدم الحقيقى هو كتاب عالم القلوب.. وهو أيضا «اللوح المحفوظ» ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لأنه نسخة مستنسخة كاملة منه، وجميع ما فيه هو فى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذلك لأن جميع الجنس الإنسانى كاملاً ومفصلاً هو فى هذا اللوح المحفوظ، ومنه استنسخ آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى مرحلة ما قبل الإهباط، وفيه جميع هذا الجنس الإنسانى والعالم ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ لأن «الإنسان الحقيقى هو الكلمة الجامعة، ونسخة العالم، فكل ما فى العالم جزء منه، وليس الإنسان الحقيقى بجزء واحد من العالم، وكان سبب هذا الفصل، وإيجاد هذا المنفصل الأول، طلب الإنسان المشاكل فى الجنس الذى هو النوع الأخص.. وليكون ـ أيضا ـ فى عالم الأجسام، بهذا

(١) سورة البقرة: آية «٣٥».

(٢) تفسير ابن عربى: ١/٢٤٧.

الالتحام الطبيعى الإنسانى، الكامل، بالصورة التى أرادها الله تعالى ما يشبه القلم الأعلى واللوح المحفوظ الذى يعبرعنه بالعقل الأول والنفس الكل.. وإذا قلت: القلم الأعلى فتفطن للإشارة التى تتضمن الكاتب وقصد الكتابة.. فيقوم معك عندئذ معنى قول الشارع «إن الله تعالى خلق آدم على صورته..»[1].

إذن فالإنسان الحقيقى هو الكلمة الجامعة، والاسمية العمومية التى يشترك فيها كل هذا الجنس، قبل الاختلاط والامتزاج، وتكون الآدمية، ولماذا كان الحقيقى ذلك لأنه هو نسخة العالم، ولماذا ترى لأن «كل ما فى العالم جزء منه وليس الإنسان الحقيقى بجزء لواحد من العالم».. ذلك لأنه نسخة وصورة للقلم الأعلى واللوح المحفوظ. لأنه قلب العالم، والنفس الكلية، المسمى باللوح المحفوظ.. أو آدم الحقيقى.. ولذلك رأينا كبار المفسرين وعلماء الشرع الإسلامى يطلقون على آدم اسم «..العالم الصغير.. مما يؤكد حقيقة ما أشار به الشيخ ابن عربى الآنف الذكر.. لذلك قال بعض الحكماء: إن كل شىء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير، الذى هو بدن الإنسان.. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾، وقال تعالى: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾.. فهو العالم الصغير..[2].

إذن فالعالم منه أجزاؤه. وهنا قد يسأل سائل ويقول كيف هذا وهناك نصوص تشير إلى عكس ما قلت.. مثل هذه الآية التى تشير إلى أن هذا المخلوق إنما هو من الأرض خلق وهو قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.. فكيف نوفق بين ذلك؟

وفى الإجابة نقول: بعد الاستعانة بالله تعالى أولا: إن الآية تشير إلى الخلق أو النشأة الأولى.. والنشأة الأولى معلوم أن بدن الإنسان مأخوذ من عناصرها الأساسية وأهمها عنصر التراب، ولكن هنا يجب أن نقف قليلا عند بعض النقاط لربما تتضح الرؤية أكثر.. فمن ذلك أن الشيخ ابن عربى قال: «الإنسان الحقيقى..» وكأنه يرمز

(١) الفتوح المكية: ٢/٣٠٠.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ٢٠٢ ـ ٢/٢٠٣

بذلك إلى الإنسان الأول عندما استنسخ كصورة طبق الأصل، إما لأصله الذى هو موجود فى «أم الكتاب» وهو فى هذه الحالة نورانى.. وإما أن يكون شبيهاً بالقلم الأعلى واللوح المحفوظ، لأنه صورة منه - كما سبق قوله - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو أيضاً فى هذه الحالة نورانى.. وفى هذه المرحلة كانت ذرات عناصر العالم مستنسخة، إما من «أم الكتاب»، أو هو مستنسخ منه أى من «أم الكتاب»، فتكون تلك الذرات كأنها أخذت منه.. إما أنها استنسخت منه مباشرة وهو فى حالته النورانية، أو أنها أخذت من «أم الكتاب». ففى كلتا الحالتين كأنها أخذت منه، فهى إذن أجزاء منه وليس هو منها، وهناك شىء آخر إذا نحن أخذنا بظاهر الآية المشار إليها.. وهو أنه منها خلق.. فنقول: سبق أن قلنا أن المقصود بالخلق هو النشأة الأولى والنشأة - كما سبق - أنها تختلف عن الخلق، إذ هو ابتداء، وهى إنماء، لكن وردت بهذه الصيغة لكون الخلق هنا بمعنى التحويل كما يقول العلماء - وأيضاً - فالمقصود بقوله: ﴿منها خلقناكم﴾ أى أبداننا وأجسامنا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأبداننا ذراتها هى من الأرض، والأرض قلنا أنها أصلا أخذت ذراتها من «أم الكتاب» ثم أخذ منها ذرات بدنه، لكونه سوف يهبط ويتحول ويؤول إليها - بإذن الله تعالى وتوفيقه. وهنا إشارة قرآنية تشير لحقيقة ما قلناه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون﴾[1].

فهى كما ترى تشير إشارة صريحة أن السماوات والأرض أصلهما واحد وعنصرهما كذلك هو واحد.. إذن فذراتهما وما فيهما أصله واحد وإن تحول عنصر الأرض إلى صفة أخرى بعد الفتق والتباعد، أى تباعد الأرض عن السماء حسب ما أراد لها خالقها - سبحانه - بذلك التباعد من خصائص أخرى سوف يخلق بدن آدم - عليه الصلاة والسلام - عليها وبخاصتها، بعد إهباطه ليعمرها ويقود من عليها وما

(١) سورة الأنبياء: آية «٣٠».

حولها بل هناك نص نبوى شريف ـ على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ يشير فيه رسول الله ﷺ إشارة صريحة إلى أن الكل أصوله ذرات وأجزاءه هى موجودة فى «أم الكتاب» ومنه يؤخذ كل شىء، حتى ذرات بدن آدم عليه الصلاة والسلام وبنيه منه تؤخذ، هذا الحديث الذى يشير إلى أن آدم الحقيقى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو كتاب عالم القلوب، وهو أيضا اللوح المحفوظ ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ وهذا الحديث هو المروى عن علقمة وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما والذى يرويه أيضا أبونعيم الحافظ فى كتابه عن مرة بن مسعود رضى الله تعالى عنهم جميعا.. هى نفسها الرواية السابقة، ولكن فيها زيادة تأكيد للسابقة، إذ تروى ما سبق إلى أن يقول: «أنظر فى أم الكتاب» فينظر فى «اللوح المحفوظ» فيجد فيه رزقه أثره... إلخ»[1].

إذن فلا إلباس، فى كل ما سبق بحمد الله تعالى.. وإن كان هناك إلباس متوهم، وجاء السؤال السابق لأجله ـ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ـ فهو آت من قبل الرواة، فعندهم «أم الكتاب» هو «اللوح المحفوظ»، و«اللوح المحفوظ» هو «أم الكتاب». وهذا ما تؤكده هذه الرواية، وقد سبق أن أشرنا إلى قضية التفريق بينهما ـ ومن شاء ذلك فليرجع إليه فى مكانه بحمده تعالى ـ إذن فالإلباس الذى جاء من أجله السؤال.. أظن أنه ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ قد وضح وزال، بزواله تتجلى إشارة أن الجميع قد وضعوا فى صلب آدم عليه الصلاة والسلام وإشارة أن الجميع أيضا قد وضعوا وهم كاملو البنية واستنسخوا منه فى المرة الثانية وهم أيضاً كاملو البنية، وأن هذه البنية التى وضعوا عليها فى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى نفسها التى كنا عليها عند أخذ الميثاق.. وأظن أن فى كل ما سبق إشارة لما جاء السؤال السابق لأجله.

ومن خلال ذلك كله تتضح لنا حلول إشارة أخرى سبقت وهى مرتبطة بهذه الإشارة.. ألا وهى قضية لو أن هذا الميثاق أخذ من تلك الذرات ـ الجنس الإنسانى ـ

(١) جامع احكام القرآن للقرطبى: ٦/٣٨٨.

لكانوا عقلاء.. وإذا كانوا عقلاء، لوجب أن يتذكروا فى هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم فى هذا العالم.. وفى الرد على الإشارات السابقة بعض الدلائل التى قد تجيبهم على استفسارهم هذا.. ومن ذلك بعون الله تعالى وتوفيقه أن قضية التذكر والتذكرة قد أجبنا على جزء كبير منها أثناء الحديث عن التسوية السابقة - بحمد الله تعالى وتوفيقه - ولا بأس أن نزيد ما ييسره الله تعالى - أيضا - لتكون الفكرة أكثر وضوحا وجلاء - ولكن قد تسبق إشارة هذا التذكر جلاء بعض أسباب هذا التذكر.. فكيف ذلك - بعون الله تعالى - وتوفيقه - والإجابة على ذلك أظنها تبدأ - بعون الله تعالى وتوفيقه - من كلام الشيخ ابن عربى السابق ألم يقل هناك: (..إن عالم القلوب، هو آدم الحقيقى، وهو قلب العالم، وهو نسخة من «أم الكتاب»).

إذن فالإنسان هو القلب.. وما دام هو القلب، فمن هنا تبدأ إجابة هذا التذكر.. ولكن قبل ذلك، ترى ما هو القلب فى مفهوم اللغة والقرآن الكريم والطب؟ وماذا قال أهل الأثر والتفسير.. عن توضيح هذا القلب وماهيته؟

انتهى الجزء الأول، ويليه - بإذن الله تعالى - الجزء الثانى، والذى هو بعنوان:

«القلب - الفؤاد - عجب الذنب - بين الطاقة والمادة

فى مفهوم الإعجاز وعلوم الاستنساخ فى عالم الطب».

وصلِّ اللهم على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم..

قائمة بأهم المراجع

(أ) القرآن الكريم وعلومه:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ مؤسسة جمال للنشر ـ بيروت.

٣ ـ تفسير الطبرى ـ محمد بن جرير الطبرى جـ١٢.

٤ ـ تفسير ابن كثير ـ للإمام ابن كثير.

٥ ـ تفسير الكشاف ـ للإمام الزمخشرى.

٦ ـ جامع أحكام القرآن الكريم ـ لأبى عبد الله محمد الأنصارى القرطبى.

٧ ـ تفسير مفتاح الغيب أو التفسير الكبير ـ فخرالدين الرازى ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت، جـ١٦ مجلد ٣٢.

٨ ـ تفسير أبى السعود ـ أبوالسعود العمادى ـ مكتبة الرياض.

٩ ـ تفسير ابن عربى ـ محيى الدين بن عربى ـ دار الأندلس.

١٠ ـ ما جمع من «تفسير ابن عباس رضى الله تعالى عنهما».

١١ ـ الفتوحات المكية ـ محيى الدين بن عربى.

١٢ ـ الفتوحات الإلهية.

١٣ ـ فتح القدير ـ محمد بن على الشوكانى.

١٤ ـ تفسير البيضاوى ـ الشيخ محمد أحمد كنعان ـ الطبعة الأولى ـ دار لبنان.

١٥ ـ تفسير الجلالين ـ السيوطى.

١٦ ـ تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا.

١٧ ـ تفسير الإمام النسفى ـ عبد الله أحمد ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت.

١٨ ـ تفسير المراغى ـ للشيخ مصطفى المراغى.

١٩ ـ تفسير فى ظلال القرآن ـ للشيخ سيد قطب ـ دار الشروق.
٢٠ ـ تفسير الجصاص (أحكام القرآن) أبى بكر الجصاص ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت.
٢١ ـ أحكام القرآن ـ ابن العربى ـ دار السبيل ـ بيروت.
٢٢ ـ إعجاز القرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ الطبعة الثانية ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٢٣ ـ المنتخب من تفسير الشعراوى ـ الشيخ الشعراوى.
٢٤ ـ آيات قرآنية فى مشكاة العلم ـ يحيى المحجرى.
٢٥ ـ صفوة التفاسير ـ محمد بن على الصابونى ـ دار القلم ـ مكتبة جدة.
٢٦ ـ دلائل إعجاز القرآن ـ عبد القاهر الجرجانى ـ مكتبة البابى ـ مصر.
٢٧ ـ نصوص الحكم ـ محيى الدين بن عربى.
٢٨ ـ الإعجاز القرآنى ـ للباقلانى.
٢٩ ـ الإعجاز القرآنى ـ للرمانى.
٣٠ ـ الإعجاز القرآنى ـ للشيخ محمد متولى الشعراوى.
٣١ ـ نظرات فى القرآن الكريم ـ للشيخ محمد الغزالى.
٣٢ ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى ـ الطبعة الثالثة ـ مصطفى البابى وأولاده.

(ب) الحديث الشريف وعلومه:

١ ـ صحيح البخارى ـ جـ١٣ ـ تعليق محمد شاكر.
٢ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى.
٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ـ للإمام النووى.
٤ ـ صحيح الإمام الترمذى ـ للترمذى.
٥ ـ سنن الإمام ابن ماجه ـ ابن ماجه.
٦ ـ سنن الإمام النسائى ـ النسائى.
٧ ـ تنوير الحوالك على موطأ مالك ـ الإمام مالك بن أنس «رضى الله تعالى عنه».
٨ ـ رياض الصالحين ـ الإمام النووى ـ مطبعة الحلبى ـ القاهرة.
٩ ـ عمدة القارىء ـ للإمام العينى.
١٠ ـ مجموعة فتاوى ابن تيمية ـ الإمام ابن تيمية ج٣٧.

١١ ـ النبوة والأنبياء ـ الإمام ابن تيمية ج٣٧.
١٢ ـ مسند الإمام ـ للإمام أحمد.
١٣ ـ سنن أبي داود ـ أبي داود.
١٤ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ ابن تيمية.
١٥ ـ دليل الفالحين ـ الشافعى.
١٦ ـ نيل الأوطار ـ للإمام محمد بن على الشوكانى.
١٧ ـ سبل السلام ـ محمد الكحلانى ـ مكتبة الرسالة العربية.
١٨ ـ مسند زيد ـ زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ منشورات دار مكتبة الحياة.
١٩ ـ البحر الزخار ـ أحمد يحيى المرتضى ـ المكتب الإسلامى.
٢٠ ـ شرح السنة النبوية ـ الإمام النووى.
٢١ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)
٢٢ ـ حلية الأولياء ـ للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى.
٢٣ ـ المشكل فى غريب الحديث ـ ابن قدامة.
٢٤ ـ الحاوى للفتاوى ـ للإمام الحافظ السيوطى.
٢٥ ـ زاد المعاد ـ للإمام ابن القيم.
٢٦ ـ الروح ـ للإمام ابن القيم.
٢٧ ـ الفصل فى الملل والنحل ـ ابن حزم.
٢٨ ـ المحلى ـ ابن حزم.
٢٩ ـ إحياء علوم الدين ـ الإمام أبى حامد الغزالى.
٣٠ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام.
٣١ ـ مجموعة رسائل ابن عربى ـ محيى الدين بن عربى.
٣٢ ـ تاريخ الطبرى ـ للإمام الطبرى.
٣٣ ـ الكامل فى التاريخ ـ لابن الأثير.
٣٤ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير.
٣٥ ـ قصص الأنبياء ـ ابن كثير.

٣٦ ـ عرائس المجالس ـ ابن كثير.
٣٧ ـ المواهب اللدنية ـ أحمد محمد القسطلانى ـ الطبعة الأولى.
٣٨ ـ قصص الأنبياء ـ لعبد الوهاب النجار.
٣٩ ـ قصة الإسراء والمعراج ـ للشيخ محمد متولى الشعراوى.
٤٠ ـ مروج الذهب ـ أبى الحسن المسعودى ـ الطبعة الرابعة ـ مطبعة السعادة ـ مصر.
٤١ ـ العلل ومعرفة الرجال ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ المكتب الإسلامى.
٤٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ـ الطبعة الثانية ـ دار الدعوة.
٤٣ ـ التذكرة فيما بعد الموت ـ للقرطبى.
٤٤ ـ كتاب الإبريز ـ لسيدى أحمد بن المبارك ـ دار الفكر.

(ج) علـــوم اللغـــة:

١ ـ لسان العرب ـ لابن منظور.
٢ ـ تاج العروس ـ الزبيدى.
٣ ـ القاموس المحيط ـ للفيروزبادى.
٤ ـ المخصص ـ لابن سيده.
٥ ـ المحكم ـ لابن سيده.
٦ ـ الخصائص ـ لابن جنى
٧ ـ فقه اللغة للثعالبى ـ للثعالبى.
٨ ـ سر الصناعتين ـ لأبى هلال العسكرى
٩ ـ مثلث قطرب ـ قطرب.
١٠ ـ المفصل للرضى ـ للرضى.
١١ ـ المقاييس فى اللغة ـ لابن فارس.
١٢ ـ الكامل للمبرد ـ للمبرد.

(د) كتب علمية وثقافية متنوعة:

١ ـ «اعرف دماغك» ـ الدكتور إبراهيم فريد الدر ـ دار الآفاق الجديدة.
٢ ـ «القلب والدورة الدموية» ـ دار الهلال.

٣ ـ «كل شيء عن الجلد» ـ دار الهلال.
٤ ـ «من مبادىء علم التشريح ووظائف الأعضاء» ـ الدكتور شفيق عبدالملك.
٥ ـ «موجز في تاريخ الزمان» ـ ستيفن هوكنج ـ ترجمة: عبدالله حيدر ـ أكاديميا ـ بيروت.
٦ ـ «التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامي» ـ الدكتور محمد فوزي جاب الله.
٧ ـ «هندسة المستقبل» ـ الدكتور أحمد شوقي ـ المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى.
٨ ـ «مجلة اليقظة».
٩ ـ «خلق الإنسان» ـ عبد الفتاح طيرة ـ الجزء الأول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.
١٠ ـ «سليمان عليه الصلاة والسلام وحقائق التلفزة» ـ عبد الرحمن الرفاعي ـ مكتبة مدبولي الصغير.

محتويات الكتاب